وكأننا في السماء
The Sky at Our Feet

نادية هاشمي
Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرز الله

2023

Akalemat

وكأننا في السماء



وكأننا في السماء

The Sky at Our Feet

نادية هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

DarKalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

ردمك: 978-9921-768-44-2

إهداء

إلى أمي وأبي

لأنهما منحاني السماء

واستمع، وأنت في السماء، للأنغام السماوية في كل مكان.

الرومي

في السماء التي سنسكنها، لن نفقد أجنحتنا. بل حُب وحب وحب.

حافظ

الفصل الأول

تتشابه طيور الحمام، في جميع البلدان، في سمات قليلة مهمة. إنها ذكية يمكنها الطيران في السماء والعودة إلى بيتها بعد ذلك. تأكل أي شيء تقريبًا: جزر، خس، فلفل، أرز، وفتات الخبز. ليست انتقائية. بل تحتاج إلى الحصى الصلب بالفعل لهضم طعامها. قد يكون ذرات رمل صغيرة، أو أصداف محار إن وُجِد بجواركم أصداف محار.

أنا لا أجد. لا توجد أصداف محار كثيرة في هذه المدينة المزدحمة في نيوجيرسي. ولا أتخيل وجودها في أفغانستان أيضًا، لأن أفغانستان لا تطل على بحر.

مع ذلك توجد هنا وفرة من الحصى، الفضل لفتات أسمنت المدخنة وزخارف المبنى، أن تنعم الطيور أعلى سطح بيتنا بحال جيدة. أضع لها صحون الماء النظيف، وأغيره كل عدة أيام. أحيانًا يتولى المطر هذا الأمر بدلًا مني.

أنظر إلى الأعلى. تركتْ طائرةٌ خيطًا رفيعًا من القطن الأبيض في إثرها. حين كنت صغيرًا كانت أمي تختبرني بأحجيات تعرفها من طفولتها في أفغانستان. كل أحجية لغز غامض، وكنت أحب تحدّي حلها. أغمض عينيّ وأتذكر واحدة.

ما الذي يحلق في السماء دون أن يترك مكانه؟

حللتُ هذه أسرع مما توقعتْ أمي.

العين، أتذكر قولي لها.

ليس مسموحًا لي بالصعود إلى هنا. لن ترضى أمي لو علمت بصعودي إلى السطح يوميًا تقريبًا لأحاول تدريب الحمام. بنايتنا قديمة وسطحها غائر في بعض المواضع. ليس له سور أيضًا، لذلك أحرص على عدم الاقتراب من الحافة. لكنه آمن إن كنت تعرف ما تفعله، وقد ظللت أفعل ذلك لمدة عام تقريبًا. بعد أن أخبرتني أمي أن هذا ما كان يفعله بعض جيرانها في أفغانستان، قبل وقت طويل من مجيئها إلى نيوجيرسي.

«دعه وشأنه»، أُتمتم. لِبيلي، أسوأ الطيور التسعة التي تعيش على سطحنا. يتدافع نحو الطعام كأنه حقه أكثر من أي طير آخر. لا شيء يميزه حقًا، لكنه يتعامل على أساس أنه مميز. طير آخر لونه بني أكثر منه رمادي، قد يكون، أو تكون، أكبر سنًا من الآخرين، لديه ندب على أحد جانبي وجهه ولا يتحرك بسرعة كالطيور الأخرى. الطيور الأخرى جبانة جدًا. استغرقتْ وقتًا طويلًا حتى اعتادت ظهوري من فتحة السطح حين أرفع الغطاء لأصعد إلى هنا، فلا تحلق مبتعدة. صارت تتجمع حولي الآن إذ تعرف أن لدي شيئًا ما جيدًا لها.

تحلق لأعلى لكنها تعود دائمًا. لم أستطع تدريبها على أيِّ حركة مثل مدربي الحمام في أفغانستان، لكنني أعمل على ذلك. أخبرتني أمي أن جارهم في أفغانستان كان لديه طيور بإمكانها الطيران في دوائر تامة أو ببطونها لأعلى. كانت تطير لأميال لتوصيل رسائل سرية مربوطة بأقدامها ثم تعود إلى عشها. لم تقترب طيوري إلى أي من هذا، لكن طالما استطاع أفغان كثيرون آخرون فعل ذلك، فظني أن هناك طريقة مؤكدة.

يفاجئني صوت وأنا ألقي بقطع الخبز المدهون بالزبدة.

«ماذا تفعل هنا؟»

أتـرك العلبـة البلاسـتيكية مـن يـدي وأسـتدير. أرى مِـس راز، صاحبـة البيـت وسـاكنة الطابـق الأول، يبـرز رأسـها مـن الفتحـة.

«كنت فقط-»

لكنهـا ليسـت صاحبـة البيـت ذات الشـعر الفضـي المعتـادة. لا تشتغل بالإبرة، أو تشاهد برامج المسابقات أو تشكو آلام ظهرها. لـم أرهـا، أو أسـمعها، تقتـرب قـط، بـل تظهـر فجـأة دائمًـا، مرتابـة وصارمـة.

«اهبِط مـن فـوق السـطح فـورًا! ليـس مسـموحًا لـك بالصعـود إلـى هنا».

ولا هي أيضًا، في الحقيقة، إلا إذا أرادت كسر فخذها مجددًا.

«آسـف»، أغمغـم وأحـاول إخفـاء صحـون المـاء والأرز عـن نظراتهـا المتفحصة.

تـراقبنـي أهبـط السـلم وأعـود إلـى البنايـة. تتابعنـي وأنـا أسـير، بكتفيـن متهدلتيـن، إلـى شـقتنا فـي الطابـق الثالـث. تشـغل كل طابـق شـقة واحـدة تطـل نوافذهـا علـى الشـارع أو سـاحة انتظـار متجـر كبيـر فـي الخلـف. السـطح هـو المـكان الوحيـد الـذي يطـل علـى منظـر واسـع لإلكتـون. يمكننـي رؤيـة سـطح مدرسـتي شـرقًا، ومحطـة القطـار فـي اتجـاه الجنـوب، والطـريق المـؤدي إلـى المغسـلة، والمتنـزه الـذي كسـرتُ فيـه ذراعـي علـى قضبـان لعبـة القـرود.

أمـي فـي شـقتنا التـي تشـغل الطابـق العلـوي، سـتغضب بشـدة لمـا فعلته.

«مِس راز»، أقول محاولًا الخروج من هذا المأزق. نحن في أكتوبر وسيسقط الثلج بعد شهرين. قد أعرض عليها أن أزيح الثلج عن السلم والرصيف مجددًا.

«لا تحاول. افتح هذا الباب ليمكنني إخبار أمك أين وجدتك». تنظر إليّ من خلف نظارتها المعلقة بسلسلة رفيعة حول عنقها. تنتظر أن أتحرك. تُصرّ ألواح الأرضية تحت قدميّ وأنا أتململ وأماطل.

«شاه جان، أهذا أنتَ؟» تصيح أمي من داخل الشقة. «تعال لنقطع تلك الكعكة الجميلة!»

الكعكة. تخطر لي فكرة لن تنجح إلا إذا وُجِد بعض الدفء في مكان ما في قلب مِس راز.

«إنها في انتظاري»، أوضّح لها. «عيد ميلادها اليوم، ادخرتُ نقودا واشتريتُ لها كعكة شوكولاتة. أتودّين قطعة؟»

تعقد مِس راز ذراعيها على صدرها وتتأفف وتغمغم بشيء ما عن إدخال أغطيتها من الشرفة.

«إن رأيتك هناك بالأعلى مجددًا، سألقي بك خارج البناية فورًا!»

أومئ برأسي بأسف وأنتظر انصرافها قبل أن أفتح الباب. لا أريد أن تراها أمي خلفي وتكتشف أنني غيرت مساري وأنا أجلب البريد.

«سلام يا مادر!» أصيح. تقف أمي في مطبخنا الصغير، ظهرها لي. ترتدي بنطالها الجينز الفاتح، وشعرها مجموع في ذيل أرنب متجعد من رطوبة المغسلة التي تعمل بها. صوت نشرة

الأخبار في التلفاز في الخلفية. تشاهد أمي الأخبار دائمًا، كأنها في انتظار سماع خبرٍ ما.

لم أتعلم منها كثيرًا من الدارية، لكنها تصر على أن أُحييها بتحية الأفغان، تحية السلام.

«سلام، جانّم[1]*». تقول بغنائية. تستدير لتنظر إليّ فأرى على طاولة المطبخ الصغيرة طبقًا من كواحل الدجاج المتبلة والبطاطس المطبوخة، بجواره الكعكة الصغيرة التي اشتريتها، تبرز منها شمعة رفيعة وحيدة. «أعددتُ لك طعامك المفضل!»

تحب ممارسة إنجليزيتها معي، لذلك تدور كل محادثاتنا بالإنجليزية. مهمتي تصحيح النطق والقواعد، مع أنها لا تسعد كثيرًا حين أفعل هذا.

«إنه عيد ميلادك أنتِ، كان عليك إعداد طعامك أنتِ المفضل»، أصحح لها بعفوية. الكعكة ليست سوى كعكة مكوية صغيرة، لكنها ما أمكنني شراؤه، ومغطاة بنثار للزينة، لذا أبذل جهدًا كبيرًا لمنع نفسي من غمس إصبعي فيها وتذوقها. أشعر بالامتنان لمِس راز لأنها لم تدمر هذه اللحظة.

«كيف كان يومك في المدرسة؟» تقول متجاهلة تصحيحي. تُقبِّل رأسي وتشير لي إلى الحوض لأغسل يديّ.

«كان جيدًا»، أجيبها وأفتح الصنبور فيسيل خيط رفيع من الماء. أُدير المقبض دورة أخرى فينهمر الماء على يدي. المبنى قديم، لذلك يوجد دائمًا شيء ما يتشقق، يُسرِّب، يهتز، أو يتعطل.

---

(1) * عزيزي بالدارية

صرتُ أنا وأمي ماهرين بالفعل في إصلاح أغلب الأشياء بأنفسنا كي لا نزعج مِس راز كثيرًا. أفتح الخزانة أسفل الحوض وأغلق محبس الماء كي لا يُغرق المكان. أفتح درج الأدوات وألتقط مفكًا سداسيًا اشتريناه من متجر كل شيء بدولار. أفك مقبض الصنبور وأجد قطعة شبكية بالداخل. أدهنها بمادة لزجة وأعيد تركيب القطع معًا. «كيف حال العمل؟»

تقف أمام التلفاز، تستمع إلى مذيع الأخبار يتحدث عن احتجاجات ضد المقيمين في أمريكا بشكل غير شرعي. على الشاشة أشخاص يهتفون ويلوحون بلافتات. تقول اللافتات أشياء مثل *أمريكا للأمريكيين وعودوا إلى بلادكم*.

أجد الحلقة المطاطية الصغيرة داخل المقبض بالية ولا سبيل لإصلاحها. أبحث في درج الأدوات مجددًا وأجد رباطًا مطاطيًا. ألفه حول المقبض من الداخل مرتين وأثبته جيدًا. أعيد تركيب القطع معًا مجددًا وأفتح المحبس أسفل الحوض.

«ها!» أقول فرحًا لنجاح حيلة الرباط المطاطي.

«ربي الرحيم»، تقول أمي بالدارية.

«ما الأمر يا ماما؟» أسألها وأنا أجفف يدي بمنشفة. أتتبع نظرتها إلى الشاشة وأرى الاحتجاجات الغاضبة، ما يقولونه عن المتسللين إلى البلد. «إنهم غاضبون من الذين يخرقون القواعد. أنت تغضبين بالقدر نفسه حين أخرق القواعد. أتذكرين ما فعلتِه حين شاهدتُ التلفاز لمدة نصف ساعة إضافية الثلاثاء الماضي؟»

أضحكُ على طرفتي. لكنها لا تضحك.

«ماما.. أأنتِ بخير؟»

تبدو كأنها على وشك البكاء. تبدو أيضًا كأنها تريد إخباري بشيء ما، بل بدت كذلك طوال الأسابيع القليلة الماضية في الحقيقة. ظني أنني كنت أنتظر هذه اللحظة، مع أنني لم أعرف ماذا أنتظر تحديدًا.

«شاه جان»، تقول ببطء. «أنا مثل هؤلاء- نحن متشابهون».

ماذا تَعني بهذا؟ إنها ليست مثل هؤلاء في شيء. لا تتحدث الإسبانية. لم تتسلل إلى البلد في منتصف الليل. بل تتحدث الإنجليزية ولديها عمل ثابت.

«اجلس. حان الوقت لأخبرك بقصتي».

تضطرب معدتي فجأة. أتوتر. طلبتُ منها مئات المرات أن تحكي لي عن أفغانستان. كانت أحيانًا تصف مكانًا يبدو كالجنة.

مذاق الفواكه كأنها مرشوشة بالسكر. يفتح الناس أبوابهم للجميع حتى للغرباء، يجد المسافرون الطعام والرعاية دائمًا. الجبال عالية وشامخة، أروع من أي ناطحة سحاب. في كل بيت شاعر وموسيقار لأن الكلمات والأنغام يمنحان الأفغان الحياة. أفغانستان بلد الفرسان- من يغلبون الجاذبية من فوق صهوة الأحصنة.

قد يذهب الأفغان إلى نهاية العالم من أجل الشرف والعائلة. الاحتفالات ببذخ وبهجة- مناسبة لارتداء ملابس جديدة ومنح الصغار المبتسمين نقودًا.

أحيانًا أخرى، تجفل وتغير الموضوع فحسب. ظني أنها تتذكر حينها الأشياء غير الرائعة في أفغانستان. أشعر أنها ستخبرني عن هذه الأشياء الآن، ولا أعرف إن كنت أريد سماعها أم لا.

أجلسُ إلى المائدة. تجلس هي أيضًا.

«توجد أشياء لم أخبرك بها من قبل. لكن يبدو أنه قد حان الوقت لأخبرك لماذا لا يمكنني العودة. حين أرى هذا ...»، تشير إلى الوجوه الغاضبة على شاشة التلفاز، «لا أعرف ماذا سيحدث».

أنظر إليها ثم إلى المحتجين.

لا أعرف لماذا، لكنني أشعر أن حل المشكلة التي على وشك أن تُعلنها، خلافًا لمشكلة الصنبور، لن يكون سريعًا.

الفصل الثاني

تضع أمي مرفقيها على الطاولة.

«شاه جان، يجب أن تعرف شيئًا»، تقول ببطء. هي وخالتي سيما الوحيدتان في العالم اللتان تدعوانني «شاه». كان هذا اسم أبي، ويعني «ملك».

أتمنى لو كان أبي معنا الآن ليستمع إلى ما ستُخبرني به.

من الغريب أن أفتقد شخصًا لم أره من قبل لكنني أفتقده. كبرت مع عدد من الصور الفوتوغرافية له فحسب، وأغلبها مغبش وبعيد. في إحداها، يجلس على أريكة، شعره كثيف ومموج. تميل أمي برأسها إلى كتفه، ويلف ذراعه حولها، ينظر إليها وليس إلى الكاميرا. لهذا أعتقد أن أبي كان مُحبًا.

في أخرى، يجلس على دكة بجوار رجل آخر. يضحك الرجل بشدة، عيناه مجرد شقان رفيعان. لهذا أعتقد أن أبي كان خفيف الظل.

كثيرًا ما أحدق في صورة له على الطاولة بجوار فراشي. يرتدي فيها قميصًا رماديًا طويلًا وبنطال جينز. ذراعاه على صدره ويوجد قلم أعلى أذنه. يقف على درب جبلي بظهره لمنحدر مائل بشدة خلفه. لهذا أعتقد أنه كان شجاعًا.

«ما الأمر يا ماما؟»

تأخذ نفسًا عميقًا.

«سأبدأ من البداية»، تقرر. «كان أبوك صحافيًا في أفغانستان. أخبرتك بهذا. لكنه لم يستطع كسب ما يكفي من المال لدفع الإيجار وإطعام أسرته. اقترحَ عليه أحد أصدقائنا ذات يوم عملًا آخر، كان الجنود الأمريكيون يبحثون عن أشخاص يترجمون لهم، وكان أبوك يتحدث الإنجليزية جيدًا جدًّا- أفضل مني بكثير».

أتخيل أبي يقف مع الجنود الأمريكيين. أكان يرتدي الزي المموه؟ أكان يعتلي الدبابات؟ تخيلته ملايين المرات، لكنني لم أتخيله هكذا قط. هذه صور جديدة تطفو في رأسي.

تأخذ أمي نفسًا عميقًا آخر وتواصل حكيها.

«ظل في هذا العمل لعامين. كان دائمًا مع الجنود، وكان ذلك خطرًا. كنت أحيانًا لا أراه لشهر أو شهرين. وكنت مرعوبة عليه. كنا قد تزوجنا قبل عام واحد من بدئه هذا العمل، أخبرته أنه عمل خطِر لكنه أجابني أنه فرصة للسفر إلى الولايات المتحدة والدراسة هناك في المستقبل. كان يقول إن المستقبل أهم من أي شيء. يوم ما شبت معركة وأصيب. من حسن الحظ أن جاءت الإصابة في يده فقط. أخرج الأطباء المعدن من الجرح وصار بخير. تلقينا حينها أخبارًا سعيدة. قالت السفارة إنها ستمنحني تأشيرة دراسة للقدوم إلى هنا. كان أبوك سعيدًا جدًّا من أجلي. قال إنه سيقوم بمهمة واحدة أخيرة مع الأمريكيين ثم سيتقدم بطلب تأشيرة خاصة ليلحق بي. كان يساعدهم ليساعدوه- كما يفعل الأصدقاء. ظللت هنا شهرًا تقريبًا قبل أن أعرف بمجيئك. اتصلت به لأخبره وكان سعيدًا جدًّا».

ترفع بصرها لصورة أبي ثم تعود بنظرها إلى الطاولة.

«أَحْبّك من اللحظة التي أخبرته فيها. تحدث عنك كأنه كان يحلم بك طوال حياته. أراد أن يعلمك كرة القدم ويطعمك كبابًا وأرزًا ويساعدك في حل مسائل الجبر لتكون من المتفوقين. أراد أن يعرفك على أصدقائه وأن يصطحبك معه إلى الجامعة حيث كان يدرّس. أراد أن يحملك على كتفيه ليكون العالم عند قدميك».

أشعر بغصة في حلقي وهي تقول كل هذا. أتذكر حين أخذتني إلى المتنزه بكرة قدم تحت ذراعها. ظللنا نتبادل ركل الكرة بيننا، بلا حماس. استطاعتْ تمرير الكرة من بين قدميّ لكنها انزلقت على العشب المبلل وسقطت على الأرض. ضحكنا بشدة، لكن ضحكها تحول إلى بكاء. ظني أنني فهمتُ هذا الآن.

«كان سعيدًا لأنه سيصبح أبًا- أبوك- لكنه كان قلقًا أيضًا. كان يريد أن يمنح طفله عالمًا مثاليًا».

كره أبي سيطرة أشخاص سيئين على بعض المناطق في البلد. كره أن المال والمخدرات باتا أهم من الحرية. أن تتسول نساء وأطفالهن في الشوارع فيما يتجول المجرمون بسياراتهم الفارهة. كره أن واصل من ارتكبوا الأخطاء الفادحة حقًا عيش حياتهم دون اعتذار حتى، فيما لم تتوقف آلام من لحق بهم الضرر.

«كان يحب عمله صحفيًا. أراد أن يكتب حقيقة ما يحدث في أفغانستان. كان يقول «بيت الأكاذيب هذا ليس مكانًا لتربية الأطفال».

تتمدد معدتي من القلق وهي تخبرني بهذا حتى وإن كان كل ما تتحدث عنه قد صار ماضيًا بالفعل.

«حين تحسّنت يده، حان وقت المهمة الأخيرة. كان يحب العمل مع الأمريكيين. قال إنهم تركوا أسرهم وقطعوا مسافة طويلة ليأتوا ويقاتلوا من أجل الشعب الأفغاني. توسلتُ إليه أن يحترس، كثيرون لم يحبوا عمله مع الأمريكيين. قالوا عنه إنه جاسوس، خائن. قالوا أشياء فظيعة. لكنه كان عنيدًا جدًا، مثلك. أذكر ما قاله لي. «على الأب أن يمنح أبناءه أفضل عالم وأفضل طعام. كيف سأطلب من أبنائي أن يدعونني أباهم لو لم أفعل ما على الأب أن يفعله؟»

بدأت أتوقع مسار هذه القصة، وأريدها أن تسكت. أحب ما ظللت أصدقه حتى الآن. لا أريد تغيير شيء.

يمكنني الصياح فيها لإسكاتها، لكنّ جزءًا مني يريد أن يعرف كم ما ظلت تخفيه عني. أستند بمرفقيّ إلى ركبتيّ وأطرق برأسي. لا يمكنني النظر إلى وجهها. لا أريد أن أرى عينيها الدامعتين. أفكر في صورتها مع أبي وهو يلف ذراعيه حولها وهي تميل برأسها إليه. تبدو في حاجة إلى أن تميل برأسها إلى أحد الآن. يسوء الأمر.

«كان في انتظار التأشيرة. واصل السيئون في أفغانستان قول أشياء سيئة عنه. أخبره الأمريكيون أنه لا داعي للقلق، وأن التأشيرة ستصدر خلال وقت قصير. وعدني أن كل شيء سيكون بخير وأننا سنكون معًا قريبًا. لكن من قالوا عنه إنه جاسوس...» تسكت لتأخذ نفسًا عميقًا. «أثبتوا له أنه مخطئ».

أشعر بألم حقيقي في معدتي- كأنني لا أعرف من أنا. هذه أول مرة أشعر بالخوف حقًا- خوف يغرس رايته في ذهنك ويقرر أنه سيبقى.

كعكة عيد الميلاد الصغيرة بيننا على الطاولة، ذابت الشمعة وتحولت إلى بركة شمعية صغيرة. يصيبني منظرها بالغثيان. مقززة جدًّا إلى حد أنني كدت أتقيأ هنا في المطبخ.

«لم يكن حادث سيارة»، أقول لأتأكد أن قصة وفاة أبي التي ظللت أصدقها ليست حقيقية.

تهز رأسها. تزيح شعرها عن وجهها وتستجمع شجاعتها لتخبرني ببقية القصة.

«اتصلت بي عائلتي من أفغانستان. كنت محطّمة. أردت أن أعود فورًا لكنهم أصروا على عدم عودتي. قالوا إن أفغانستان ليست آمنة. كانوا يستقبلون مكالمات هاتفية، رهيبة. ويجدون كلمات فظيعة مكتوبة على بابنا. لذلك ظللت هنا. لم تجد الشرطة الجناة. لا أعرف إن كانوا قد حاولوا حتى أم لا».

تسيل الدموع على وجهي. أعرف أن كل هذا حدث لأمي منذ وقت طويل، لكنني أشعر أنه يحدث لي، لأول مرة، الآن.

«كدت أفقد صوابي إذ كان عليّ مواصلة دراستي كأنّ شيئًا لم يحدث»، تقول وهي تطوي منشفة مطبخ ورقية وتعيد فردها. أرى الآن كيف انهارت أحلامها في أن تكون طبيبة.

واصلتْ قصتها، حاولتُ فهم علم الأحياء ووضع الأرقام في مسارها الصحيح في التفاضل والتكامل. كانت تتلقى بعض المال من أبي من أجل الملبس والمأكل والكتب. وكانت تعمل بدوام جزئي في أحد المعامل في الجامعة أيضًا، لكنها واجهت صعوبات حين فقدته.

«أتساءل إن كان البكاء الذي بكيته وأنا حامل فيك قد أذاك. إن كان هو السبب في ولادتك مبكرًا جدًا».

أعرفُ بقية القصة. وُلدتُ مبكرًا، قبل أيام قليلة من بداية العام الجديد. بدلًا من انتظار تسعة أشهر، وُلدتُ بعد ستة. كانت الأرصفة مكسوة بالثلج، وكلمات الناس معلقة في الهواء البارد كأطياف. قضت أمي شهرين بجانبي في المستشفى، تراقبني أنمو في حضّانة دافئة بدلًا من بطنها.

يجب أن تمنحيه اسمًا، قالوا لها في المستشفى. أخبرتْهم بالاسم الذي اختارته لي هي وأبي.

سِردار شاه.

حين حاولوا نطقه، بدا فظيعًا لأمي وتساءلت إن كان الأمريكيون جميعًا سينطقونه هكذا.

«كانت هناك ممرضة، كانت طيبة معي»، واصلتْ أمي. «علمتني كيف ألفك وأطعمك. وكانت تجلب لي قِرَب الماء الساخن لظهري».

سألتْها أمي عن اسم يبدو أمريكيًا فاقترحت عليها الممرضة: «كيفن. براندون. ديكستر»، لم تعرف أمي أيًا من هذه الأسماء. حين حاولت ترديدها رأت الممرضة تطرف بعينيها مرتين. فعرفتْ أنها لا تنطق بشكل سليم.

«ماذا عن جيسون؟» سألت الممرضة. «إنه اسم ابني».

نظرت أمي في التقويم. رأت الأشهر التي حملتني خلالها. يوليو، أغسطس، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر.

«نعم»، قالت تحاول تقليد نطق الممرضة. «إنه جيسون».

«وماذا عن الاسم الوسط؟»

عادت أمي تنظر إلى التقويم. ديسمبر.

جيسون دي. رياضي. كررت الاسم الأجنبي بينها وبين نفسها، وهي تحمل صغيرها الأمريكي بين ذراعيها. تمنت أن يستطيع الاسم الذي تنطقه بصعوبة حمايتي، وجعلي غير قابل للمس.

«تأخرتُ في دراستي»، تواصل قصتها. «أرسلوا إليّ خطابات. حاولت أن أوضح لهم أنني في حاجة إلى وقت. كنت صغيرًا جدًّا وما زلتُ في المستشفى. ثم تلقيت خطابًا يخبرني أنني لا يجوز لي البقاء في البلد. خطاب يخبرني أن عليّ الرحيل، لكن كيف أرحل؟ كنت رضيعًا في المستشفى وقبر أبيك لم ينمُ عليه العشب بعد. ومن يتصلون بعائلتي، ما زالوا يتصلون. كانوا غاضبين لأن وجه أبيك قد تصدّر الصحف وأحبه الكثيرون. أقسم السيئون حينها إن أسرته لن تعيش آمنة في أفغانستان أبدًا».

لذلك ظللتُ في أمريكا.

لكن، بعد وفاة أبي، ماذا كانت فرص أسرته لنيل تأشيرة؟ إلى من يمكنها التوجه دون أن تخاطر بترحيلها إلى أفغانستان؟

قد يجدونها في أي وقت، قد يقبضون عليها في أي وقت. لديها جواز سفر وتأشيرة دراسة منتهيا الصلاحية؛ ما يعني أن السلطات قد تعيدها إلى أفغانستان في أي وقت. بعلمها بما حدث لأبي والفظائع التي يقولها الناس، كان عليها اختيار المستحيل.

باعت كتبها وألقت بدفاتر ملاحظاتها. دفنت طموحها في أن تصبح طبيبة وتضرعت لحدوث معجزات صغيرة. تنقّلت من متجر إلى آخر بحثًا عن عمل، وشقة جديدة بعيدة عن الكلية، وسبل للاختفاء.

لم تحصل على رخصة قيادة. لم تتقدّم للوظائف الجيدة. لم تطلب إعانة من الحكومة حتى وهي عاجزة عن إعالتنا أنا وهي. بذلت جهدها لتختفي في أمريكا ودعت أن يمكننا الاختباء فيها من الشيطان الذي أخذ أبي.

«يجب أن تفهم»، تقول لي. كلماتها بطيئة وهادئة لكنها حقيقية. «أنهم لو وجدوني، فسيجبرونني على الرحيل. لكنك أنت باق هنا. وإن حدث هذا، فسأحاول عبور الجبال الفاصلة بيننا حتى آخر نفس لي».

الفصل الثالث

كان أحد أيام الجمعة من شهر نوفمبر، عطلة مدرسية، لا أريد التفكير في ما عرفته عن أبي وأمي. أُصر على الاستمتاع بالعطلة. جعلني كشفها ما كانت تخفيه في حالة غريبة خلال الشهر التالي لعيد ميلادها. أخجل مما فعَلتْه وأخجل لأنني أخجل. لو لم تكن أمي أمريكية فكيف أكون أنا كذلك؟ وإن كنت لم أذهب إلى أفغانستان من قبل فكيف أكون أفغانيًّا؟

لذلك يسعدني كثيرًا ابتعادي، ولو ليوم واحد فقط، عن زملائي في المدرسة الذين لا يعرفون شيئًا عمّا نكونه أنا أو أمي، أو ما لا نكونه. العطلة اليوم لأنه يوم مهني للمعلمين.

«يوم مهني؟ أين المهنية في ترك العمل؟» غمغم مستر فازيو باستياء الأسبوع الماضي حين سألته أمي إن كان بإمكاني البقاء معها في المغسلة. «لكن جيسون دي يمكنه الجلوس هنا بالطبع».

أهدته أمي خبزًا خبزته بنفسها في اليوم التالي تعبيرًا عن الشكر. لم يكن عليها ذلك. مستر فازيو دائمًا ما يسمح لها بإحضاري إلى المغسلة. ظلت تعمل هناك لخمس سنوات، وكان يمزح قائلًا إن أمي، بطريقة ما، تجعل الزبائن يريدون تنظيف ملابسهم النظيفة حتى.

هذا الصباح، أود مواصلة النوم لكنني لا يمكنني. أغمض عينيّ بقوة وأدفن رأسي تحت الوسادة. تفوح رائحة حب الهال في الشقة، فأعرف أن أمي قد استيقظت. أسمع صوت الموسيقى الخافت، أغاني أفغانية قديمة. أتخيلها تجلس إلى الطاولة، تمسك بيديها

كوبًا من الشاي الأخضر يتصاعد منه البخار وشعرها الداكن مجموع في ذيل أرنب بخصلات مجعدة قليلة تؤطر وجهها. هذا هو الوقت الوحيد في اليوم الذي تقضيه دون أن تتحرك بأقصى سرعة. ما إن تنهي هذا الكوب، كأنها شحنت طاقتها، ستكون على استعداد ليوم عمل مزدحم في المغسلة، ولن أراها جالسة مجددًا إلا حين يحين الوقت لمراجعة فروضي المدرسية. بالتأكيد سيراودني النوم مجددًا حين سأفكر في مسائل الجبر أو أبدأ عدّ الغسالات.

بعد خمس دقائق أخرى، أخرج من تحت البطانية مستسلمًا.

أسير بتثاقل إلى المطبخ، عيناي نصف مغمضتين احتجاجًا.

«جائع؟»

«ليس تمامًا».

«يمكنني إعداد شيء ما لك».

«مثل ماذا؟»

ترفع حاجبيها.

«طبق من الكلس به سائل بلونين مختلفين. ماذا يكون؟»

قد أكون نصف نائم لكنني قادر على حل أحجياتها.

«بيض، سهلة جدًّا».

«سهلة جدًّا؟» تقول. «حسنًا. إصبع ذهبي مدسوس في الأرض».

«جزر».

تعقد حاجبيها، متظاهرة بالانزعاج لأني حللت هذه.

«أربعون غرفة بأربعين رفًا وأربعين لمبة».

«رمان».

«هو في البيت ولحيته بالخارج».

«ذرة».

«عباءة بنفسجية وتاج أخضر».

لا بد أنها نسيت أنها أخبرتني بهذه من قبل عشر مرات على الأقل.

«باذنجان».

«حسنًا، شاه جان. أنت تعرف كل شيء. تناول شيئًا ما وحين تنتهي تعال إلى المغسلة»

«ربما يمكنني البقاء هنا بدلًا من هذا».

«لا».

«للملوك أن يمكثوا وحدهم في قلاعهم، يا ماما». أقول لها كلماتها هي نفسها.

«لقد تحدثنا في هذا من قبل بالفعل».

«ماما، أرجوك. ألا يمكنني لمرة واحدة فقط أن-»

ترفع إصبعها. ماما بطلة خارقة من نوع غريب. ما قوتها؟ بمقدورها إنهاء جميع الجدالات بإصبع واحدة.

تتحدث الإنجليزية جيدًا فيما عدا أشياء قليلة. تخطئ أحيانًا في تنظيم الكلمات، كأن الجملة دخلت المجفف وخرجت مختلطة ببعضها. كذلك تنطق الكلمات بشكل غريب. تقول على كرة الفولي، كرة الوولي. وسبونج تنطقها إسبونج. وكثيرًا ما تخطئ في هو وهي لأنهما لا يوجدان في لغتها الأصلية. لم ألاحظ الأمر حين كنت أصغر، لكنني لاحظته بعد ذلك. حين رأيت أمين المكتبة يطلب منها أن تكرر ما قالته. وكذلك موظف

خدمة العملاء على الهاتف. ولا أعرف أكان موظف الاستقبال في عيادة طبيبي منزعجًا من لكنتها أم لسبب آخر؟ حين لاحظت أنها تتحدث بشكل مختلف عن الآخرين، لم يعد بإمكاني تجاهل الأمر. صرت أتساءل إن كانت تفعل أشياء أخرى بشكل مختلف أيضًا أم... حسنًا... بشكل خاطئ. تساءلتُ أيضًا إن كنت أنا أفعل أو أقول أشياء ما بشكل خاطئ لأنني تعلمتها منها.

«لكنكِ سمعتِ خالتي سيما ليلة أمس. قالت إنه ليس صعبًا أن تثقي بي لأبقى وحدي لعدة ساعات والمغسلة على مسافة ربع ساعة فقط من السير»، أتمتم، لا أريد الاستسلام تمامًا.

بما أننا وحدنا أنا وهي فقط، صارت خالتي سيما، صديقة ماما المقربة، هي من نحتكم إليها في خلافاتنا. أحيانًا ترى أن عليّ أن أريح أمي. حينها تبتسم ماما وتنظر إلى خالتي سيما بإعجاب. لكنها تقف في صفي أحيانًا كثيرة. حينها تشير ماما إلى كون خالتي سيما امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها وترتدي الجينز وتربط رأسها بمناديل مزركشة. وحين قررتْ خالتي سيما أن تنتقل للعيش في مدينة نيويورك قالت أمي إنها بدأت تفقد صوابها قليلًا.

«خالة سيما ليست أمك. لا يمكنه اتخاذ قرار فيما يخصك».

ها هي مجددًا.

«لا *يمكنها* اتخاذ قرار فيما يخصني».

«بالضبط».

«لا، لقد قلت *يمكنه*»

يبدو لي التصحيح لها أهم من أي شيء آخر الآن، كأنه يثبت خطأها في أمور أخرى أهم.

«حسنًا، لا *يمكنها*. لكنك تعرف قصدي يا جيسون. لا تبالغ في تقدير أمور صغيرة».

تفهم خالتي سيما أن هذه الأمور الصغيرة مهمة، لكنني لا أخبر ماما بهذا.

ولدت خالتي سيما في الهند، لكنها صارت أمريكية مذ كانت في الثانية من عمرها. تعود صداقتهما إلى ما قبل ولادتي. تقابلتا في نيوجيرسي، بالقرب من كلية أمي. كانت خالتي سيما تعيش في استوديو وتدرّس الفن حينذاك. كانت أمي في طريقها إلى محطة الباص حين تعثرت وسقطت في الشارع فيما يقترب الباص. كانت حاملًا فيّ حينها. جرّتها خالتي سيما إلى الرصيف في اللحظة المناسبة. تقول ماما إن خالتي سيما أنقذتْ حياتينا نحن الاثنين.

وبما أن الهند وأفغانستان متجاوران، بدا أن أمي وخالتي سيما قد وجدت كل منهما صديقة العمر في الأخرى. أخبرت أمي خالتي سيما أنها لا تعرف أي أفغانيين في أمريكا، وأنها تريدني أن أكون أمريكيًّا. وأنها لا تريدني أن أعرف شيئًا عن الأشياء الرهيبة التي هربت منها. أخذتها خالتي سيما إلى بيتها ذاك اليوم لأنها بدت منهارة. قدمت لها كوب شاي دافئ. عزفت لها موسيقى كانت أمي تسمعها في طفولتها، وأخبرتها أن كل شيء سيكون بخير، حتى وإن لم تكن أمريكا مشيدة مليئة بالذهب كما يظن أهلهما في الوطن.

تردد خالتي سيما أشياء ذكية طوال الوقت. وهي أحد الأشخاص القليلين الذين تثق بهم أمي، مع أنهما لا تتشابهان في شيء تقريبًا.

«لماذا لا تستشيرين محامي هجرة؟» تقول ماما إن خالتي سيما سألتها هذا السؤال أكثر من مرة.

«تقدمي للحصول على إقامة في البلد».

«وإن رفضوا؟ سيقولون لي غادري. والعودة إلى الوطن خطر علينا. يمكنني المخاطرة بموقفي أنا، لكن كيف سأخاطر بموقف طفلي؟»

تعرف خالتي سيما أن بإمكانها الاختلاف مع أمي لكنه من المستحيل تقريبًا أن تجعلها تغير رأيها، خاصة حين يتعلق الأمر بي.

«أنتِ والطفل لن تكونا وحدكما»، قررت خالتي سيما. تقول ماما إنها رأت العطف في عيني خالتي سيما البنيتين الفاتحتين وأصابعها الطويلة الجميلة. وأنهت شايها.

نظرت إلى اللوحات في شقة خالتي سيما، لوحات قماشية بجميع الأحجام معلقة على الجدار. كان ثمة لوحة لامرأة، ذراعاها ممتدتان أعلى رأسها، إلى السماء.

«كانت أجمل لوحة»، أخبرتني أمي. «أتعرف لماذا يرفع الناس أيديهم نحو السماء حين يصلّون يا شاه جان؟» أتعرف لماذا نرفع الأعلام لأعلى فوق رؤوسنا؟ لأننا نريد لمس هذه السماء، السماء التي تتحول من الأزرق إلى البنفسجي والوردي والبرتقالي. تجد جميع الألوان في السماء؛ الشمس، القمر، النجوم، والسحب- السماء تسع كل شيء. لهذا أحب هذا البلد، يا مليكي. لأننا فيها، نبدو كأننا في السماء».

كفّت أمي عن البكاء حين رأت لوحة خالتي سيما. جعلتها اللوحة تفكر في أنها ربما ستجد مكانًا لها. جعلتها تفكر في أن أمامها الكثير لفعله لتستعد لمجيئي، وأنه لا وقت للدموع.

تُطفئ الموسيقى المنبعثة من هاتفها الخلوي، لم يزعجها جدلي بأن المغسلة على مسافة قصيرة من السير من شقتنا.

«خالة سيما تتحدث عن الأرض كثيرًا جدًا إلى حد أن تنسى أحيانًا أن البشر مختلفون عن الشجر». أتذمر بصوت خفيض، أعرف ماذا ستقول بعد ذلك. «الشجرة قد تتركها وحدها. لكن الطفل لا يُترك وحده».

نعم، خالتي سيما من الفنانين الذين يعانقون الأشجار. تعيد تدوير كل شيء، بما في ذلك لوحات القماش. ترسم أحيانًا على لوحة ما لخلق لوحة جديدة. روحها حرة على النقيض تمامًا من أمي. وهذا ما يجعلها أغرب قريبة لنا. فيما نتناوب الشعور بالإحباط من آرائها، لكننا نحبها حقًا.

تغادر أمي الشقة وأسمعها توصد الباب من الخارج. أغسل أسناني وأرتدي ملابسي. أنظر إلى نفسي في المرآة وأتضايق حين أرى خصلة شعر بارزة لأعلى. أبللها وأبذل جهدي لتسويتها براحة يدي، بلا جدوى. آمل أن يفيدني هذا الهوائي من الشعر يومًا ما في تلقي رسائل من المريخ.

أغادر الشقة بنصف صحن من حبوب الإفطار في معدتي. كما وعدتُ، أوصد الباب خلفي وأتجه فورًا إلى المغسلة. الشتاء أدفأ من المتوقع هذا العام. الجو أشبه بسبتمبر عنه بنوفمبر، أشعر بالظمأ حين أصل شارع بلووم. تعطلت آلة البيع في المغسلة منذ

شهور، لذلك أعبر الشارع إلى محطة الوقود -التي تترك بالون بابا نويل العملاق أعلاها طوال العام- لأشتري زجاجة عصير.

يمكنني رؤية أمي في المغسلة على الجهة الأخرى من الشارع. إنها تتحدث مع زبون من خلف المنضد. أحيانًا أجلس بدلًا منها هناك ريثما تنظف مرشحات المجففات أو تكنس بلاط الأرضية المتكسّر. قد تبدو كرة وبر فالتة كفأر بسهولة (رأيتُ ثلاثة زبائن يرتجفون ويلقون بالملابس في الهواء لهذا الخطأ). الهواء رطب في المغسلة. مزيج من الرائحة العطرة لسائل تنعيم الأنسجة والرائحة النفاذة للمبيِّض. في الشتاء يجعلها دفء الآلات أفضل مكان للوجود فيه. لكنها في الصيف، تبدو كأنها برمتها داخل مجفف، بشكل مؤلم.

تظل ماكينة بيع المياه الغازية تلفظ ورقة الدولار النقدية المتجعدة، بامتعاض. أخيرًا تمر بها، بعد أن ضغطتها بأحد جانبي الماكينة لأفردها. سأطلب من أمي نقودي بعملات الأرباع. إنها تعمل في مغسلة بها ماكينات تعمل بالعملات. ودائمًا ما تعطي الزبائن باقي نقودهم أرباعًا. أهديتها في عيد ميلادها الماضي مقلمة مليئة بعملات الأرباع. لففتها في ورق جرائد وربطتها بشريط أحمر وصنعتُ بطاقة مطوية من ورق مقوى.

عيد ميلاد سعيد للمرأة التي تصنع عطورًا دائمًا(2)*.

ضحكتْ حين هزّتِ اللفة وسمعت صلصلة العملات. *كوميدي جدًا*، قالت ولكزتني في كتفي بمرح. لمحتُها في المساء لا تزال تبتسم لنفسها، فخورة لأنني صنعت طرفة ذكية ولأنها فهمتها.

---

(2) * تلاعب في الألفاظ بين makes scents بمعنى تصنع عطورًا، وmakes sense بمعنى منطقية.

https://t.me/fantazynov

الرجلان اللذان تتحدث إليهما الآن ليسا زبونين. أعرف هذا لأنهما لا يحملان ملابس. يرتديان سترتين متطابقتين بلون أزرق داكن، ويقفا منفرجي الساقين. حين يستدير أحدهما، ألمح وميض شارة لامعة حول عنقه. إنهما يسألان أسئلة، وينظران بتفحص حول المغسلة. تتوقف العاملتان الأخريان في المغسلة عن طي الملابس وتقترب إحداهما من الأخرى. يراقبان ما يحدث مثلي. يمكنني رؤية كل شيء. توارت الشمس خلف سحابة فاختفى السطوع. يمكنني رؤية وجه أمي، طريقة نظرها من رجل إلى آخر. أراها تميل إلى الخلف كأنها تحاول التراجع.

هذا سيئ.

تتسارع أنفاسي وتتقصر، وتتعرق راحتاي من القلق. هذا سيئ حقًا، يُنبئني جسدي.

اركضا إليها، أوجّه الأمر إلى ساقيّ، لكنهما لا تطيعانني. *صِح باسمها*، أخبر فمي، لكنه، هو الآخر، لا يطيعني.

لا أعرف ماذا يحدث بالضبط. وفي حين يحاول ذهني الفهم، يتصرف جسدي كأنه يعرف بالفعل.

سوف أندم على تلك اللحظة، أعرف. سأكره نفسي لما أفعله الآن. لماذا لم أطلب منها أن تأخذ اليوم إجازة مرضية؟ لماذا لم أمرض وأضطرها إلى البقاء معي في البيت؟ لماذا لم أستيقظ مبكرًا قليلًا وأذهب معها إلى المغسلة؟

أعرف من انحناء كتفيها أنها قلقة.

أتذكر المحادثة التي درات بيننا في عيد ميلادها، منذ شهر واحد فقط، وأشعر بمعدتي تتوتر. الأمر يحدث. ليتها لم تتحدث عنه- ربما التحدث عنه هو ما جعله يحدث.

أفكر في تحرك ما بطولي. أن أعبر الشارع، أفتح الباب على مصراعيه وأهرب بأمي من الباب الخلفي للمغسلة قبل أن يفهم الرجلان ما يحدث حتى. أريد أن أقتحم المكان وأخبرهما أنهما ليس من حقهما فعل هذا.

لكنني لا أفعل شيئًا من هذا.

بل أظل أراقب أمي وهي تحاول شرح شيء ما لهما. أراها تشير إلى نفسها وتهز رأسها. تنظر من النافذة إلى الخارج خطفًا حين يديرا رأسيهما عنها. تعبث بيدها في حقيبة وتلمس عنقها من الخلف. لا بد أنهما طلبا منها أن تخرج من خلف المنضد. قاداها إلى الخارج. لم يضعا عليها يدًا لكنهما يتحكمان في حركتها بالقدر نفسه.

حين خرجتْ، نظرتْ في اتجاهي، فتساءلتُ إن كان بإمكانها رؤيتي. لا أعرف كيف أشير لها. لا وقت للتفكير في هذا. يأتي مستر فازيو، صاحب المغسلة، من الشارع. يهز رأسه. إحدى يديه على جبينه والأخرى في خصره. يقف مع الرجلين- لا بد أنهما ضابطا شرطة. يسألانه عن شيء ما، لكنه يهز رأسه مجددًا ويرفع كتفيه.

لا يساعدها.

أختبئ خلف ماكينة البيع، يمتزج طنينها الخفيف بالتوتر العصبي في عظامي. أريد أن أصدق أن فتى في الثانية عشرة من عمره يمكنه أن يكون بطلًا، لكن حدسي يخبرني أن أمي تريدني أن أظل مختبئًا.

إنها على الرصيف. وهما خلفها مباشرة. تعاود النظر بعينيها البنيتين الرقيقتين إلى مستر فازيو. تطرق برأسها لجزء ضئيل من الثانية قبل أن ترفعه مجددًا وتنظر حولها. إنها تبحث عني. لا تراني. لكنني أرى شفتيها، من الجهة الأخرى من الشارع، تنطقان اسمي.

مليكي.

دعتني مليكها من قبل ملايين المرات، لم أشعر في واحدة منها بهذا الحزن الشديد قط.

أنا أحبك، أريد أن أصرخ، لكنني أضع يدي على فمي. يميل أحد الرجلين بجذعه داخل السيارة ثم يعود إلى مستر فازيو، يناوله أوراق. ما زال مستر فازيو يرفع كتفيه، مأخوذًا. يمسح جبينه بمنديل قماشي. تعكس صلعته الناعمة شمس الصباح. ظلت العاملتان الأخريان داخل المغسلة قرب الآلات حتى بدا أنهما ستزحفان داخلها. تضع إحداهما هاتفها الخلوي عند أذنها. تطرق أمي برأسها بما يكفي لتخفي عينيها فحسب. يلمع شعرها في الشمس، ورغم استحالة هذا، لكنني أشم رائحة غسول شعرها من هنا، رائحة فواكه حلوة. أريد أن أدفن رأسي في كتفيها لأشعر بشعرها يدغدغ خديّ.

أكانت تعرف؟ أكانت ترى هذا قادمًا؟ أكانت تحذرني من هذه اللحظة؟

أريد أن أبكي حين أراهما يدفعانها إلى المقعد الخلفي لسيارتهما السوداء. أريد أن أركض إلى السيارة وأخبط على زجاج نافذتها، وأهوي بقبضتيّ على هيكلها. أريد أن أصيح أن

في هذه السيارة كل ما أملك وأتوسل إلى الرجلين ألا يأخذانها، لكنها خرقت قاعدة. ماذا أقول؟

يتملكني الرعب وأنا أراهما يأخذانها. أريد أن أشدّها من يدها ونركض إلى شقتنا. لا أفعل شيئًا من هذا. أنا خائف وغاضب وحزين.

أنا كل هذا، لكنني لست مدهوشًا، لأن أمي، في عيد ميلادها، أخبرتني أننا قد نفقد أحدنا الآخر.

الفصل الرابع

سأحاول عبور الجبال الفاصلة بيننا حتى آخر نفس لي.

ظلت الجبال لا مرئية حتى الآن. بغياب أمي، رأيت الجبال التي كانت تتحدث عنها. رأيتها تبرز من الأرض وتتعملق وتحجب الشمس.

أمي، أفكر وأغطي عينيّ بيدين متكورتين في قبضتين. *لماذا ظننت أن بإمكانك تحريك الأرض؟*

تبتعد السيارة السوداء. بلا أضواء دوارة ولا صافرات إنذار. كيف يحدث هذا؟ كيف تؤخذ أمي مني دون أن يلاحظ العالم؟ تضع إحدى العاملتين في المغسلة كومة ملابس مبللة في مجفف. تمر بي سيارة يجلس في مقعدها الخلفي طفلان على مقاعد مخصصة للأطفال. يرفعان ألعابهما لأعلى في حفل ما في خلفية السيارة. ينضم أحد الزبائن إلى مستر فازيو في الشارع، ويظلون جميعًا ينظرون حولهم. أظل مختبئًا خلف ماكينة البيع.

ليس لدي شيء ضد مستر فازيو، لكنه ترك الضابطين يأخذان أمي، ولا أعرف ماذا سيفعل إن رآني. بغياب أمي، صار عليّ اتخاذ القرارات المهمة، وأولها، الاختباء من مستر فازيو.

ماذا أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟

أنظر إلى نفسي، في بنطالي الجينز وتيشيرت بولو أخضر وحذاء رياضي رمادي. في جيبي عملات أرباع قليلة، ومفتاح بيتنا في جيب خاص خاطته لي أمي داخل بنطالي الجينز بعد أن

فقدتُ المفتاح ثلاث مرات. ليس لدي هاتف محمول أو حقيبة ظهر أو أي شيء قد يُفيد طفلًا وحيدًا. لدي زجاجة عصير تفاح لم أعد أريدها.

ماذا أفعل يا ماما؟

أفكر، وأنا مستند إلى ماكينة البيع الطنانة، في ملايين المرات التي أردتُ فيها أن تكف أمي عن إخباري بما يجب أن أفعله. أنزلقُ إلى الأرض في انتظار وصول صوتها إلى سمعي.

جانّم، أسمعها. *أخبرتك من قبل أن هذا قد يحدث.*

لا أريد أن أبكي. لا يمكنني المخاطرة بأن يراني أحد مختبئًا هنا وأبكي. قد يتصلوا بالشرطة. هل ستأخذني الشرطة إلى أمي؟

أنت أمريكي. أنا لست كذلك. ليس من حقي البقاء هنا. ليس لديّ أوراق.

أوضحتْ لي جيدًا منذ شهر مضى ما قد يحدث إن ظهر ذوو الشارات وطلبوا منها إظهار أوراقها.

أنا مقيم في هذا البلد. أمي لا.

لا أفهم كيف يمكن لورقة أن تفصل في مسألة إن كنا سنظل معًا أم سنفترق. يبدو أن هذه المسألة تتطلب شيئًا ما أكثر رعبًا وقوة من قطعة ورق.

أمسح وجهي وآخذ نفسًا عميقًا. أن تكون وحدك شعور مرعب. لهذا لم تترك خالتي سيما أمي تشعر بأنها وحدها. لهذا صارت عائلتنا.

خالتي سيما.

تتقشع الغيوم في ذهني فجأة. يجب أن أذهب إلى خالتي سيما. أعرف أنها تعيش في مدينة نيويورك، لكنني لا أعرف عنوانها.

أنهض وأنفض التراب عن بنطالي. ما زال الوقت مبكرًا، ولا توجد سيارات كثيرة في الطريق كما سيحدث خلال ساعات قليلة. يجب أن أذهب إلى خالتي. هذا ما كانت أمي ستقوله لي. لكنه ليس سهلًا. لا نذهب لزيارتها لأن أمي لا يمكنها تجاهل شعورها بأن نيويورك مكان خطر، وذلك لأن نشرات الأخبار لا تخلو أبدًا من أخبار عن الجريمة هناك. تغضب خالتي سيما بشدة حين تسمع ماما تقول أشياء كهذه، لكنه أحد تلك الأشياء التي تختلفان فيها إلى الأبد. تأتي خالتي سيما لزيارتنا مرة كل عِدة أشهر. تستقل القطار ونقابلها في المحطة، القريبة من بيتنا.

لدي خطة. سأذهب إلى مدينة نيويورك وأجد خالتي سيما، لكنني سأحتاج إلى أشياء قليلة لهذا. يجب أن أذهب إلى البيت أولًا. أدعو ألا يكون ذوو الشارات هناك في انتظاري.

أعود خلال عشر دقائق. أبقي رأسي مطرقًا ويديّ في جيبي. لا أعرف إن كان أحد يبحث عني أم لا، ولا أريد المخاطرة. أنظر من جانب عيني حين أسمع صوت سيارة تمر بي، أتأكد من أنهما ليسا الضابطين اللذين أخذا أمي. حين أسمع صياحًا، يكاد قلبي ينفجر. ليس سوى رجل يتحدث في هاتفه المحمول بصوت عالٍ، لكن دقات قلبي تستغرق وقتًا طويلًا لتهدأ.

السير يمنحني الوقت للتفكير، ما لا يُعد شيئًا جيدًا بالضرورة. أمامي شيء واحد رهيب لفعله، وأدرك، وأنا أضع قدمًا أمام

الأخرى، أن الفعل أسهل كثيرًا من التفكير. أنا ممتن لأن بإمكاني التحرك حتى وأنا لست متأكدًا من أنني في المسار الصحيح.

مِس راز تكنس الدرج الأمامي للبناية. أراها من بعيد وآخذ نفسًا عميقًا. يجب أن أمر بها دون أن تكتشف أن شيئًا ما قد حدث. لست متأكدًا أيضًا إن كان الضابطان قد أتيا إلى هنا أم لا.

«جيسون دي»، تقول حين تطأ قدمي أول درجة. تعدل الإطار الرفيع لنظارتها الذي ينزلق على أنفها طوال الوقت. ظلت تنظر إليّ بارتياب منذ أن وجدتني على السطح مع طيور الحمام. لم تقل شيئًا عن ذلك لأمي حتى الآن، ولا أعرف إن كانت ستفعل ذلك يومًا ما أم لا.

تعلمت مِس راز نطق اسمي العام الماضي فقط، حين كنت أذهب إليها بعلب طعام أعدته لها أمي. كانت تلزم الفراش بعد أن انكسرت فخذها ولم يكن أحد يزورها سوى ممرضة تمر بها لساعة واحدة في اليوم. انزعجتْ حينها حين طرقتُ بابها، لكنها أخذت الطبق المغطى بالورق الفضي. ظللنا نرسل إليها الطعام يوميًا حتى رأيناها تسير بالخارج كعادتها. أخبرتني يومها أننا ليس علينا إرسال طعام آخر. إنها ليست قعيدة، بل مكسورة. سألت أمي عن معنى قعيدة. لم تعرف، لكنها قررت أن مِس راز لم تعد في حاجة إلى طعام. قد يكون هذا هو السبب الوحيد في عدم شكواها لوجودي فوق السطح.

«أكل شيء بخير؟ ماما بخير؟»

«أهلًا مِس راز. كل شيء بخير، شكرا لكِ»، أقول محاولًا أن أبقي صوتي طبيعيًا وأنا أصعد الدرج. «ماما في العمل».

تومئ مِس راز برأسها وتتوقف قليلًا عن الكنس، تضع يدًا على ظهرها وتلمع عيناها في ضوء الشمس.

«ماما تعمل بكد».

أومئ برأسي، أجبر شفتي على الابتسام بمشقة، وأمر بها قبل أن تسأل أسئلة أخرى.

أصعد طابقي الدرج إلى شقتنا. أُخرج المفتاح، دافئًا من بقائه عند خصري، أفتح الباب، ثم أغلقه خلفي وأغلق القفل أيضًا. أركض إلى نافذة غرفة المعيشة وأسترق النظر إلى الشارع. لا أحد يتبعني، ولا توجد سيارات مريبة في الأنحاء. أنظر إلى بيتنا ويبدو لي فجأة كمتحف مليء بمعروضات من حياة بائدة.

الصور على رف مكتبتنا لوحات. الأطباق التي تركتها أمي لتجف على المصفاة معروضات. ماذا سيحدث لأشيائنا؟ ماذا سيحدث لبيتنا؟ لا يمكنني التفكير في هذا كثيرًا. *الفعل أفضل من التفكير*، أُذكّر نفسي. *واصل الفعل والتحرك*.

أدخل غرفتي أنا وأمي. اعتدنا النوم على فراش واحد كبير، لكنني منذ عامين ثرت وطلبت فراشًا خاصًا بي. عدت ذات يوم من المدرسة لأجد فراشنا الواسع الملكي وقد حل محله فراشان صغيران توأمان. سررت بشدة بفراشي الخاص الجديد. لكنني مع ذلك ظللت أعود إلى فراش أمي دائمًا كلما مرضت، حتى إن كانت مجرد نوبة عطس.

آخذ حقيبة ظهري من دولابي وأضع فيها بعض ملابسي. ثم أفتح إطارات الصور البلاستيكية وآخذ منها صورة أبي في قميصه الرمادي والأخرى مع صديقه الضاحك. التالي، آخذ

صورة أمي وهي تحملني وأنا رضيع في عامي الأول على العشب في المتنزه. أدس الصور بين صفحات دفتر ملاحظات صغير أضعه في حقيبة ظهري.

في المطبخ، أفتح الخزانة وآخذ علبة صفيح صغيرة كانت تحوي ورق شاي مجففًا. إنها النقود التي كانت أمي تمنحها لي لأشتري المثلجات من حين إلى آخر. أُخرج منها حفنة صغيرة من ورقات الدولار وعملات قليلة وأحشرها في جيب بنطالي. تكاد المصفاة تسقط عن المنضد لاستعجالي فأمسكها في يدي.

قطرات المطر تسقط من سمائي المليئة بالنجوم. ماذا أكون؟

أرفع المصفاة أعلى رأسي. سماء معدنية، يسطع الضوء من ثقوبها كالنجوم اللامعة.

أخذ مني هذا اللغز وقتًا لحله لكنني حللته. كيف سأصل إلى بيت خالتي سيما؟ هذا هو اللغز الأكثر تعقيدًا، لكنني سأحله أيضًا.

خالتي سيما.

أهرع إلى غرفة النوم وأبحث بين أحذيتي عن صندوق حذاء معين. أغلقه وأنظر في عنوان المرسِل. أرسلت إليّ خالتي سيما حذاء رياضيًا هدية عيد ميلادي، واحتفظت بصندوقه لأنني لا أتلقى طرودًا بريدية مرسلة باسمي في العادة. *مستر جيسون دي رياضي*. على الجانب الأيسر من الصندوق نصف اسم خالتي سيما وعنوانها. مزقت جزءًا منه وأنا أنزع الشريط اللاصق عن الصندوق يوم استلمته، كنت متلهفًا لرؤية هدية خالتي.

شارع 47، شقة 5 ب.

نيويورك، نيويورك

أقطع الجزء المكتوب فيه عنوانها وأشعر برعدة وأنا وأدسه في جيب حقيبتي الأمامي. قل خوفي الآن وأنا معي عنوان، لكنني ما زلت خائفًا لأنني لا أعرف هل سيمكنني الوصول إليه أم لا.

واصل التحرك فحسب، أخبر نفسي. *كفّ عن التفكير*.

عودة إلى المطبخ، ألقي في حقيبتي ثلاث قطع جرانولا(3)، ثم أتوقف للحظة. لا أعرف إن كنت سأرى هذا المكان مجددًا. لا أعرف إن كنت سأرى أمي مجددًا. لا أعرف إن كنت سأجد خالتي بالفعل أم لا. لا أعرف شيئًا إطلاقًا.

أنظر إلى الأريكة الزرقاء الرمادية، الستارة التي أبلتها الشمس على نافذة المطبخ، وطبق أوراق الورد الجافة الذي توقف عن نشر أيّ رائحة منذ ثلاثة أعوام. أنظر إلى المشجب حيث أتذكر أحيانًا وليس دائمًا أن أعلق سترتي، وكرسي المطبخ الذي تعلق عليه أمي حقيبة يدها. على الجدار خط أخضر حيث تعثرت وسقطت ذات مرة وأنا أمسك قلمًا أخضر سميكًا. الثلّاجة مليئة بطعام أعدته أمي: بامية مطبوخة، أرز أبيض بالكمون، وكرات اللحم.

«وداعًا»، أهمس وأنا أسند ظهري إلى باب العالم الصغير الكامل الذي كان عالمنا أنا وأمي. ومع أنني لا أعرف الكثير، أعرف شيئًا واحدًا مؤكدًا. ما إن تصل أمي إلى أفغانستان، ستبدأ البحث عن طريقة لنعود معًا مجددًا. ما عليّ سوى أن أبقى حيث يمكنها العثور عليّ.

---

(3) طعام يُتناول في الإفطار أو كوجبة خفيفة يتكون من حبوب الشوفان المسحوقة والمكسرات والعسل يحملها المتنزهون والمخيمون في حقائب الظهر لأنها مغذية وخفيفة الوزن ومليئة بالسعرات الحرارية.

الفصل الخامس

أُعلّق حقيبة الظهر على كتفيّ وأنزل الدرج وأخرج من البناية دون أن أرى مِس راز. تبدو كل خطوة بألف خطوة. هل أفعل الصواب؟

أمرُّ بمحل فطائر من حيث تشتري أمي لنا الفطور أحيانًا.

«أهلًا! أنت! أيها الطفل!»

يقفز قلبي في حلقي. يأتي الصوت من خلفي. أفكر في الركض لكنني أدير رأسي قليلًا لأرى إن كان الصوت لشخص يرتدي سترة زرقاء.

«أين تظن نفسك ذاهبًا؟»

يلوح رجل عجوز بإصبعه نحوي، أريد أن أواصل السير، لكن أمي سيجن جنونها لو رأتني أتجاهل أحد كبار السن. خرج الرجل لتوه من محل إصلاح الأحذية ويهز رأسه. ليس من ذوي السترات الزرقاء، لكنني ما زلت على استعداد للانطلاق في الركض في أي لحظة.

«تسير وحدك»، يغمغم الرجل العجوز ويداه ترتعشان بلا توقف. «أأنت هارب من المدرسة؟»

«لا، سيدي، لا توجد مدرسة اليوم»، أجيبه بتوتر.

«لا مدرسة؟»، يتمتم وينقر بعصاه بغضب على أرض الرصيف. «الحياة سهلة جدًا على الأطفال الآن. لا يشغلهم سوى ألعاب الفيديو والهواتف المحمولة. حين كنت صغيرًا...»

يسير مبتعدًا عني، يعود إلى محل إصلاح الأحذية. حينها أشعر بشيء ما يشد بنطالي الجينز من الخلف، عند سمانتيّ. أشهق وتسقط حقيبة ظهري عن كتفي. كلب صغير مربوط إلى عدّاد انتظار. أتراجع إلى الخلف كي لا ينقضّ عليّ مجددًا. يمد خطمه نحو حقيبتي، وينبح بانتصار.

«هاه، هذه حقيبتي!» أمد يدي لآخذ الحقيبة لكنني أسحبها بسرعة حين يعضّني بأنيابه.

«أنا أحتاج إليها!» أقول ببؤس وأمد يدي مرة أخرى لكن الكلب يحذرني بأنيابه الحادة.

أتراجع خطوة إلى الخلف. يبدو غاضبًا، كأنني أنا من أخيفه وليس العكس.

«ماذا يحدث هنا أيها المشاغب؟»

يصيح أحدهم من خلف باب أحد المحلات. لا أريد أن أوضح لأحد إلى أين أنا ذاهب أو لماذا لست في المدرسة. ينفتح الباب، يرن جرس معلق. كأن الرنين إشارة البدء، أنطلق في الركض، أُسرع إلى نهاية كتلة المباني وأنعطف عند الزاوية. أضع يدي على ركبتي، لاهثًا، وأنظر حولي بسرعة. هذا الرصيف خالٍ.

أطلق صيحة غضب مكتومة. كيف فقدت حقيبتي حقًّا؟ أركل الجدار بقدمي وآخذ نفسًا عميقًا. أريد أن أبتعد عن هذا المكان ما أمكنني. محطة القطار على مبعدة عدة كتل مبانٍ. على الأقل لدي نقودي في جيبي. أغمض عيني للحظة لأستعيد صورة قصاصة الكرتون التي وضعتها في جيب الحقيبة وأنقش عنوان خالتي سيما في ذهني بحروف من نار.

شارع 74، الشقة 5 ب

نيويورك، نيويورك

سأستقل القطار إلى عنوان خالتي سيما في مدينة نيويورك، حيث لا تذهب أمي لأنها تخاف؛ ما يعني أن عليّ أن أكون أشجع منها حتى. من الناحية الأخرى، قد ينتهي بي الأمر، إن لم أفعل هذا، بلا مأوى أو في قبضة الشرطة لأنني بلا أم. ما يعد أكثر رعبًا من الذهاب إلى مدينة نيويورك، لذلك ربما لست شجاعًا. ربما أختار ما بين الخوف والخوف بشدة فقط.

مدخل محطة القطار واسع. أسير فيه بين البشر. لم يلتفت إليّ أحد حتى الآن، لكنني ما زلت قلقًا.

الأرصفة على الجانبين. سمعت خالتي سيما تتحدث عن شراء تذكرة قطار، لذلك أعرف أن عليّ شراء واحدة. أنظر إلى شباك التذاكر وأرى المرأة الجالسة بالداخل. تبدو منزعجة من وجودها هناك، وبإمكاني تخيل السبب. لا أحد يرحب بالجلوس في صندوق زجاجي طوال اليوم.

تتعرق راحتاي، أمسحهما في بنطالي الجينز قبل أن أقف في الصف لأقترب منها. هل ستبيع تذكرة لطفل وحيد، أم ستستدعي الشرطة؟

قد تستدعي شرطيًا فيأتي ويأخذني. ماذا يفعلون بالأطفال الذين بلا والدين؟ أفكر في الطفلة اليتيمة بطلة الفيلم الذي عرضه علينا معلم الموسيقى في المدرسة. فتاة بشعر أشعث ومجعد بذلت قصارى جهدها للهرب من دار الأيتام. لا أصدق الغناء والرقص كثيرًا في هذا الأمر، لذلك أخرج من الصف

وأنظر حولي. ربما يمكنني ركوب القطار فحسب؟ إن قُبض عليّ، سأذهب إلى السجن مباشرة لخروجي عن القانون، لذلك أستبعد هذه الفكرة أيضًا.

هيا جيسون دي، أقول لنفسي. *حل هذا اللغز*.

حينها ألمح ثلاث ماكينات باللونين الأزرق والبرتقالي عند جدار جانبي. تعلوهما لافتة بحروف كبيرة يمكنني قراءتها من حيث أقف: تذاكر. أسير نحو الماكينات، أنظر خلفي بسرعة نحو المرأة في الصندوق الزجاجي، لا تراقبني.

للماكينة شاشة كبيرة تعمل باللمس، كأنها لوح رقمي كبير. أتبع التعليمات وأشتري تذكرة سفر ذهاب فقط حتى آخر محطة، مدينة نيويورك. أظل أزلق ورقات الدولار النقدية في الماكينة حتى تبصق تذكرة. لم يتبق لدي سوى عملات قليلة، لكنني لن أفكر في هذا الآن.

رأيت شقة خالتي سيما مرة واحدة من قبل. كانت قد أرسلت لأمي صورة لها وهي تقف أمام منزلها، مبنى ضيق بمطعم دومينيكاني في طابقه الأرضي وشقتين أعلاه. شقة خالتي سيما في الطابق الأعلى، أخبرتني أمي. في الصورة، عمارات عالية بنوافذ ضيقة بطول الكتلة السكنية. كنت، حين تترك لي أمي هاتفها، أتأمل تلك الصورة وأحاول تخيل زيارة خالتي سيما في مدينة نيويورك.

آخذ تذكرتي وأحاول أن أبدو طبيعيًا ما أمكنني، أفرد كتفي وأنظر أمامي مباشرة. أسير وسط الزحام إلى رصيف القطار المتوجه إلى مدينة نيويورك. يوجد أشخاص ببذلات وأحذية

لامعة وحقائب عمل تتدلى من أكتافهم يتحركون جميعًا نحو رصيف واحد لانتظار القطار. أعرف من أناقتهم أنهم متجهون إلى نيويورك.

يسير رجل بملابس رسمية بسرعة على الرصيف. لديه سماعة هوائية في إحدى أذنيه ومنهمك تمامًا في محادثة. بالكاد يلحظ نظرات الانزعاج التي يرمقه بها من حوله. أشق طريقي إليه وأقف قريبًا منه بحيث يمكنني لمس معطفه الأسود الطويل أو حقيبته الجلدية.

حين يصل القطار إلى المحطة، لا يلاحظني الرجل وأنا أسير خلفه على مسافة قريبة، أجلس في المقعد الأوسط بجواره، بعد أن يجلس إلى المقعد المجاور للنافذة. إنه يتجاهل الجميع، لذلك أفكر أنه سيتجاهلني أنا الآخر.

أتنهد بارتياح حين تجلس امرأة بجانبي على المقعد المجاور للممر. أنا كحشوة شطيرة بين شخصين بالغين يبدو كل منهما في حاله تمامًا. هذا ما أريده بالضبط. يقضي السيد المتحدث بصوت عالٍ الرحلة كلها يثرثر عن أشياء مثل «توقعات المبيعات» و«فريق الأقمار الصناعية في دالاس» و«التقارير الربع سنوية». تُخرج المرأة إلى يميني حاسوبها المحمول وتطلق تنهيدة مبالغ فيها وهي تضع السماعات في أذنيها. ترمق السيد المتحدث بصوت عالٍ بنظرة وترفع الصوت في هاتفها لتُغرق ثرثرته.

يتحرك القطار. يحمل كل من المرأة والرجل الجالسين إلى جانبي بطاقة سفر مغلفة بالبلاستيك. ألتفت حولي فأرى رجلًا وضع تذكرته الورقية التي تشبه تذكرتي في الجيب الصغير لظهر

المقعد أمامه. أفعل مثله بتذكرتي المتجعدة والرطبة قليلًا من عرق راحتي.

أغمض عيني متظاهرًا بالنوم. هذه أفضل طريقة لتجنب المحادثات. اعتدت هذا في البيت حين تأمرني أمي بالنهوض من الفراش أو إنهاء فرض القراءة.

حين أشعر بأحد يقف أعلانا، أفتح عيني قليلًا بحيث أرى العالم من بين أهدابي. أرى محصل التذاكر يتناول التذاكر الورقية، يثقبها بآلة معدنية تصدر تكات ويعيدها إلى جيوب المقاعد. عليّ أن أرتاح الآن، نجحت خطتي حتى الآن، لكنني لا أرتاح. أظل أفكر في أمي، أتساءل أين هي ومتى سيعيدونها إلى أفغانستان. أتساءل إن كانت في طريقها إلى المطار الآن. أريد أن أصرخ وألكم المقعد أمامي.

أحيانًا يتطلب الأمر جهدًا شاقًا لفعل شيء ما، وأحيانًا يتطلب جهدًا أكبر حتى كي لا تفعله. في العادة أكره الأيام التي أُحتجز فيها في المغسلة مع أمي، لكنني الآن أضحي بكل شيء لأحدق في الملابس تلف في دوائر.

اليوم مقلوب رأسًا على عقب وقلبًا وقالبًا ولا شيء منطقي على الإطلاق.

أقضي السبع والثلاثين دقيقة التي تستغرقها الرحلة في التفكير في هذا وأنا أتظاهر بالنوم. لا يلاحظ الشخصان الجالسان إلى جانبيّ أنني لم أتحدث مع أحد منهما. يفترض أحدهما أنني برفقة الآخر. حين يتوقف القطار في المحطة الأخيرة، محطة بن، أذوب وسط الزحام المتدافع من أبواب

القطار. أنا في المدينة الآن وعليّ بدء الجزء الثاني من الخطة.

رأسي يدور بالأسئلة. تقرقر معدتي، غاضبة لأنني تناولت نصف صحن حبوب الإفطار فقط هذا الصباح.

فيما تتحرك الجموع نحو الممر الرئيس بلافتاته المضيئة التي تعلن عن الوصول والرحيل، لا يلاحظ أحد ابتعادي عن السيد المتحدث كثيرًا والسيدة المنزعجة منه. لا أحد يلحظني وأنا أقف وسط المحطة وأحاول ألا أبدو مرعوبًا كما أشعر.

يجب أن أركز. يجب أن أتوجه إلى الشارع 74. لا أعرف كيف، لكنني آمل أن أجد بعض اللافتات حين أخرج إلى الشارع. أرى زحامًا من البشر لم أره من قبل. يتحركون في جميع الاتجاهات. تتسارع أنفاسي. أقفز متراجعًا حين يصطدم أحدهم بي عرضًا، ولا أشعر بأي تحسن حين يغمغم باعتذار.

أرى ضابط شرطة يمسح بعينيه المحطة وأتساءل إن كان يراني.

فجأة، أشعر برأسي كأنه بالون فلت من خيطه. تتفيش صور المارة من حولي. اختفى ضابط الشرطة. سقطت ستارة سوداء ثقيلة على عينيّ. أشعر بركبتي تخران. لا أعرف ماذا يحدث، لكنني أعرف أنه لا سبيل لمقاومته. صار العالم القاتم أكثر قتامة. وأنا أسقط فيه.

الفصل السادس

رأسي يؤلمني. هذا كل ما أعرفه. توجد همهمة أصوات خفيضة في الخلفية، لكنني لا أميز الكلمات. تكسر همسة واحدة الهدوء كشعاع رفيع من نور القمر في سماء مظلمة. يجب أن أبذل جهدًا لأسمعها.

إن كنت لك فعليك أن تتشاركني.

تبدو كأحجية. أعرف الإجابة- لكنني لا يمكنني تذكرها. يأتي الهمس بإصرار.

إن كنت تملكني، فعليك أن تتشاركني. وإن تشاركتني، فأنت لا تملكني.

كأن أحدهم يرفع زر الصوت، تعلو الأصوات في الخلفية. ما زلت لا أعرف أين أنا.

رداء. ماسح ضوئي. أكسجين. هذه هي الكلمات التي التقطتها باهتمام، كصدفات سليمة على شاطئ رملي.

تتخذ الهمهمة من حولي إيقاع منغم. إصبعي السبابة ثقيلة. أبذل جهدًا شاقًا لأرفعها فتسقط رغمًا عني. يثقلها شيء ما.

إن كنت تملكني، فعليك أن تتشاركني. وإن تشاركتني، فأنت لا تملكني.

الآن يصيبني الهلع. رأسي- لماذا ينبض بألم؟ أتذكر حينها: محطة القطار وتلك الطريقة الغريبة التي أظلَمَ بها العالم.

«ها أنت ذا، يا حبي. أصابك ارتجاج، لكن لا تقلق. ستكون بخير تمامًا. نحن نعتني بك. أيمكنك أن تخبرني باسمك؟»

أثني ركبتيّ وأطلق أنينًا.

«أيمكنك إخباري باسمك يا حبيبي؟ أخبرني باسمك، عزيزي. أيمكنك هذا؟»

إن كنت تملكني، فعليك أن تتشاركني، وإن تشاركتني فأنت لا تملكني.

لا يختفي الهمس.

«هيا. أخبرنا باسمك».

لا يمكنني هذا. تنضغط عظام كتفي في الفراش، أضيّق عينيّ، الأضواء أعلاي تومض بالأبيض أكثر من الطبيعي.

«آه». هذا كل ما يمكنني قوله. ليست أفصح لحظاتي.

«المسكين. ساعدنا يا حبيبي، ليمكننا الاتصال بأبويك. لا بد أنهما فقدا صوابهما الآن من الخوف عليك».

أطرف بعينيّ، جفناي ثقيلان كحجرين. أرتدي رداء مستشفى. أزرق بنجوم حمراء. أين ملابسي؟ أزوم، خجلًا لأن شخصًا غريبًا خلع عني ملابسي وألبسني رداء الرابع من يوليو هذا.

يلقي أحدهم بصفحات ورق قليلة على ركبتيّ.

«المسكين. الفراش جاهز له الآن في الطابق العلوي. ها هو لوحه. اسمه مانهاتن دوي مؤقتًا، إلى أن يخبرنا باسمه الحقيقي».

مانهاتن دوي؟ يبدو كاسم ابن أحد الشخصيات الشهيرة، أنا بالتأكيد لست ابن أحد المشاهير.

أسمع الصرير الرفيع لعجلات تتحرك على الأرض. رأسي يؤلمني وأشعر بالبرد. ليتني يمكنني طلب بطانية، لكنني ما زلت عاجزًا عن تحريك لساني.

أسمع جرس مصعد. أرى بعيني نصف المغمضتين بابًا معدنيًا ينفتح. تدير مرافقتي رأسي جانبًا وتدفعني إلى الداخل، برأسي أولًا. أراقب الباب ينغلق.

تلمس المرأة بيدها كتفي.

«ستكون بخير، يا حبي. لا تخف، حسنًا؟ سيعتنون بك جيدًا بالأعلى، وحين تفيق قليلًا يمكنك إخبار ممرضتك باسمك وأين نجد أسرتك».

إن كنت ملكك فعليك أن تشاركني، وإن تشاركتني فأنا لست ملكك.

هذه السيدة اللطيفة تبذل جهدها لتجعلني أشعر براحة أكبر، لكنها تقوم بذلك على نحو خاطئ تمامًا. هذا ليس خطأها. لم أعطها ما يكفي من معلومات.

أسمع جرسًا ثم ينضم ثلاثة أشخاص آخرون إلينا في المصعد. امرأة تجلس على كرسي بعجلات يدفعه رجل ببذلة عمليات. يومئ لي. ترتدي المرأة روبًا فوق رداء المستشفى، وبين ذراعيها مولود حديث ملفوف ببطانية بيضاء بخطوط وردية وزرقاء. لا أرى وجهه لكنه يبدو مرتاحًا تمامًا. تمنحني الأم إحدى تلك الابتسامات المترددة وتعاود اهتمامها برضيعها، تعدل البطانية حول ذقنه.

أعاود النظر إلى السقف وأحاول ألا أفكر في حمل المرأة لصغيرها بإحكام شديد- كأنها لن تسمح لأحد بأخذه منها. تغمز المرأة التي تدفع نقالتي إلى الأم الجديدة بجانبنا وتهمس بعبارة تهاني. ثم تضغط على كتفي برقة.

أسمع جرسًا آخر.

«هذا هو طابقنا يا حبي». بدفعة واحدة، تخرجني من المصعد. أقسم إنني سمعت تنهيدة الارتياح التي أطلقتها الأم الجديدة حين غادرت المصعد، كأنها لم تكن تطيق صبرًا للابتعاد بطفلها عمّا أحمله سواء أكان سوء حظ أم كان جراثيم من نوع ما. نسير في ممر بسرعة شديدة تشوش رؤيتي للافتات على الجدار. نتوقف لتضغط المرأة زرًا معدنيًا يفتح بابًا مزدوجًا يؤدي إلى قسم الأطفال في المستشفى. تدفعني إلى غرفة بباب زجاجي، وتظهر ممرضة أخرى إلى جانب فراشي.

«هذا مانهاتن دوي؟»

«نعم».

«وما زال لم يتذكر اسمه أو أي شيء آخر؟»

«إلا إذا كانت رحلة المصعد قد هزت ذاكرته قليلًا. حبي، هل تتذكر اسمك الآن؟»

إن تشاركتني فأنت لا تملكني.

حين لا أجيب، تعودان للتحدث معًا.

«حسنًا، يا صغيري، لندفئك في الفراش جيدًا».

يبدأ صفير، يزيد صداعي سوءًا. مع ذلك، ربما كان الصداع بسبب الأسئلة التي أعرف أنها ستظل تُوجه إليّ.

ماذا كنت تفعل في محطة القطار؟ أين أمك؟

كيف سأجيب هذه الأسئلة؟ كيف سأصل إلى خالتي سيما الآن؟ ربما كانت هذه النهاية. ربما سيعرفون ماذا فعلت ويرسلون بي إلى مأوى للأطفال الذين بلا أبوين.

كيف حدث هذا؟ فهمت الآن- نصف صحن حبوب الإفطار، الركض إلى محطة القطار، الرعب من الوجود فيما بدا أنه أكثر محطات القطار في العالم ازدحامًا. فقدتُ وعيي وصدمت رأسي بالأرض.

لا تلاحظ الممرضة الدمعة التي سالت على خدي. لا تسمع الهمس الخافت في رأسي.

إن كنت تملكني فعليك أن تتشاركني، إن تشاركتني فأنت لا تملكني. ماذا أكون؟

أجيب بيني وبين نفسي. *أعرف ماذا تكون*، أقول. *أنت سر.*

يقول لي الهمس ما عليّ أن أفعله. لن أجيب عن الأسئلة التي سيوجهونها إليّ. سأجد طريقة للخروج من هنا. لم أتوقع أن يكون الذهاب إلى خالتي سيما سهلًا، لكنني لم أتوقع أن يكون بهذه الصعوبة أيضًا. مع ذلك، لن أستسلم. سأعمل بنصيحة الهمس هذه وأبقي هويتي سرًّا.

تمسك الممرضة بالورق الذي كان على ركبتي وتتصفحه بسرعة. تعاود النظر إليّ بتركيز وتمسح زاوية فمي بمنشفة ورقية ناعمة. «يبدو أنك تفيق بالفعل». تقول، ويجب أن أعترف أن صوتها كان مريحًا جدًا. «سوف ننقلك إلى غرفة عادية إذن. حتى هذا الحين لنرى إن كان بإمكانك إخبارنا باسمك الحقيقي، حسنًا؟ أنا لا يعجبني مانهاتن دوي هذا. يبدو كاسم ابن شخصية شهيرة».

الفصل السابع

لـم أقـض ليلـة فـي المستشفى منـذ تلـك الأشـهر الأولـى بعـد ولادتـي. بالأمس كانـت أول ليلـة لـي، مـع أنني لا أتذكـر كثيـرًا منهـا. كنـت دائخًـا ومشوشًـا أغلـب الوقـت وذهنـي بالـكاد يعـاوده الوضـوح. رائحـة المستشفى غريبـة- نظيفـة إلـى حـدٍّ مـا وخانقـة فـي الوقـت نفسـه. وأصـوات كثيـرة. صفيـر آلات دائـم، صـوت إغـلاق الأبـواب، صـوت عجـلات عربـات اليـد والنقـالات.

أنـا فـي غرفـة صغيـرة بنوافـذ واسـعة. علـى فـراش قابـل للطـي بنصفـه الأعلـى مرفـوع لذلـك فأنـا عمليًـا جالـس ولسـت راقـدًا. علـى كلا جانبـي الفـراش قضبـان سـميكة. توجـد شاشـة تلفـاز مسـطحة معلقـة أعلـى الجـدار فـي مواجهتـي وطاولـة إلـى جانبـي عليهـا كـوب مـاء وهاتـف. للبـاب نافـذة صغيـرة يمكنـني مـن خلالهـا رؤيـة الممـر.

ظللـت أحـدق فـي الهاتـف طـوال السـاعة الماضيـة. هـل أجـرؤ. أمـد يـدي مـن بيـن قضبـان الفـراش إلـى السـماعة. يمكنـني سـماع صـوت الاتصـال.

لا أعـرف أيـن قـد تكـون أمـي الآن. أريـد أن أتصـل بهـا، لكننـي أخشـى أن تجيـب الشـرطة علـى الاتصـال ويقتفـون أثـري. مـع ذلـك، تشـجعني فكـرة سـماع صـوت أمـي علـى المخاطـرة. أنظـر إلـى الهاتـف.

للمكالمات الخارجية اضغط رقم 9

ترتعـش أصابعـي وأنـا أضغـط الأرقـام، وترتعـش أكثـر حيـن يبـدأ الجـرس. أشـعر كأن السـماعة تـزداد حـرارة فـي يـدي، وأنـا علـى اسـتعداد للإلقـاء بهـا.

بعد الجرس الرابع يجيب أحد. انتظر الصوت، حابسًا أنفاسي.
«مرحبًا؟» صوت رجل. «مرحبًا؟»
تجيب أمي هاتفها دائمًا. لماذا؟ لأن المتصل قد يكون أنا. أفكر في كل المرات التي اتصلت بها فيها. أحيانًا تجيب وتخبرني أنها ليس بإمكانها التحدث الآن وسوف تعاود الاتصال بي خلال دقيقة. أحيانًا حين تجيبني أسمع صدى صوتها فأعرف أن رأسها في إحدى الماكينات. أحيانًا تجيب وهي لاهثة، وأعرف أنها تركض إلى الهاتف، تخشى أن أكون في مشكلة وفي حاجة إليها. هذه هي أول مرة، حسبما أتذكر، لا ترد فيها على هاتفها، ما يجعلني أشعر بإعياء حقيقي.
«مرحبًا؟»
يبدو صوت الرجل مستعجلًا الآن. أتذكر الرجلين اللذين قادا أمي إلى السيارة. فأضع السماعة دون أن أقول شيئًا. يرتاح رأسي على الوسادة، وأضرب البطانية بقبضتي.
الآن فقدتها حقًّا.
تمر الساعات التالية ببطء مؤلم. ينبض رأسي بألم؛ تكونت كتلة طرية في رأسي مكان السقطة على الأرض في محطة القطار. ما زلت لم أقل شيئًا للممرضة التي تظل تأتي لتتفقدني. سيكون عليها أن تواصل مناداتي بـ«صغيري» حاليًّا.
«أهلًا بك يا صاحبي». تدخل طبيبة في بذلة عمليات خضراء فاتحة ومعطف أبيض. شعرها الأسود الطويل مجموع في ذيل أرنب، وترتدي قلادة فضية بدلاية على شكل حدوة حصان. تعلق سماعتيها الطبيتين على عنقها. «أنا دكتورة شاباني».

في العادة، هذه هي اللحظة التي عليّ أن أجيب فيها باسمي، لكن الحياة ليست كعادتها الآن. أترك تحيتها الودودة معلقة، دون إجابة.

«إذن، أتريد مشاركة أي شيء...؟»

يخبو صوتها كأنها تتوقع مني أن أقفز معلنًا أنني تذكرت كل شيء. تقع عيناي على امرأتين بطاقتا اسميهما مشبوكتان في جيبي قميصيهما. بعد ذلك بثانية، أرى وجه ممرضة بشعر أحمر. كلهن يختلسن النظر إلى هذه الغرفة من الممر.

أرفع كتفي وأهز رأسي.

«حسنًا، لا تقلق بخصوص شيء»، تقول وهي تعصر يدي.

لا أريد هذه الطبيبة أو أي شخص آخر هنا يظن أنني أبله. آخذ نفسًا عميقًا وأتمنى ألا أقول شيئًا قد يورطني في مشكلات.

«من الجيد رؤيتك مستيقظًا. أتعرف في أي يوم نحن؟»

«السبت؟»

«هذا صحيح. وأتعرف أين أنت الآن؟»

«مستشفى».

«صحيح. أتعرف لماذا؟»

«ظني أنني فقدت الوعي».

«صحيح.. صدمت رأسك بالأرض في محطة القطار أيضًا».

ألمس جانب رأسي. أشعر بالورم كبيرًا كالبيضة ويؤلمني أكثر حين ألمسه.

«صحيح، في هذا الموضع». توضح الطبيبة. توجه قلمًا ضوئيًا في عيني، ثم تساعدني على تحريك قدميّ إلى جانب الفراش.

تُخرج مطرقة ردود الفعل الانعكاسية من جيب معطفها الأبيض وتنقر بها على ركبتي اليمنى. تقفز قدمي لأعلى. تقوم بالمثل مع الركبة اليسرى، وأتساءل إن كان أحدهم قد ركلها في وجهها ذات مرة وهي تفعل هذا.

«ارفع كتفيك. انفخ خديك. المس أنفك ثم أصابعك. أخرِج لسانك».

تجعلني أنهض من الفراش وأقف على ساق واحدة، ثم الأخرى. أرتدي ملابسي التحتية ورداء المستشفى مفتوح من الخلف، لذلك حين تطلب مني السير، على كعبيّ، في الغرفة، أسير بخطوات جانبية كالسلطعون. تطلب مني أن أغمض عيني وأرفع ذراعي أمامي.

«هذا جيد»، تقول وهي تربت على كتفي لأفتح عيني. «سنقوم بكل شيء بهدوء. نحن جميعًا نعمل على ذلك، وسنبذل كل ما في وسعنا لإيجاد أمك».

أمي.

ليس لدى الطبيبة أدنى فكرة عما يعنيه وعدها هذا لي. ينغلق خارجي على داخلي وأتمنى ألا يبدو عليّ أي شيء.

أنظر في النافذة المستطيلة وأرى ممرضة في زي بنفسجي تمر بغرفتي إلى مكتب الاستقبال النصف دائري في منتصف الممر حيث يوجد مجموعة من الحواسيب. تحيط الغرف بمساحة مكتب الاستقبال الكبيرة. لا توجد أماكن للاختباء فيها هنا.

«يجب أن تعرف شيئًا عن مقاصف المستشفيات- إنها ليست جيدة. ولا تخبر أحدًا بأنني قلت لك هذا. أنا في العادة لا أفعل

هذا، لكن أحيانًا تكون ماكينات البيع هي الحل. ماذا عن كيس مقرمشات لتتناول شيئًا ما الآن؟»

«لا أظن أنني سأتذكر، ولا حتى بكيس مقرمشات»، أقول، مخمنًا أنها مجرد خدعة لحثي على التحدث.

«لم أظن أنك ستوافق»، تقول دكتورة شاباني بهدوء. أعود إلى الفراش وأنا أتساءل لماذا اخترت ارتداء لباسي التحتي المرسوم عليه سبونج بوب اليوم من بين جميع الأيام.

«لكن حتى وإن كنت لا تذكر التفاصيل»، تقول ببطء، «ربما ما زلت تذكر المشاعر. كيف تشعر حين تفكر في البيت؟ أتشعر أنه مكان سعيد أم حزين؟ أتشعر أنه كان آمنًا؟»

تريد أن تعرف إن كنت هاربًا من بيت سيئ. أفكر في الصور التي تشكل الصورة الكاملة لبيتي. بيض مقلي وشطائر الجبن في طبقي. زجاجتي الزرقاء مملوءة بعصير مانجا. ورقة الخمسة دولارات التي أنالها أيام الجمعة فقط لشراء البيتزا من مقصف المدرسة. أمي تدندن مع أغنية شهيرة في المذياع حتى وهي لا تعرف الكلمات. صحون الزبيب والمكسرات التي نتشاركها في الفراش ونحن تحت اللحاف أيام الشتاء. طيور الحمام التي أطعمها سرًّا أعلى سطحنا.

«أهلًا، أأنت بخير؟» تقاطع دكتورة شاباني حبل أفكاري. «هذا ما يجب أن أسأله. أكنت تشعر بأمان في البيت؟»

تصدمني كلمة البيت كأنها مطب صناعي. أبحث في ذهني عن إجابة لسؤال الدكتورة شاباني البسيط المعقد.

لكنني عالق مع فكرة من شأنها أن تجعلني أنهار لو لم أكن جالسًا بالفعل. أنا وأمي متشابهان في شيء الآن. كلانا، صار البيت مكانًا مؤلمًا له، مكانًا ليس فيه من نحبهم أكثر من أي شخص آخر.

الفصل الثامن

طرق سريع على الباب.

«أهلًا يا شاب. أنا إريك، ممرضك». لا يبدو أكبر سنًا كثيرًا من طالب المدرسة العليا الذي يسكن في شارعنا.

«أهلًا إريك».

«سأفحص وظائفك الحيوية. أهذا يناسبك؟»

«نعم، بالطبع»، أقول ولا أريد الاعتراف بأنني لا أعرف ماذا تعني وظائفي الحيوية. أحب طريقته في التحدث معي- كأنه يعرض عليّ زجاجة مياه غازية أو كيس شرائح بطاطس. ليس شيئًا كبيرًا.

«إنه يومك الثاني هنا، ويومي الثاني أنا أيضًا»، يقول. «وهي بداية جيدة لي أن أعتني بك. لأنك مستر مانهاتن دوي، صرت شهيرًا جدًا في قسم الأطفال».

يوجه قلمًا ضوئيًا في عيني ثم يتفحص الورم في رأسي.

«شكرًا لتساهلك مع الممرض الجديد»، يقول ضاحكًا. ينقر شيئًا ما على الحاسوب الكائن في ركن من الغرفة. «سأعود لاحقًا لأطمئن عليك. وإن شئت، يمكنك تفقد غرفة المحمية».

«غرفة المحمية؟»

«نعم، إنها غرفة أنشطة. لدينا بعض ألعاب الفيديو والكتب والأحاجي ولا أعرف ماذا هناك أيضًا».

«لماذا تسمونها غرفة المحمية؟»

«لأنها مكان للأطفال يمكنهم فيه أن يرتاحوا من كل العاملين في المستشفى، ممنوع دخول الأطباء والممرضين إلى هناك».

غرفة المحمية هي ما أريده تحديدًا، خاصة والخروج من هذه الغرفة يعد خطوة في المسار الصحيح.

أقف عند باب غرفتي وأنظر إلى الغرفة الكبيرة على الجانب الآخر من الممر بملصقات لشخصيات ديزني بحجم صغير على نوافذها. وملصق على بابها صفحات من ورق، مجموعة لوحات رسم بالأصابع.

أرتدي رداءً ثانيًا تركه لي إريك، ليغطي ظهري. يمكنني الآن بعد أن أخفيت سبونج بوب جيدًا أن ألقي نظرة على غرفة المحمية. غرفة للرضع، أفكر في هذا وأنا أجر قدمي في الممر. أنا متأكد من أنني سأشعر بالبؤس هناك أيضًا، لكنني سأكون وحدي على الأقل.

أدخل الغرفة وأرى لعبة سباق سيارات على شاشة تلفاز كبيرة. حين أغلق الباب خلفي، تتوقف اللعبة.

«من الذي يجرؤ على مقاطعة لعبتي؟» يهدر صوت من جانب الغرفة. حين لا أجيب، يدور المقعد ذو الذراعين، وما أراه يجعل فكي يسقط. أستند بظهري على الباب المغلق خلفي فورًا وأتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأً آخر.

«ما اسمك؟» تقول فتاة قريبة مني في السن وتعتمر طاقية صوف. يتدلى من تحت الطاقية ذيل أرنب مصنوع من الأسلاك الكهربية. تصل الأسلاك الكهربية إلى حقيبة صغيرة تتدلى إلى جانبها. تبدو كإنسان آلي من نوع ما.

لا يمكنني الإجابة. يخبرني صوت مهذب في رأسي أن أغلق فمي المشدوه بدايةً.

تميل الفتاة بأذنها نحوي كأن هذا سيساعدها على سماع ما لا أقوله. تنظر إليّ عيناها البندقيتان بتوقُّع.

«سألتك عن اسمك فقط يا صاحبي، وليس عن حسابات سرعة الضوء. لماذا ما زلت متجمدًا؟» إنها حادة وذكية؛ ما يجعلني أتعثر في البحث عن كلمات.

«أهلًا، أنا... أوه...»

«حسنًا»، تقول أخيرًا. «سأبدأ أنا. أنا ماكس».

«أهلًا».

لكنني بدأت أستجمع نفسي الآن. ترتدي هي الأخرى رداء المستشفى. لكنها ترتدي تحته بنطالًا بنفسجيًا ثقيلًا، وسترة ثقيلة أعلاه.

«أتعرف؟» تقول بمرح، «لقد سررت بالتعرف إليك، لكن ما رأيك أن نتوقف عن الثرثرة. أتريد أن تلعب؟»

«بالطبع»، أجيبها وأراقبها وهي تدير مقعدها إلى الشاشة بدفعة واحدة من قدميها. يداها ملفوفتان في ضمادات بيضاء بأصابعها فقط بارزة منها. تبدو كالمومياء قليلًا.

«اجلِب ذراع التحكم الأخرى. إنها في السلة بجوار الحائط».

أنظر إلى السلة وأسير نحوها. ألمح في أثناء هذا رجلًا بزي رسمي يقف أمام مكتب الاستقبال نصف الدائري في منتصف الممر. إنه ضابط شرطة.

https://t.me/fantazynov

ينحبس نفَسي في حلقي. تحدق ماكس فيّ بفضول. تتتبع نظرتي وترى ضابط الشرطة في اللحظة التي تومئ فيها ممرضة له برأسها.

تعاود ماكس النظر إليّ. «أتعرف، خزانة الأدوات هذه كبيرة بما يكفي لإخفاء لاعبي كرة قدم، أنا أقول ذلك فقط»، تتمتم، وتعاود الانتباه للشاشة.

لا تفكر. تحرك فقط.

أفتح الخزانة المصنوعة من خشب البلوط، وكما قالت ماكس، توجد بها مساحة أكبر من كافية بين دلاء مكعبات الليجو وأدوات الرسم. أغلق الباب خلفي وأتساءل كيف سيمكنني الخروج من هذا المأزق.

أسمع باب الغرفة ينفتح.

«أهلًا يا صغيرتي»، يقول صوت ودود. «أرأيتِ فتى هنا؟ الضابط يبحث عنه ليتحدث معه».

أنا لا أعرف ماكس. كيف أعرف أنها لا تشير في هذه اللحظة تحديدًا إلى الخزانة؟

«كان هنا، لكنه لم يخبرني باسمه. ظني أنه ذهب إلى الكافتيريا أو لعمل أشعة سينية على مرفقه أو شيء كهذا».

«حسنًا، هذا لا يفيد في أي...» تبدو الممرضة حائرة. «حسنًا، لا بأس، شكرًا».

أسمع الباب ينغلق.

«أمان الآن»، تصيح ماكس. قلبي يضج في صدري، لكنها باردة كالمثلجات. أفتح الباب ببطء وأعود إلى غرفة المحمية. الممر في الخارج خاليًا، وأتساءل أين ذهب الضابط والممرضة.

«مستعد للعب؟» تقول ماكس. صوتها يخلو من أدنى قدر من القلق.

«شكرًا لك على هذا».

ترفع كتفيها. «إنها إحدى قدراتي الخاصة. ليس شيئًا كبيرًا».

أظل أنظر إلى الباب، أتوقع أن يفتحه ضابط الشرطة في أي لحظة. تجلب ماكس ذراع التحكم الأخرى وتناولها لي.

تختار السيارة الفيراري الصفراء لتلعب بها. أختار كورفيت حمراء. تتحرك راية بدء السباق وتنطلق سيارتانا، تتسابقان في شوارع مدينة افتراضية وتقفزان أعلى سيارات الشرطة.

«لست سيئًا»، تعلق ماكس.

«شكرًا، أتلعبين هذا كثيرًا؟»

«أول مرة».

نتفادى نحن الاثنان اصطدامات حتمية ونتقارب كثيرًا في سباقنا لنلحق بسيارة فان بيضاء صغيرة محملة بالنقود. تناور الفان وتنعطف في الشوارع الضيقة، تتطاير من مؤخرتها ورقات نقدية خضراء كلما انفتح بابها الخلفي وانغلق.

«راقب ظهرك يا أخ!»

تفوز ماكس مرتين، لكنني في الثالثة، أحاصر الفان البيضاء في ركن في حين تسقط هي في نهر من أعلى كوبري. تتذمر، تترك ذراع التحكم، وتدع رأسها يسقط بين ركبتيها بانهزام. أنظر إليها وأرى ذيل شعرها المكون من أسلاك كهربية يصل إلى الحقيبة الصغيرة إلى جانبها. لا أعرف لماذا هذا الشيء، لذلك أسألها.

«لماذا هذه الأسلاك؟»

«أي أسلاك؟» تقول بارتباك. أندم فورًا لأنني سألت. أنا بالذات يجب ألا أتطفل. لكنها تمرر أصابعها بين خصلاتها الكهربية. تخفض صوتها وتنظر إلى الأرض. «أوه، أتعني تلك الأسلاك؟»

«آسف، لم أقصد أن...»

«لا بأس»، تقول وتعتدل في جلستها، تضم ركبتيها معًا وهي تميل إلى الأمام لتخبرني بسرها. «سأخبرك إن كنت تستطيع كتمان السر. أنا لا أخبر أي أحد بهذه المعلومات الشخصية».

أومئ برأسي وأنتظر ما ستقوله.

«هذه الأسلاك تقيس نشاط مخي. أنا هنا لاختبارات متخصصة لأنني، حسبما يرى الخبراء، عبقرية.

«عبقرية؟»

«نعم، عبقرية»، تقول بتنهيدة. «ليس سوى شيء ما عليّ التعايش معه. في حين يهتم الجميع بمعرفة كيف يحدث *السحر*».

تلوح بيديها حول رأسها كأنها ستخرج أرنبًا من أذنها.

«ماذا عنك؟» تسألني بنبرة هادئة. «لماذا أنت هنا؟»

أعاود النظر إلى الشاشة المنقسمة إلى نصفين بخط ضوئي. تشغل سيارة كل منا نصفًا لكن سيارتي تومض بضوء الفوز.

أنا لست عبقريًا. لو كنت كذلك ما كنت سأقع في فخ هذا المستشفى. بالكاد أعرف هذه الفتاة ولا يمكنني إخبارها بقصتي الحقيقية، حتى وأنا أشعر بوحدة موحشة.

«إنها قصة طويلة».

حينها ينفتح باب الغرفة مجددًا.

«ها أنت ذا!»

أستدير لأرى ممرضة في بذلة عمليات بنفسجية تقف وذراعاها مفتوحتان وخلفها ضابط شرطة. أعرف من وجهه المتجهم أن غرفة المحمية لم تعد مكانًا آمنًا لي.

الفصل التاسع

تلمع شارة الضابط الذهبية بقوة في غرفتي. ترتبك أمي دائمًا أمام ضباط الشرطة، ولم أفهم لماذا قط. لا تعبُر شارع حتى ولو كان خاليًا قبل ضوء الإشارة.

اسمه الضابط خان. عاد بي إلى غرفتي، وجلس على مقعد الزوار أمام فراشي. وجهه حليق بحاجبين كثين وداكنين وعينين رماديتين. يضع مرفقيه على ذراعي المقعد وفي إحدى يديه دفتر ملاحظات صغير. حتى الآن، لم يدوّن به شيئًا، لأنني أخبرته بما أخبرت به الجميع: لا أتذكر اسمي، ولا عنوانًا، ولا رقم هاتف، ولا اسمي والديّ.

«كنت في محطة قطار بن. هل تتذكر أنك جئت إلى هنا بالقطار؟ أم كنت هناك لتستقل القطار؟»

«أتعرف سيدي، أتمنى حقًّا لو كان بإمكاني الإجابة عن أسئلتك، لكن الأمر أن....» شارته مهيبة حقًّا. يبدو صوتي غريبًا، أرفع وأعلى من المعتاد.

«ماذا عن أبيك؟»

«لا»، أقول وأترك الكلمة معلقة وحدها.

يصدر صوت أزيز، فيُخرج الضابط خان هاتفه. يرفع إصبعه ليخبرني أنه سينشغل لدقيقة واحدة فقط. يدير لي ظهره، فأطلق تنهيدة راحة.

أنظر من زجاج غرفتي وأرى وجهًا مألوفًا. إنها ماكس. تختلس النظر، تحاول ألا تلصق رأسها كله بالزجاج. حين تتقابل أعيننا،

تلوح لي بمودة. تشير إلى نفسها ثم إلى الغرفة، كأنها تستأذنني لتدخل.

أهز لها رأسي، لا أعرف لماذا تريد الدخول إلى هنا. ينظر إليّ الضابط خان الآن بحاجبين مرفوعين، فأحاول النظر بعيدًا عن النافذة. هل سألني عن شيء؟

«حسنًا، لنجرب شيئًا آخر. متى عيد ميلادك؟»

أرى ماكس من خلف كتفيه تلوح بيدها المضمدة بقوة. تشير إلى رأسها. يتلوى وجهها بألم. تمسك رأسها بيديها الاثنتين وتضغط شفتيها معًا بقوة. ثم تشير إليّ، بوجه يشع حيوية. تريدني أن أتظاهر بالألم.

أشعر أن على العبقري أن يخرج بفكرة أفضل من هذه. لكنني ليس لدي أفكار أخرى الآن.

أضع يدي على رأسي، عند الورم مباشرة. أتنفس بشكل مبالغ فيه فيما يتحدث إلى الضابط خان بمودة.

«أتعرف، حين كنتُ في سنك، كنت أحيانًا أغضب من والديّ بشدة إلى حد أن أتمنى لو كان لدي والدان غيرهما. حتى إنني فكرت في الهروب من البيت. كل الأطفال يفكرون في الهروب من البيت في وقت ما أو آخر. لكنني كبرت وأدركت أن البيت هو أفضل مكان للمرء. بالنسبة إليّ على الأقل».

أعرف أنه يحاول حثي على الاعتراف بهروبي من البيت. أتأوه بهدوء وأُغمض عيني، ما زالت يدي على رأسي. يواصل كلامه:

«وأيًا كان ما يحدث في حياتي، كنت دائمًا أجد شخصًا ما للتحدث معه. كنت أتحدث مع ابن عمي أو أمي أو صديقي المقرب

في المدرسة. لهذا أردت أن أكون ضابط شرطة، في الحقيقة، لعلمي بقدر المساعدة في أن.. في أن تستمع إلى شخص ما فقط. وهذا ما أفعله الآن. أستمع إلى الناس وأرى إن كان بإمكاني تحسين الموقف».

«أنا أحاول. أحاول حقًا. لكنني حين أحاول تذكر شيء، يجعل رأسي-»

«ربما لو نظرنا في خريطة؟»

تفتح ماكس الباب. أكف عن التأوه والضابط خان يحول انتباهه إليها.

«ستأتي الممرضة سريعًا بحقنة دواء الإمساك لك». تقول بمرح.

أشعر بوجهي يحمرّ.

«لقد أخذتُ لتوي حقنتي، ودعني أخبرك، إنها تعمل بسرعة حقًا. وأنا أعني بسرعة حقًا».

تبتسم للضابط خان بأدب، تلمع عيناها ببراءة. أداء باهر. يبحث الضابط عن كلمات. حين يرن هاتفه للمرة الثانية، يبدو مرتاحًا. يخرج من الغرفة ليردّ على الاتصال، ونراقبه أنا وماكس من النافذة.

«لا أعرف لماذا تصرين على فعل هذا لي»، أقول لماكس.

«أكره أن أترك قدراتي دون استخدام».

يفتح الضابط الباب ويدخل الغرفة.

«حسنًا، عليّ العودة إلى شيء ما، لكن لا تقلق، سأعود إليك. إن تذكرت أي شيء، أرجو أن تخبر أحدًا ما هنا ليتصل بي. نحن نريد أن نعيدك إلى بيتك حقًا يا صاحبي».

أومئ برأسي، ويختفي الضابط خان. أسير إلى النافذة. يدخل من فتحة التهوية هواء ساكن وغبار. حتى في المساء، تزدحم الأرصفة بالمارة. يدس بعضهم أيديهم في جيوبهم، ويسير آخرون بنشاط، يضع بعضهم سماعات في أذنيه، وآخرون يسيرون مع أصدقاء. تتدلى ساقان ممتلئتان من عربة أطفال بمرح. يرفع رجل يجلس على كرسي متحرك كوبا للمارين به.

تحاول سيارة عبور الشارع. يلوح المارة أمامها لسائقها بغضب. يركل أحدهم مقدمة السيارة بقدمه فيجيبه السائق بضغطة على بوق السيارة، تحذير. يتحرك كل شيء وكل الناس بسرعة.

حتى وأنا متأكد من أنني سأُسحق في الطريق، عليّ أن أصل إلى شقة خالتي سيما، ولا أتذكر سوى جزءٍ من عنوانها كان على كرتونة الصندوق.

أنتبه إلى ماكس تجلس بجانبي. تكتب شيئًا ما في دفتر يوميات صغير على غلافه حرف ميم كبير. تغلق الدفتر بهدوء وتضعه في حِجرها.

«توجد أماكن كثيرة جدًّا للاختباء فيها في مدينة كبيرة»، تقول ببطء. «أماكن كثيرة أفضل من مستشفى. أتود أن تخبرني بسبب وجودك هنا؟»

أظل أحدق في المدينة لوقت طويل حتى تتغبش رؤيتي. يزداد الشارع المزدحم رعبًا كلما أطلت النظر إليه. كيف سأفعل هذا وحدي؟

«ماكس»، أقول وما زلت أنظر إلى العالم أمامي. «سأخبرك إن كنت تستطيعين كتمان السر؟»

الفصل العاشر

تظل صامتة حتى أنهي قصتي. تحدق في بلاط الأرضية الرمادي الباهت. يبدو أن هذا ليس من عادتها، رغم معرفتي القصيرة بها.

«آسف، ربما تظنينني-»

«شجاع». ترفع بصرها وتنظر إليّ. «مع أنني لا أحب هذه الكلمة. لكنك كذلك بالفعل جيسون دي».

حان دوري في الصمت. أشعر أنني أشياء كثيرة، ليس من بينها شجاع. قد تكون مخاطرة أن أبوح بسري، لكنني أشعر بتحسن كبير الآن وأحد ما يدعوني باسمي الحقيقي.

«لهذا كان الضابط هنا. هل يمكنهم القبض عليك لإخفائك اسمك؟»

أرفع كتفيّ. «لا أعرف. لكنني يجب أن أخرج من المستشفى. أخاف أن يضعوني في دار للأيتام أو شيء ما كهذا».

«دار أيتام؟ واو. أفهمك تمامًا. لكن الهروب من قسم طبي مغلق؟»

«لا بد أن توجد طريقة». أقول بإصرار أكبر مما أشعر. أنا حلال ألغاز، لكن هذا اللغز يستعصي عليّ. كيف أتسلل من هنا دون أن يراني الممرضون والأطباء، كيف سأخرج من الباب الموصد في نهاية الرواق، وأنزل تسعة طوابق لأخرج من المبنى؟

«إن كان لديك خطة فأنا أريد سماعها. لن أشارك في خطة ما عرجاء لن تؤدي إلا للقبض علينا».

أحدق في ماكس، تتسحب شفتاها جانبًا في نصف ابتسامة.

هل ما سمعته صحيح؟

«عن ماذا تتحدثين؟»

«أنا أيضًا أريد الخروج من هنا. توجد أماكن كثيرة رائعة في المدينة، مثل تشاينا تاون، وحديقة حيوان سنترال بارك ومتحف التاريخ الطبيعي....»

«أذهبتِ إلى كل تلك الأماكن من قبل؟»

«ليس كلها»، تقول بنبرة هزيمة في صوتها. «منذ أن جئنا إلى مدينة نيويورك لم أذهب إلى مكان سوى هذا المستشفى. أتريد أن تسمع عن ظلم شديد؟ إن والديّ يقيمان في غرفة بفندق تطل على السنترال بارك، وأين أنا؟ عالقة في هذا المستشفى بكل هذه القمامة».

تشير بإبهامها إلى الطاقية الصوف البيضاء التي تغطي رأسها بأسلاكه. يتكسر صوتها قليلًا لكن تكوين فكها يجعلها تبدو منيعة وقوية. لست متأكدًا من صدقها بشأن اختبارات عبقريتها، لكن الصدق باد فيما تقوله الآن. أراه في وجهها.

«حين سأكبر، سأسافر حول العالم. سأزور كل بلد فيه وسأتعلم لغات مختلفة وأتناول الأطعمة المختلفة. أخبرتني أمي أنها شاركت في برنامج تبادل خارجي للطلاب حين كانت في المدرسة العليا. عاشت في إسبانيا مدة عام مع أسرة إسبانية. وأرسلت تلك الأسرة ابنتها لتعيش في نيويورك مع جدّيّ. هذا ما أريد أن أفعله-- في المغرب ربما أو ألمانيا أو البرازيل».

قد يضحك من أعرفهم لسماع ماكس وهي تتحدث عن بلدان العالم كأنها ديزني لاند.

«ما الخطأ في البقاء في أمريكا؟»

من حيث أتيت، يريد الجميع أن يعيش في الولايات المتحدة. يتحدث زبائن المغسلة عن «البطاقة الخضراء» و«الأوراق» التي تجيز لهم البقاء في الولايات المتحدة. يخرج أشخاص مثل أمي عن القانون حتى ليظلوا في الولايات المتحدة. أشعر بحرج طفيف يجعل خدّي يختلج حين أفكر في هذا. ما زال من الصعب تجاوزه.

«لا خطأ في البقاء في أمريكا»، تقول وهي تنظر من النافذة. «إنها مملة فحسب، خاصة حيث أسكن. أريد أن أرى شيئًا ما... شيئًا ما... مختلفًا».

تقول «مختلفًا» بصوت حالم ومثقل إلى حد ما. ثم يأتي دورها لتسألني.

«هل ذهبت إلى أفغانستان من قبل؟»

أهز رأسي وأجيبها «لا».

«لماذا لا؟» تسألني.

«قالت أمي إنها ليست مكانًا آمنًا». سألت أمي ذات مرة إن كنا سنذهب إلى أفغانستان يومًا ما لزيارة أهلها. بدت كأن أحدًا ما نكزها في قلبها. نتمنى أن يمكننا، قالت، لكن ليس الآن. بدا من طريقتها في قول «ليس الآن»، كأنها تقول «مستحيل».

«لكنك من بلد آخر، لذلك يختلف الأمر بالنسبة إليك. أراهن أنك تأكل طعامًا مختلفًا وتتحدث لغة مختلفة وكل هذا. لست أمريكيًا قديمًا عاديًا».

لم أظن أن أيًا من هذا قد يجعلني مثيرًا للاهتمام، طالما ظننت أن هذا ما يجعلني غريبًا مقارنة بالأسر الأمريكية الأخرى. تمرر ماكس أصابعها على جهاز التحكم بتلفازي. هل يسعدني أنها لا تراني عاديًا؟ بالطبع- لكن ماذا عن كوني أمريكيًا؟

تتنهد بعمق. لا أجادلها لأنني أشعر أنها أمعنت في هذه الفكرة لوقت طويل، فكرة دقيقة الصنع نحتتها من كتلة خشب.

«كل ما أريده الآن هو أن أرى مدينة نيويورك. على الأقل ليست مملة كمدينتي التي أعيش فيها».

«ربما سيأخذك والداك في جولة في المدينة حين تنتهين من، ممم، اختباراتك».

تتنحنح وتجيبني «لن يفعلا هذا. إن كل ما يفكران فيه هو هذا الـ... النشاط الدماغي».

«أين هما الآن؟»

«إنهما في غرفتي».

أتمنى لو كانت أمي في الممر هي الأخرى. أحاول صرف هذه الفكرة.

«لا أظن أن عليك التسلل من المستشفى لمشاهدة الأماكن. والداكِ هنا. ألا يمكنك أن تخبريهما ببساطة أنك تريدين مشاهدة المدينة؟»

«جيسون دي»، تقول، فأضع إصبعي على شفتي، أحذرها ألا تردد اسمي بصوت عالٍ.

تومئ برأسها، وتخفض صوتها. لكنها تظل على إصرارها. «أنت لا تعرف كيف هو الأمر. إنهما لا يريدان سماع شيء عمّا

أريده حتى. لا يفكران إلا في ما ينبغي فعله. عليّ أن أوافق على كل شيء فحسب، كأن لا شيء يزعجني. أريد أن أكون مسؤولة عن نفسي ولو لمرة واحدة فقط وأن أكون أنا فحسب. ليس الفتاة ذات الـ... المسائل العبقرية».

«ماكس، أنا لا أريد أن أورطك في مشكلات. إنهما في الغالب يتساءلان عن مكانك الآن».

«إنهما يقابلان بعض الأطباء الآن. وفي جميع الأحوال، لقد أخبرتهما أنني بحاجة إلى مساحة - لأقوم بـ...، أنت تعرف، الأنشطة العبقرية المعروفة».

تلوح بيديها في الهواء كأنني يجب أن أعرف ماذا تكون الأنشطة العبقرية المعروفة. أو ربما تريدني أن أسألها. فألتقطُ الطُّعم.

«ما الأنشطة العبقرية المعروفة؟»

«التفكير. النحت. الكتابة. أنا أؤلف كتابًا بالفعل»، تقول وهي تنقر بإصبعها على غلاف دفترها.

«كتاب من أي نوع؟» أسألها. لم أكتب في حياتي أكثر من ثلاث صفحات.

«سيرة ذاتية. قصة حياتي، حتى الآن. ما زال يحدث لي الكثير كل يوم، لذلك أحاول فقط التواصل مع... حسنًا، مع ذاتي».

إنها لا تشبه أي شخص قابلته من قبل. سيكون اتحادنا في فريق واحد إما أسوأ فكرة في الوجود وإما أفضل ما حدث لي.

«الخروج من هنا ليس سهلًا. ظني أنك في حاجة إلى مساعدة من شخص مثلي. لديّ خبرة يا صاحبي. أعرف كيف أخدع الأطباء والممرضين».

«عن ماذا تتحدثين؟»

«هذا ليس صعبًا. طلبوا مني ذات مرة أن أبول في كوب بلاستيكي صغير. فذهبت إلى التواليت وصببت في الكوب عصير تفاح بدلًا من ذلك. أسرعوا به إلى المعمل لتحليله ثم عادوا مذعورين جدًّا إلى حد جعلني أنفجر بالضحك. ذات مرة أخرى، لونتُ أطراف أصابعي وراحتي بقلم تلوين أزرق قبل أن تأتي الممرضة لتتفقدني مباشرة. تظاهرتُ أنني أشعر بالبرد تحت الأغطية وكشفت عن يديّ. أوصلتني بثلاثة أجهزة مختلفة قبل أن تكتشف الخدعة».

قد تكون هذه الفتاة عبقرية بالفعل.

«لقد... أوه... لقد لاحظت أن الممرضين والأطباء يستخدمون بطاقات للدخول والخروج من الأبواب المغلقة»، أقول بقصد جسّ نبضها.

«أنا أيضًا لاحظت أشياء قليلة»، تضيف. تضع دفترها جانبًا وتختلس النظر إلى الممر لتتأكد أن لا أحد قادم.

نقضي السبع والأربعين دقيقة التالية في وضع خطة هروبنا الكبير.

الفصل الحادي عشر

في الخامسة والنصف صباحًا، عيناي مغمضتان لكنني مستيقظ تمامًا. ما زالت العتمة في الخارج حين يدخل الممرض إريك.

«مرحبًا يا صاحبي»، يهمس. يضع سماعته الطبية على صدري ويقيس حرارة جبهتي بينما أتظاهر بالنوم. يقف عند ستارة غرفتي للحظة، بصمت، كأنه يمنحني فرصة أخيرة للاستيقاظ والتحدث. حين لا أفعل يستدير ويغادر.

بعد ذلك بدقائق قليلة، ينفتح باب غرفتي بهدوء، وتتسلل ماكس بحقيبة ظهر قماشية إلى جانبها. أجلس في فراشي وأراقبها تدخل. تغلق الباب خلفها وتضغط بأنفها الزجاج لتتأكد مجددًا من أن لا أحد يراها.

«هل استيقظ أبوكِ؟» أسألها بهمس.

«لم يتقلّب حتى. إنه يشخّر بصوت عالٍ على مقعده الآن».

اطمئن. ما زال علينا التحرك بسرعة.

« هل أنت مستعد لغسيل اليدين؟»

نذهب أولًا إلى الحمام ونفرك أيدينا بالصابون ومرطب اليدين حتى الرسغين. هذا الجزء فكرتي. رأيت أمي تفعل ذلك ذات مرة لتنزع عن إصبعها خاتمًا كان قد ضاق عليها بشدة. بقدر كبير جدًا من الشد والجذب، استطعنا أن ننزع أسورتي الأمن. تبللت ضمادات يدي ماكس، أراقبها تنزعها. تحاول أن تواري يديها لكن ليس قبل أن أرى الخدوش الرفيعة الحمراء الكثيرة.

«ماذا حدث ليديك؟» أسألها.

«مجرد خدوش بسيطة، ليس شيئًا كبيرًا». تعلمت أنه حين يقول الناس «ليس شيئًا كبيرًا» بهذه النبرة، فهو علامة على أنه شيء كبير حقًا. نضع أسورتي الأمن في درج الطاولة المجاورة للفراش.

«كيف حدث إذن؟»

«كيف حدث؟ كنت... كنت أعمل على تمثال. هل أخبرتك أنني أنحت الخشب؟ أشياء كالتي تراها في المتاحف، أشياء جميلة لكنها خشنة قليلًا».

تنحت تماثيل، أكرر في ذهني. كانت أروع منحوتاتي كرة قدم صنعتُها من الصلصال حين كنت في الرابعة من عمري. لم تكن شيئًا ما ينتمي إلى متحف، لكن أمي احتفظت بها على طاولة غرفة المعيشة لوقت طويل حتى جفت وتفتتت. أدرك أنني وماكس مختلفان تمامًا. هي أمريكية وبإمكان والديها السفر معها والإقامة في فندق في مدينة نيويورك. هذا لا يقرب إلى عالمي بأدنى قدر. أنا أمريكي لكنني من نوع مختلف. لا أعرف كيف انتهى بنا الأمر أنا وهي نفعل معًا ما نفعله.

يرتدي كل منا ملابسه التي جاء بها إلى المستشفى. ماكس في بنطال جينز وتيشيرت بكمين طويلين مخطط بالأحمر والأبيض. وأنا في بنطال جينز وتيشيرت بولو أخضر. نرتدي حذاءينا الرياضيين ونربطهما. ثم نرتدي رداءي المستشفى في حال رآنا أحد قبل خروجنا.

أقف عند الباب، أنظر في الممر لأرى إن كان فيه أحد. أنهى الممرضون نوبة العمل الليلية، وتقول ماكس إنه لن يأتي الآخرون

قبل السابعة صباحًا. فترة تغيير الورديات. طلب كل منا وجبة خفيفة إضافية ليلة أمس ليكون معنا قليل من أكياس المقرمشات وأكواب عصير التفاح وأغطية ورق مفضض أيضًا. ألقت ماكس بأكياس المقرمشات في حقيبتها.

«من المهارات الأساسية للبقاء- فكر دائمًا في الطعام».

تُغلق سحاب الحقيبة، وأسير نحو النافذة لأنظر منها. أرى في الشارع بائع فاكهة متجول يرص البرتقال وعبوات الفراولة على عربته. تبدو الأرصفة، والمباني، والأضواء كأنها تلمع بإثارة. يقولون إن نيويورك «مدينة لا تنام أبدًا»، لكنني أعتقد أنها بالتأكيد تغمض عينيها لوقت ما، كيف إذن يمكنها الاستيقاظ والنهوض بهذا النشاط الذي أشعر به يسري كالأزيز في الأرصفة وجدران المستشفى قبل أن تشرق الشمس حتى؟

«حان الوقت تقريبًا»، أقول، وآخذ نفسًا عميقًا.

«متردد؟» تسألني ماكس.

«لا يمكنني ذلك»، أقول ببساطة. إنها الحقيقة. لا مجال للتردد. يجب أن أجد خالتي سيما، الشخص الوحيد الذي يعرفني حقًا، والشخص الوحيد الذي قد يساعدني على استعادة أمي.

تحرك ماكس كتفيها كأنها تستعد لرمي كُرة.

« في طريقي إلى هنا رأيت إريك يجلس إلى المكتب».

«يجلس هناك؟ سيرانا إذن!»

«هل تهدأ؟ لقد ظل يفعل ذلك طوال اليومين الماضيين، لا أنام جيدًا في المستشفى لذلك ظللت أراقبه».

أغمض عيني للحظة. حقيقة أنه لا مجال للتردد لا تمنعني من التردد. قد أتسلل إلى سطح بيتنا لإطعام طيور الحمام، لكنني لست من الأطفال الذين يخرقون القواعد الكبيرة. هذا كله جديد تمامًا عليّ.

تقول ماكس «حسنًا، لنرى إذن. حان الوقت تقريبًا».

تفتح الباب. أقف خلفها مباشرة، أنظر لأرى إن كان إريك ما زال جالسًا إلى المكتب. لا أراه، تشير ماكس بصمت إلى سترة ثقيلة على ظهر كرسي مكتب بعجلات. على السترة بطاقة مشبوكة بسحابها المفتوح.

«مهمة سهلة»، تهمس ماكس.

«أغلقي الباب»، أقول، فتفعل. تستدير وتنظر إليّ. حان وقت المرحلة الثانية من خطة هروبنا. «أأنت مستعد لدور مصفف الشعر؟»

أومئ برأسي فتسحب ماكس مقصًا من حقيبتها- من النوع الذي يستخدمه الممرضون لقص الشاش واللاصق. تجلس على حافة الفراش. أبدأ بقص الأسلاك من طرفها بالقرب من فروة رأسها ما أمكنني. تتساقط الأسلاك الملونة. ويتبقى لماكس شعرها البني الناعم. تفرك فروة رأسها بأصابعها في مواضع تكتل اللاصق. تخرج من حقيبتها قبعة بيسبول وترتديها. عليها صورة لامرأة في قميص أزرق يُبرز عضلات صدرها. وتربط شعرها بعصابة حمراء وعلى وجهها نظرة جادة جدًا. إنها القبعة المثالية لماكس، كذلك تخفي الأعقاب المتجعدة للأسلاك التي قصصتها.

قصّ الأسلاك يعني أنه لا تراجع عن الخطة. وإلا كيف سنفسر ما حدث؟ نحاول التركيز على الخروج من قسم الأطفال. يحول باب مزدوج موصد بيننا وبين المصعد، لذلك نحتاج إلى بطاقة مرور إريك. إن وضعنا بطاقته على شاشة الأمن عند الباب، سينفتح وسنقترب بذلك خطوة نحو العالم الخارجي. وبنزعنا أسورتي الأمن، لن تنطلق أي صفارات إنذار حين نعبره.

أفتح باب غرفتي مجددًا. أتردد، لكن الوقت يمر. باقتراب الساعة السابعة سيبدأ ممرضو نوبة العمل الصباحية بالوصول وتزداد احتمالات أن يرانا أحد. نخلع رداءي المستشفى ونتسلل إلى الممر بهدوء، تتدلى الحقيبة على ظهر ماكس. ما زالت الإضاءة الفلورسنت في المستشفى خافتة، والهدوء شديد إلى حد أن أسمع ضجة قلبي في أذني. لو رآنا أحد الآن، سينتهي أمرنا. لا تفسير لملابسنا العادية، أو لرأس ماكس بلا أسلاك، أو لوجود أسورتي الأمن في درج الطاولة وليس حول رسغينا.

تحني ماكس ظهرها وتسير على أطراف أصابعها إلى المكتب نصف الدائري حيث عدد من أجهزة الكمبيوتر والكراسي. تتسلل برشاقة النينجا من فتحة تحت المنضد وتجثم هناك. أرى قمة قبعتها فقط وهي تقترب من الكرسي الذي ترك إريك سترته عليه.

أضغط ظهري بباب غرفة خلفي. مهمتي الانتباه جيدًا وتحذيرها إن رأيت أحدًا يقترب. أسمع أصواتًا من غرفة العاملين، خلف المكتب مباشرة. يجعل صفير الشاشات وهمهمة

أجهـزة التنفـس مـن المسـتحيل سـماع صـوت الخطـوات.

أرى يـد ماكـس تمتـد مـن بيـن أجهـزة الكمبيوتـر إلـى السـترة. تلمس أصابعها السـحاب دون أن تـرى. تحـاول البقـاء تحـت المنضـد لتظل مختفية عـن الأنظـار لكنهـا تحـرك الكرسـي فيسـتدير وتبتعـد البطاقـة عـن متنـاول يدهـا.

أريـد أن أخبرهـا أن تقـف وتأتـي بالبطاقـة وتعـود لكننـي أسـمع صـوت فتـح البـاب المـزدوج فـي نهايـة الممـر. ثـم قعقعـة عجـلات. أحد ما قادم.

غرفتـي بعيـدة لأصـل إليهـا دون أن يرانـي. ترفـع ماكـس رأسـها من تحـت المنضـد. سـمعتْ هـي الأخـرى صـوت العجـلات. يقـع ضـوء شاشـة كمبيوتـر علـى وجهها فيمنحـه مظهـرًا غريبًـا. نتبـادل نظـرة ويفهـم كل منـا أن عليـه الاختبـاء. أفتـح البـاب الذي خلفـي دون تفكير، وأختفـي فـي إحدى غـرف المرضـى. أهـدأ حيـن أجـد الفـراش خاليًـا وأسـتدير لأنظـر مـن النافـذة الزجاجيـة فـي منتصـف البـاب. أختلـس النظـر بقلـق، أتوقـع أن أرى ماكـس وهـي يُقبـض عليهـا بـلا ذنـب. إن وقعتْ فـي مشـكلات، فسـيكون كل شـيء خطئـي أنـا.

يتقـدم رجـل فـي الممـر. يدفـع بيـد عربـة بلـون كريمـي لهـا أدراج رفيعـة. ويقـرأ وهـو يسـير ورقـة يمسـكها بيـده الأخـرى.

فوجئتْ ماكس تمامًـا فتحولـت من نينجـا متسـللة إلـى دب أخـرق. أسـمع نخـرة ثـم أرى كرسـي مكتـب خـالٍ يتحـرك لنصـف دائـرة، فيتجمـد الرجـل، ينظـر إلـى مكتـب الاسـتقبال بعينيـن متسـعتين. يتوقـف الكرسـي ببـطء خلـف المكتـب، لكنـه يسـتمر فـي الاهتـزاز، برعـب.

تطرف عينا الرجل ببطء وينظر حوله كأنه يأمل أن يؤكد له شخص ما أنه شاهد هذا أيضًا. يعدل نظارته الطبية السميكة المستديرة على وجهه، ويهرش خده. يترك العربة ويسير نحو المكتب. تتحبس أنفاسي وأنا أراه يقترب من مخبأ ماكس.

يقف على مقربة بوصات قليلة منها. لا يفصلهما سوى لوح رفيع من الخشب الرقائقي أسفل المنضد. يحدق في الكرسي، الثابت الآن، وينظر حوله مرة أخيرة. يبدو كأنه ظل ساهرًا طوال الليل.

بمعجزة ما صغيرة، لا يكتشف النينجا المختبئة تحت المنضد. وكذلك لا يرى الفتى الذي يراقبه من المربع الزجاجي بعينين متسعتين. يفرك عينيه بأطراف أصابعه ويعاود دفع عربته في الممر.

أعود على أطراف أصابعي إلى الممر في اللحظة التي تخرج فيها ماكس من تحت المنضد. نسمع صوت باب آخر ينفتح وينغلق، في مكان ما عند الطرف الآخر من الممر، في اتجاه غرفتينا. أجد ماكس إلى جانبي في لمح البصر، تشدني في اتجاه الباب المزدوج الآخر وبعيدًا عن الخطوات التي تقترب بسرعة. أرى أمامنا مباشرة، على مسافة ياردات قليلة من الممر الخافت الإضاءة، باب القسم الموصد فتهوي معدتي، أفكر في ابتعاد سترة إريك عن متناول يد ماكس. من دون تلك البطاقة، نحن نركض في طريق مسدود.

«ماكس، القفل-»

«هيا!»

بحركة واحدة سريعة، تسحب بطاقة إريك من جيبها الخلفي وتضعها على شاشة الأمن المثبتة في الحائط، ينفتح الباب كجناحي طائر، ونندفع منه نحن، خارج القفص.

تضغط ماكس زر المصعد، وننظر خلفنا إلى الباب المزدوج المغلق. نتوقع أن نرى أحدًا ما يندفع منه. حينها أرى الباب المؤدي إلى السلم.

«من هنا!» أقول وأنا أدفع بوزني كله لينفتح.

«فكرة جيدة»، تقول ماكس. صوتها يرتمش قليلًا لكنني لا أعرف هل من الخوف أم الإثارة. السلم خالٍ، نهبط بأسرع ما يمكننا. أسمع الصدى الخافت لوقع خطواتنا على كل درجة. ننزل تسعة طوابق. حين نصل إلى الطابق الأرضي، أنظر إلى ماكس بتحذير.

«ماكس...»

أمنحها فرصة أخيرة للتراجع.

«لن تنجو بالخارج من دوني»، تقول.

«لكن والديك سيفقدان صوابهما يا ماكس. ليس عليكِ فعل هذا».

تضع يدها على المقبض المعدني للباب. تنظر إليّ بثبات.

«هذه فرصتي الوحيدة، جيسون دي»، تقول. وبدفعة واحدة تفتح الباب لنخرج إلى شوارع المدينة المزدحمة.

الفصل الثاني عشر

«هل تبتسم هكذا دائمًا؟» تتمتم ماكس وهي تسير إلى جانبي.

«هكذا كيف؟»

«كأنك تجلس على كرسي طبيب الأسنان؟»

أغلق شفتيّ بسرعة. لم أظن أن ابتسامتي واسعة إلى هذا الحد.

«لا أريد أن يظن من يرانا أننا ارتكبنا خطأ»، أفسر لها.

«لذلك أقترح أن تزيل التعبير المثير للشك هذا عن وجهك».

نسير على الرصيف، تضرب أحذيتنا الرياضية الأسمنت بإيقاع ثابت. نخطو بسرعة كافية لمنح الناس انطباعًا بأننا نعرف أين نذهب.

الساعة الآن السابعة وعشرون دقيقة. ستشرق الشمس خلال دقائق قليلة. سيقف الممرضون عند شاشات الكمبيوتر، بأكواب القهوة في أيديهم، لتغيير الورديات. في أي لحظة الآن، سيدخل أحدهم إلى غرفتي ويشهق حين يرى فراشي خاليًا والأسلاك المقصوصة عليه. في مكان آخر من الممر، سيوقظ أحد الممرضين والد ماكس النائم يُشخر ليسأله عنها.

أنظر إلى المارة في الاتجاه المعاكس لنا. أعينهم مدربة على النظر أمامهم مباشرة أو في الأرض. لا أنظر إليهم مباشرة. بل ألمح انعكاسهم في نوافذ العرض الزجاجية للمحلات والمطاعم.

تلمحني ماكس أفعل هذا فتومئ باستحسان.

«كم تبعد محطة قطار الأنفاق؟» أسألها.

«مسافة مبانٍ قليلة أخرى». تجيبني، «أتذكر أنني رأيت مدخلها ونحن في طريقنا إلى المستشفى. ربما يجب أن نسأل أحدًا».

«لا يمكننا سؤال أي أحد يا ماكس. الشرطة تعمل بالفعل على قضيتي، وسرعان ما سيبدأ البحث عنا نحن الاثنين. وكلما زاد عدد من تحدثنا معهم، زادت فرصة القبض علينا. يجب أن نفكر في الأمر جيدًا».

نرى رجلًا قادمًا نحونا، على مسافة قصيرة. يمشي بكلبين، يتقاطع مقوداهما ويتباعدا فيما يحاول الكلبان تقدم أحدهما الآخر. يشبه أحدهما الذئب، جيرمان شبرد أبيض، والآخر هجين أصغر حجمًا بكثير. يرتدي الرجل بنطالًا ثقيلًا وتيشيرت أبيض كتب على صدره بروكلين. ينظر إلينا بفضول. يُبطئ سيره، ويسهل ملاحظة عدم رضا الكلبين عن هذا. يشد مقوديهما بقوة، فيديرا رأسيهما ليريا ما الذي يؤخر صاحبهما.

«أنعبر الشارع؟» تسألني ماكس.

أفكر في الفوضى تحت قبعتها. ثم أتساءل كيف سنبدو ونحن نعبر الشارع من منتصفه. أتذكر فورًا أمي وهي تخبرني أن عبور الشارع من أي مكان آخر سوى إشارة المرور يعدّ جريمة اسمها السير العشوائي.

«لنتظاهر بأن كل شيء عادي فحسب. ربما لا ينظر إلينا».

هذا تفكير قائم على التمني. فمع أننا في نيويورك، لكن الأرصفة أقل زحامًا بكثير عن العادة لأن: الوقت ما زال مبكرًا. واليوم الأحد.

يضيّق الرجل عينيه ويفتح فمه ليتفوه بشيء. تتوقف ماكس فجأة. تبادر الرجل بالحديث على نحو غير متوقع.

«معذرة يا سيدي؟» تقول بظرف.

أشهق. لم أظن، حتى هذه اللحظة، أن من الممكن أن أختنق وأنا في الهواء الطلق.

«أكل شيء بخير يا صغار؟» تمسح عينا الرجل الرصيف كأنه يبحث عن شخص كبير معنا.

«كل شيء بخير. وكيف حالك اليوم؟» تبدو مهتمة جدًّا- بحاله. تتصرف من قالت إن ابتسامتي مثيرة للشكوك، بمرح مبالغ فيه.

«أوه... رائع، شكرًا على سؤالك»، يجيب الرجل ضاحكًا. «ماذا تفعلان في هذا الوقت المبكر يا صغار؟».

أتعرق. أرى كتلة صمغ تبرز من قبعة ماكس. أتساءل إن كان الرجل لاحظها.

«نحاول تغيير العالم فحسب يا سيدي».

«تغيير الـ....» يبدو الرجل مذهولًا مثلي تمامًا.

«نعم يا سيدي. أنا وصديقي هنا، نريد أن نغير العالم»، تقول وهي تلوح بيدها نحوي بأداء الساحر. «نحن نجمع المال لفتح مركز للأطفال. أي تبرع منك سنقدره بشدة».

«مركز للأطفال من أي نوع؟» يسأل وهو يشد مقود الجيرمان شبرد بهدوء. بدأ الكلب يلعق يدي. أدعه يلعقها وأنا أدعو ألا يكون له ابن عم من قوات كلاب الشرطة علّمه تشمم الهاربين.

«سيكون اسمه مجرة اللاعبين. سيكون لدينا جميع ألعاب الفيديو التي يحبها الأطفال. وسيكون مجانًا للأولاد والبنات.

وسنقدم وجبات خفيفة ونصائح خاصة لمساعدة الشباب على تنمية مهاراتهم في ألعاب مثل.......»

تسكت قليلًا لكنها تعاود الاسترسال بالنبرة العالية لفكرة لامعة. «ماكس أتّاكس [هجمات ماكس]»

لا أصدق أذنيّ. إنها إما عبقرية وإما تحاول تسليمنا.

يهز الرجل رأسه وينظر لماكس كأنه لا يصدقها تمامًا. «لم أسمع قط بـ.....»

لا يمكنني أن أترك كل شيء ينهار. ينفتح فمي وأقلد ماكس.

«أنا مدهوش لأنك لم تسمع بها. لعبة ماكس أتاكس لها سبعة عشر مستوى مختلفًا، ولا يمكنك الانتقال من مستوى إلى آخر إلا إذا اختطفت الملك وتغلبت على حراسه من المنيونز».

تعاود ماكس القفز على الحديث.

«هل شاهدت فيلم جافين هوبويل مع الآليين؟ إنها مستوحاة منه. يا رجل، لقد كان محاربًا لا يمكن وقفه في ذلك الفيلم وهذا اللعبة مثل.... مثل--» تقول وتبحث عن الكلمات المناسبة لوصف الشخصية.

«حسنًا، حسنًا» يقاطعها الرجل، «اسمعا. أين والداكما؟ هل يصحبكما أحد؟»

تخلع حقيبتها عن كتفيها وتومئ برأسها سريعًا نحو محل قريب منا.

«نعم. ماما تطبع مزيدًا من إيصالات التبرع في مكتبها في الطابق الثاني. لديها ماكينة دفع ببطاقة الائتمان أيضًا إن لم يكن معك نقود. لدي إيصال هنا»، تقول وهي تبدأ فتح سحاب الحقيبة.

«أوه، هكذا؟ أتعرفين، كنت أود التبرع لكنني تركت محفظتي في البيت»، يقول وهو يرفع كتفيه بأسف. يرخي المقودين قليلاً فينبح الكلب الصغير وهو يشده للأمام. «حظًا سعيدًا مع هذا».

ذهب، يبدو هو وكلباه مرتاحين لأنهم تجاوزونا. أنظر إلى ماكس وأنفجر في الضحك.

«أنا لا أصدق ما فعلتِه لتوك!»

«أنا لا أصدق ما فعلته/ ِنتَ لتوك!» تبتسم وتواصل السير. نسير مسافة ثلاث كتل مبانٍ أخرى، ثم نتوقف عند تقاطع وننظر يمينًا ويسارًا. تعدل قبعتها وتسوي شعرها خلف أذنيها.

«هيا. ظني أنها بعد كتلة مبانٍ أخرى».

«ظننتك قلت إنها-»

«إنها قريبة. لقد خرجنا من محطة المترو ثم وصلنا إلى المستشفى بعد عدة دقائق فقط».

تهبط من الرصيف إلى الشارع فأشدها إلى الخلف من الحقيبة.

«ماكس، ربما كنا نسير في الاتجاه الخاطئ».

تبدو مضطربة. تضيّق عينيها في مواجهة الشمس. لا تبدو واثقة كما كانت حين كنا نتحدث في المستشفى.

«في الغالب فوّتناها بمبنى».

أطلق نفسًا بطيئًا. ليس لديها أدنى فكرة عن أين يجب أن نتجه.

«ماكس، ظني أن علينا تجربة اتجاه آخر».

تسير بسرعة الآن، تقبض بأصابعها على حزام حقيبتها عند صدرها. أهرول خلفها لألحق بها. فكّها منقبض بشدة.

«ماكس! اسمعي، استمعي إليّ للحظة!»

يتدفق اللون الأحمر من عنقها إلى خديها. تلمع عيناها في الشمس.

«ماكس، لا بأس. سنجد محطة المترو. يمكننا هذا، حسنًا؟»

تتوقف فجأة وتضغط بيديها على رأسها.

«أريد أن أفكر فحسب».

لا أعرف ماذا أقول. هذه أول مرة أراها ليست باردة ورزينة.

«لنجلس هنا لدقيقة»، أقول وأقودها إلى ظلة لانتظار الباص. أشعر ببرودة الدكة المعدنية تتخلل بنطالي الجينز. أفرك يدي معًا. خارج ظلة الانتظار لافتة بحروف وأرقام. لا تسعفني مهاراتي في حل الألغاز في فهم معناها.

«ماكس، يمكننا فهم هذا معًا». يزدادُ إحباطها. ربما أدركتْ أن كل هذا خطأ كبير. تظن أن والديها لا يهتمان كثيرًا بها، لكنني لا أتخيل أن هذا حقيقي. والداها أمريكيان وفي الغالب لديهما بيت لطيف. وهي ذكية وخفيفة الظل. على النقيض مني، ليس لديها أي مشكلة حقيقية.

«ماكس، ليس عليكِ فعل هذا»، أقول بهدوء. «يمكنني اصطحابك في العودة إلى المستشفى ثم سأحاول إيجاد الشارع الرابع والسبعين وحدي».

تبدو مستاءة من اقتراحي هذا، لكنها لا تقول شيئًا. ربما تفكر فيه.

«ألست خائفًا من الذهاب وحدك جيسون دي؟»

بالطبع خائف. لكنني ليس لدي خيار الآن. ظللت وحدي منذ أن أخذ الضابطان أمي في سيارتهما. سمعت من في التلفاز يتحدثون عمّا ينبغي فعله مع الأشخاص الذين ليس لديهم أوراق إقامة، لم أظن للحظة أنهم يتحدثون عن أمي.

«بلى، خائف».

يبدو وجهها غريبًا قليلًا. تحدق أمامها كأنها ترى شيئًا لا يمكنني رؤيته. تختلج شفتيها. أشعر بالقلق قليلًا لكنني لا أعرف ماذا أفعل. بعد لحظات قليلة، تنهض وتخرج من تحت الظلة، أتبعها.

«ماكس؟»

«أتذكر الآن»، تقول وهي تضغط صدغيها بيديها الاثنتين. «أراها. هذه المدينة على شكل موزة. الجادات ممتدة من أعلى لأسفل. الشوارع أقصر ومتقاطعة». تنظر إلى لافتة في الركن ثم تضيّق عينيها لتنظر إلى لافتة أخرى أمام المبنى المجاور. أتتبع نظرتها، أحاول فهم الفكرة.

«هذا يعني أن الشارع أربعة وسبعين سيكون في هذا الاتجاه. علينا أن نواصل السير فحسب».

«إنها مسيرة طويلة»، تقول. تُسقط يديها إلى جانبيها وتعود لتجلس تحت ظلة الانتظار مجددًا. «لدي تيشيرت في البيت مرسوم عليه خريطة مترو الأنفاق في مدينة نيويورك. اشترته أمي لي حين أخبرتها أنني أريد مشاهدة المدينة. أهدتني ذلك التيشيرت وتمثال حرية صغيرًا، كأن هذا يقترب بما يكفي للشيء

الحقيقي. يجب أن نجد محطة المترو. السير طوال الطريق لن ينتهي».

نبدأ في السير في الجادة مجددًا، تتصاعد أرقام الشوارع، ما يعني أننا نسير في الاتجاه الصحيح.

«لم نأت إلى المدينة من قبل». أقول لماكس. «ظلت أمي تخاف حقًا منها لأنها تسمع دائمًا عن شيء ما سيئ يحدث فيها. كانت تخافها لأنها تشبه أفغانستان كثيرًا. ظني أن هناك أشياء يصعب نسيانها».

«بالنسبة إليّ أنا، لدي أشياء كثيرة جدًا يصعب نسيانها». تقول وعيناها تنظران في الأرض ونحن نسير.

«مثل أفلام جافن هوبيلز؟» أنا أيضًا أحبه، أحب أن أشبهها في أشياء. إنها أمريكية حقيقية، من النوع الذي لا يُسأل أبدًا من أين هو. كان كل شيء سيكون مختلفًا لو كنتُ أشبهها أكثر.

«من يمكنه نسيان أفلامه؟ حتى ذاك الفيلم عن فريق البيسبول كان جيدًا»، تقول بابتسامة صغيرة. «لكن لا، أنا أتحدث عن أشياء غريبة»

«ماذا تقصدين؟»

«أحيانًا أتذكر أنني كنت في مكان لم أذهب إليه من قبل. أحيانًا أتذكر أشياء نسيها والداي، لكنني أراها في ذهني كمشاهد من أفلام. مثل تلك المرة، حين تذكرت ماذا كان جدي يرتدي في آخر أعياد ميلاد قضيناها معه قبل وفاته. الأمر مثل أن يكون لديك صندوق كنز ينفتح أحيانًا ليبدو بداخله شيء ما لامعًا ورائعًا».

«أهذا جزء من مسألة العبقرية تلك؟»

تطرف بعينيها مرتين وتركل بقدمها كتلة أسمنت مفكوكة قليلًا من الطوار.

«ظني هذا»، لا تبدو سعيدة بهذا الأمر كما يجب عليها.

يصدر بوق سيارة وهي تمر بنا، فأرى ماكس تقفز وتسرع خطوها. تتجنب عينيّ. كل شيء فيها يخبرني أنها تهرب من شيء ما أكثر من والدين متحكّمين. يمكنني تمييز اللغز حين أقابله، ومن الواضح جدًّا أن هذه الفتاة، بصندوق كنزها من الذكريات، لغز يستعصي على الحل.

الفصل الثالث عشر

توجد تحت أرض مدينة نيويورك مباشرة شبكة من مسارات قطارات المترو. كمستعمرة نمل عالمها يعج بالحركة مختبئًا تحت الأرض. تصف لي ماكس شكل محطة المترو. تظل عيناي تبحثان في أثناء السير عن لافتة مترو سوداء على أعمدة خضراء. الساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا وما زلنا لم نجد ما نبحث عنه.

أبتلع ريقي بصعوبة حين أرى سيارتي شرطة قادمتين من الاتجاه الآخر للشارع.

«جيسون دي...»

رأتهما ماكس أيضًا.

«الباب الأحمر إلى يسارك»، أقول بسرعة، ونصعد معًا الدرجات الأسمنتية الثلاث المؤدية إلى الباب. تمنيت لو كان لدي عينان في قفاي لأرى إن كان أحد يتبعنا أم لا.

الباب ثقيل لكننا نفتحه بما يكفي لنمر منه. نقف بظهرينا للباب للحظة. دخلنا غرفة خافتة الإضاءة طويلة وعميقة. في طرف قصي منها منصة خلفها مزيج متفجّر من الألوان. جدار زجاجي يبدو كمشكال. على جانبي ممر في المنتصف صفوف كثيرة من الدكك الخشبية الخالية.

للحظة أظنه مسرحًا من نوع ما. ثم أدرك، حين أرى صليبًا على الجدار، أننا في كنيسة. إلى يساري قاعدة حجرية مليئة

بالرمل. تنتصب فيها كتيبة من الشموع الصغيرة، تتراقص ألسنة اللهب الصفراء الصغيرة لقليل منها، بعضها ذاب تمامًا وتحول إلى برك شمعية.

يجلس أفراد قليلون على الدكك. تشير ماكس لي لنسير نحوهم.

«لنذهب ونجلس في حال دخلت الشرطة إلى هنا. لن يميزوا رأسينا من الخلف»، تهمس.

لم أجلس في كنيسة من قبل، لذلك تركت ماكس تقودني. تدخل إلى صف خالٍ، الصف الثالث من المقدمة. نطرق برأسينا ونسمع الناس من حولنا. بعضهم أتى وحده، وآخرون معهم أسرهم. نستغرق عدة دقائق لنلتقط أنفاسنا.

«ربما يمكننا العودة الآن»، أقترح. وفي اللحظة نفسها يغمر الضوء الغرفة ويدخل فيض من البشر من الأبواب الثقيلة خلفنا. نتبادل أنا وماكس نظرة فيما يتخذ أشخاص مجلسهم على كلا جانبينا.

«إن كان قداس الأحد مثل الذي أذهب إليه، فسنظل هنا لساعة. علينا أن...» تهمس.

«سينظرون جميعًا إلينا»، أحذرها.

وهكذا نحضر القدّاس. يقف القس على المنصة ويشكر الجميع على قدومهم. يصلون في هذه الكنيسة بأيديهم مضمومة معًا. أنا وأمي نصلي براحتينا متكورتين لأعلى. يقولون آمين. نحن أيضًا نقول آمين. يؤمنون بأن الرب طيب. ونحن أيضًا كذلك.

أفكر في الشموع التي رأيتها حين دخلت. تذكرني باليوم الذي تهدأ فيه أمي أكثر من أي وقت طوال العام. مرة واحدة كل سنة، في أواخر نوفمبر، تُعد *الماليدا*، حلوى من كعك مطحون جيدًا تشبه فتات رقائق جراهام. هذا هو الوقت الوحيد الذي تتحدث فيه عن أبي. تضع صورته المؤطرة على الطاولة وشموع عيد الميلاد في طبق الماليدا. تلمع بلّورات السكر تحت الوهج البرتقالي للشموع. نجلس أنا وهي إلى طاولة المطبخ ونغمض أعيننا. نكور راحتينا لأعلى ونتلو معًا دعاءً هادئًا، كلمات لا أفهمها، لكن وقعها يريحني لأنني سمعتها كثيرًا جدًا من قبل. تتنهد أمي دائمًا بعد ذلك كأنها ارتاحت قليلًا بترديدها.

كل سنة، تخبرني بشيء جديد. بمرور السنوات، عرفت أن أبي كان يحب الطعام الحار والموسيقى الشعبية. كان في حفلات الزفاف، يرقص بذراعيه ممدودتين على وسعهما كأنه يعانق الحفل برمته. حين كان في السابعة من عمره سقط بدراجته في حفرة وانكسر أحد أضلعه. كان مغنيًا سيئًا، لكن هذا لم يمنعه من المحاولة. كان يحب الكلمات وكان لديه مجموعة صغيرة من كتبه المفضلة.

كنت دائمًا أريدها أن تخبرني بالمزيد، لكنها كانت تهز رأسها.

«من الصعب التحدث عنه، يا مليكي».

جيسون. تجذبني ماكس من ذراعي. بدأ الناس يقفون ويغادرون الكنيسة. نتبعهم ونتوجه نحو الباب.

«الساعة التاسعة والنصف»، أقول بعد أن ألمح شاشة هاتف جوال. «علينا أن نظل مختفيين وسط الزحام فحسب. نحن واضحان جدًا في هذه الشوارع».

«كتبتُ موضوعًا من قبل عن مترو الأنفاق، في درس وسائل المواصلات الحديثة في مادة الدراسات الاجتماعية. يزيد طول قضبان مترو الأنفاق في مدينة نيويورك عن مئتي ميل ويستخدمه ملايين الركاب يوميًا»، تقول بجدية. «من الصعب جدًا العثور على طفلين في أنفاق ينتقل عبرها الملايين. كلما أسرعنا في الوصول إلى محطة المترو، كان أفضل».

نقف على درجات سلم الكنيسة للحظة، لنتأكد أن الساحة خالية، ثم نعود إلى الطوار. نمر بكتل مبانٍ قليلة أخرى بمحلات طباعة ونسخ الورق، ومحلات أحذية، وأربعة صالونات للعناية بالأظافر، ومطعم صيني، ومطعمين مكسيكيين. يبدو كأن بلدتي بكاملها من إلكتون محشورة في شوارع عدة.

نتوقف عند تقاطع طرق، ننظر حولنا بحثًا عن محطة مترو. يسير المارة في جميع الاتجاهات، لكنهم بالتأكيد ليسوا ملايين.

«كيف يصعب هكذا إيجاد ملايين من الناس؟ أوف!» يزداد إحباطها. تنظر في ساعتها.

تتوقف سيارة شرطة على مسافة كتلة مبانٍ منا. الإشارة حمراء، وأرى مرفقًا يستند إلى زجاجها المفتوح. أهي إحدى السيارتين اللتين مرتا بنا منذ قليل؟ أشعر براحتيّ تتعرقان فأمسحهما في بنطالي.

لا ترتبك، أقول لنفسي.

«ماكس، أتشمين هذا؟»

تتحول الإشارة إلى الضوء الأخضر لكن سيارة الشرطة لا تتحرك. بل تتوقف إلى جانب الطريق. يستحيل معرفة ما إن كان السائق ينظر إلينا أم لا بسبب سطوع الشمس والمسافة.

«أمامنا مشكلة أكبر من الرائحة الغريبة الآن، في حال لم تلحظ»، تقول من بين أسنانها.

أشم بخارًا يتصاعد من خلفي، يحمل رائحة خفيفة لمعدن وقمامة قديمة. أنظر تحتي وأرى أنني واقف على شبكة حديدية. أجذب ماكس من مرفقها حين أشعر بممر كبير ومزدحم أسفلنا.

«ماكس، إنه القطار! إنه أسفلنا مباشرة!»

إن كان القطار أسفلنا، فلا بد أن مدخل المحطة قريب. ننظر حولنا فنجده. على مقربة أقدام قليلة من سيارة الشرطة، أمامه عمودا إنارة طويلان أخضران ولافتة سوداء كبيرة برقمي ستة وأربعة في دائرة خضراء. نسرع نحوه ونحن نلتفت خلفنا كل ثوانٍ قليلة حتى نهاية كتلة المباني. أتساءل إن كان الشرطي يراقبنا أو يطلب دعمًا.

ينفتح باب السيارة ويترجل منها شرطي في الزي الرسمي، يعدل نظارته الشمسية. يتحدث في هاتف عند أذنه.

ليست مصادفة إننا قابلنا ثلاث سيارات شرطة خلال أقل من ساعة.

أشعر بدفقة هواء تتصاعد من أسفل السلم، والأرض تهتز تحت قدمي. مئتا ميل من القضبان، أربعمئة محطة، وملايين الركاب لنذوب وسطهم- هذه أفضل فرصنا لنتجنب القبض علينا.

«اقترينا يا ماكس!»

ماكس مستعدة لهذه اللحظة مثلي تمامًا. نهبط السلم بسرعة، نمسك بالدرابزين ورأسانا مخفضان. يتحرك من يغادرون المحطة كأسراب النحل ويصطدمون بنا في صعودهم. نسمع الصوت المشوَّش لإعلانٍ ما في الخلفية.

نهبط إلى المحطة، أرى باب دوار وماكينتي بيع تذاكر. تشبه ماكينات محطة المترو في إلكتون لكنها بألوان مختلفة. تُخرِج ماكس ورقة نقدية من فئة عشرة دولارات.

«دائمًا ما تؤكد عليّ ماما أن أنفق نقودي في أشياء مفيدة»، تقول بابتسامة ماكرة.

أنقر على الشاشة لشراء بطاقة مترو. تضع ماكس النقود في الشق، فتصدر الماكينة تكة وهمهمة قبل أن تبصق بطاقة صفراء. تقف ماكس خلفي مباشرة وأنا أضع البطاقة في الشق، فيأذن لي ضوء أخضر بالمرور. أميل بجذعي إلى القضيب المعدني ثم أناولها البطاقة لتمر هي الأخرى. نسير إلى الرصيف. نستقل قطارًا كتب عليه رقم أربعة بالأخضر. ندخل إلى أقل العربات زحامًا، وأقعد على مقعد.

«ماكس».

«نعم»، تجيبني وهي تقعد على مقعد بجواري وتضع حقيبتها على حجرها. تفتح دفترها قليلًا فحسب ليمكنها القراءة دون أن أرى أنا. ما زالت أبواب القطار مفتوحة ولم يتحرك بعد.

«سأرد لك هذا».

«أيًا كان»، ترفع كتفيها ردًا على وعدي. أتذكر كيف كانت محبطة منذ قليل، وأعرف أن اليوم قد لا يسير كما خططنا له. أريد أن أرى ابتسامتها مجددًا.

«سوف أرد لك هذا، وإن انتهى بنا الأمر في المستشفى مجددًا، سأعطيكِ كل وجباتي».

«هـذا مريـع، جيسـون دي»، تقـول بتقـزز. تميـل برأسـها إلى الخلف وتبتسـم ابتسـامة سـريعة. «أنـا واثقـة بـأن هـذا القطـار يسـير فـي الاتجـاه الصحيـح، لكننـي أريـد أن نسـأل أحـدا لنتأكـد».

لـم يدخـل أحـد غيرنـا هـذه العربـة، مـا يعتبـر غريبًـا. أتسـاءل إن كان موضوعهـا مبالغًـا فيـه، أم اسـتقل ملاييـن الـركاب عربـات القطـار الأخـرى. ثـم أراهـا، ملصقـة فـي إطـار بيـن نافذتيـن.

«ماكـس، لـدي أنهـار بـلا مـاء، وغابـات بـلا أشـجار، وجبـال بـلا صخـور، ومـدن بـلا بيـوت. مـاذا أكـون؟»

تتجه عيناها جانبًا وهي تفكر.

«لا أعرف، ماذا تكون؟»

«خريطـة يا ماكس»، أقـول وأنـا أتجـه نحـو الملصق علـى الجانـب الآخـر مـن القطـار. «خريطـة».

الملصـق خريطـة لنظـام متـرو الأنفـاق بكاملـه، بنقـاط بأسـماء المحطـات علـى مسـارات مختلفـة الألـوان.

«هنـا»، أقـول مشـيرًا علـى محطتنـا. تقـول اللافتـة بالخـارج أننـا كنـا فـي الشـارع الثالـث والثلاثيـن. «إن أخذنـا هـذا القطـار، سـيتوقف فـي الشـارع السـابع والسـبعين. أي مسـافة ثلاثـة شـوارع فقـط مـن عنـوان خالتـي».

«وحديقـة الحيـوان فـي الشـارع الرابـع والسـتين»، تضيـف ماكـس. «يقيـم والـداي فـي فنـدق بالقـرب منهـا. نحـن فـي الطريـق إلـى هنـاك مباشـرة. نحـن قريبـون جـدًا يـا جيسـون دي! ربمـا يمكننـا الذهـاب إلـى حديقـة الحيـوان ثـم الذهـاب إلـى بيـت خالتـك ثـم أعـود إلـى المستشـفى قبـل أن يكتشـف أحـد غيابـي حتـى».

تشعرني رؤية تلك الخطوط المتقاطعة والنقاط السوداء بأنني سأنجح في الوصول إلى بيت خالتي. لدينا خطوات يمكننا تتبعها. مسار واضح. نعاود الجلوس على المقاعد الباردة، ونحن نشعر أن خطتنا تكتمل.

تصدر معدة ماكس قرقرة طويلة. تلف ذراعيها حول بطنها.

«أنا أيضًا جوعان»، أعترف.

«لنأكل إذن»، تفتح حقيبتها وتخرج منها كيسي رقائق جراهام وعلبتي عصير. عصير التفاح مُحلّى بشكل زائد، لكننا نبلع به الرقائق. أميل إلى الخلف وأغمض عيني، أدعو أن يتحرك القطار وأدهش من المسافة التي قطعناها أنا وماكس.

«هيي أنتما الاثنان!»

أفتح عيني بسرعة ويتحول المذاق الحلو في فمي إلى مُرّ. يقف رجل عند باب القطار المفتوح، بوجه صارم ويديه في خصره. يرتدي زيًا رسميًا أزرق فاتحًا بشارة رسمية ما على ذراعه، وقبعة بحافة ذهبية. أرى جهازًا لاسلكيًا معلقًا بحزامه.

تطن أذناي، وأنظر إلى ماكس.

«أوه، لا». تهمس ماكس مذهولة، كتفاها يرتفعان وينخفضان. تلاشت الثقة التي تعاملت بها مع الرجل صاحب الكلبين. لن تستطيع إخراجنا من هذا الموقف بالطريقة نفسها.

يشير إلينا الرجل بإصبع واحدة معقوفة أن نتبعه. أدفن وجهي في يدي. كنت لتوي قد ظننت أننا سننجح!

قُبِض علينا على مسافة محطات قليلة من الحرية.

الفصل الرابع عشر

«أين تحسبان نفسيكما ذاهبين أيها الصغيران؟»

لا أريد أن أجيب عن هذا السؤال، وأعرف من صمت ماكس أنها كذلك هي الأخرى.

«أنا أسألكما سؤالًا. ألا يمكنكما التحدث؟»

أعود بظهري إلى الخلف في الكرسي بيأس. فاض بي الكيل تقريبًا. أنا مرهق جدًا لأحاول الهروب من هذا الموقف. ظللت أبذل جهدي لأبدو شجاعًا منذ أن رأيتهم يأخذون أمي، لكن الحقيقة أن الشجاعة صعبة. أنا متعب. لماذا خفت بشدة من القفز في السيارة مع أمي؟ على الأقل كنت سأكون معها الآن بدلًا من الهرب.

لا مزيد من هذا. أفكر. *لا أعرف كيف ظللتِ تفعلين هذا لوقت طويل يا أمي. لقد قضيتُ يومًا واحدًا هاربًا وأشعر أنني على وشك الانهيار.*

كذبتُ على الممرضين والأطباء الذين كانوا يحاولون مساعدتي. والأسوأ من هذا، ورطتُ ماكس في هذه الفوضى أيضًا. ينبض رأسي بألم الندم.

«حسنًا!» أقول فجأة وأنا أنهض. «هيا ألقِ بي في السجن أو في إحدى دور الرعاية».

«أوه، جيسون...» تشدني ماكس من طرف تيشيرتي.

«لا»، أصر. «لقد سئمت. انتهى الأمر».

«جيسون، أغلق فمك للحظة»، تهمس ماكس. تلمع عيناها وهي تنظر إليّ، لكنني يجب أن أضع نهاية لكل هذا.

«لا، أنا مستعد لهذا. أين القيود؟ لننهِ الأمر فحسب».

يطلق الرجل صفيرًا خافتًا.

«يا رجل، لماذا لا توفر هذا الأداء المسرحي لشارع برودواي»، يقول بسخرية. يهز رأسه. «يا إلهي! ألا يكفي أنني أتعامل مع قطار معطّل بالفعل صباح يوم الأحد؟ والآن عليّ التحدث مع الطفل المعجزة الثائر؟ مستحيل. ليس هذا ما تطوعت من أجله».

«الطفل ماذا؟ أنا لست-»

«وفر على نفسك ما ستقوله. في الغالب كنت تثرثر وهم يعلنون عن العطل. هذا القطار خارج الخدمة يا صغار. الآن انهضا واخرجا قبل أن أطلب الشرطة!»

الشرطة؟ أنظر إلى قبعته والشارة على ذراعه وأحار. تقف ماكس وتعلق حقيبتها على كتفيها.

«يجب أن تكون السيد المضحك طوال الوقت، صحيح؟» تقول لي بابتسامة ضيقة. «من فضلك كف عن المزاح مع سائق القطار الطيب».

سائق القطار؟ أوه لا.

أعضّ لساني.

«يا رجل، يريد الصغار هذه الأيام تحويل كل شيء إلى مظاهرة». يسير السائق مبتعدًا عنّا الآن، يهز رأسه ويغمغم لنفسه وهو يعبر العربة الخالية. الفتى يقول لي: «احبسني»، يردد لنفسه، «يا رجل، حين كنت في مثل سنه لم أكن لـ....»

تتلاشى كلماته وهو يفتح الباب البعيد وينتقل إلى العربة التالية. ينغلق الباب المعدني من خلفه.

تلكزني ماكس في صدري بإصبع واحدة كالخنجر.

«كدت تقضي علينا يا جيسون دي!»

لماذا لم أنتبه إلى زيه الرسمي؟ أدرك أنني كنت على حافة إفساد مهمتنا تمامًا. لن أصل إلى أي مكان إن كنت مستعدًا للاستسلام لهذه الدرجة.

«لنذهب من هنا قبل أن يعود»، أقول حين يمكنني التنفس أخيرًا. نصعد السلم درجتين في كل قفزة إلى أن نخرج من المحطة ونعود إلى الرصيف. لحسن حظنا اختفت سيارة الشرطة.

«هيا، لنتحرك قبل أن يقرر ذلك الرجل الاتصال بأحد ليحبسني حقًا».

ننطلق في السير، نلتفت خلفنا كل عدة دقائق ونحن نحاول الابتعاد عن المحطة ما أمكننا.

«أنا جوعانة جدًا». تقول ماكس بألم. وأنا أيضًا لكنني أحاول ألا أفكر في الأمر.

«لنبتعد قليلًا ثم نبحث عن شيء ما لنتناوله».

تومئ برأسها موافقة. نسير بثبات، نحاول ألا نلفت انتباه أحد من حولنا. حين نصل إلى طرف كتلة مبانٍ، أنظر يمينًا ويسارًا وأبدأ العبور. تشدني ماكس من مرفقي.

«أوه، جيسون...» تقول.

أتتبع نظرتها فأرى لافتة خضراء في الركن.

«أوه لا»

تقول اللافتة الجادة الأولى. سرنا عبر الجزيرة بدلًا من التوجه إلى البر العلوي! أغطي وجهي بيدي.

«إننا نحن الاثنين جائعان. الأفضل أن نتناول شيئًا ما قبل أن نرتكب خطأ كبيرًا آخر»، تقول ماكس بوجه متألم. «وإن لم آكل شيئًا ما قريبًا، سيكون عليك أن تحملني لبقية الطريق».

«لقد نفد ما لدينا من الرقائق والعصير»، أخبرها، لكنها تعرف بالفعل. «سنجد شيئًا ما سريعًا. حاولي ألا تفكري في الجوع». ولأصرف ذهنها عن معدتها تذكرت لعبة ذهنية تعودت معلمتي لعبها معنا. «أجيبي هذا. اثنتا عشرة شينًا في عين واحدة. ما الشين وما العين؟»

«عن ماذا تتحدث؟»

«اثنا عشر شهرًا في عام واحد»، أوضح لها. «هل فهمتها؟ سأسألك سؤالًا آخر. أملئي الفراغ. اثنان وخمسون واوًا في حاء واحدة».

«أنا جوعانة جدًا لأفكر»، تقول بكآبة. نواصل السير. تخبرنا لافتات الشوارع أننا نتجه إلى البر العلوي من المدينة بالفعل، ما يريحنا قليلًا. بعد دقيقة، أسمعها تتمتم بشيء ما من بين شفتيها.

«اثنتان وخمسون ورقة في حزمة كوتشينة».

ما إن تحل واحدة، تريد المزيد، لأن حل الألغاز يُشعرك بالراحة. أنا أعرف هذا الشعور.

ستة عشر ألِفًا في راء.. خمسة أ. في ر.ب. 366 ياء في س. ك.

ست عشرة أونصة في رطل. خمسة أرقام في رمز بريدي. 366 يومًا في سنة كبيسة.

«تذكرت شيئًا، ماذا تعني الدي؟» تسألني.

«أي دي؟»

«في اسمك. جيسون دي. ماذا تعني الدي؟»

«أوه، هذه الدي». لم أخبر أحدًا بهذه القصة من قبل، ربما لظني أنه من الغريب أن تفكر أمي في اسم وهي تنظر إلى التقويم.

«إنها قصة غريبة».

«ما يجعلها مناسبة تمامًا لليوم».

أبتسم.

«الدي اختصار لديسمبر».

«ديسمبر؟ هذا اسم وسط غريب».

«أرادت أمي حين وُلدت أن تسمّيني اسمًا أمريكيًا، لذلك اختارت جيسون. وحين سألتها ممرضة إن كانت تريد منحي اسمًا وسطًا أيضًا، فكرت أنني لو حظيت بحرف واحد كاسم وسط فقد أبدو أمريكيًا أكثر. ثم نظرت إلى التقويم. يوليو، أغسطس، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر...»

«هذا رائع جدًا».

ها هو مجددًا- الشعور بأنني طبيعي أكثر قليلًا إن كانت ماكس ترى هذا.

بعد عدد من كتل المباني، يتضاعف عدد المارة على الرصيف. نشعر أن الزحام سيمتصنا ويحركنا بقوته الذاتية.

«انظر يا جيسون دي! لنتوقف هنا». نحن في الشارع السابع والخمسين وبالتأكيد في حاجة إلى الراحة.

تشير إلى محل بقالة صغير أمامه صناديق فاكهة. نعبر الشارع من الإشارة ونسير نحو أهرامات البرتقال والتفاح والكيوي. توجد أيضًا ثلاجة مفتوحة مليئة بالثلج وزجاجات المياه والعصير. المتجر ليس عميقًا كثيرًا لكن أرففه القليلة محملة بالطعام المعلب والشطائر الجاهزة التي تجعل ريقي يسيل.

تقف امرأة كبيرة في السن خلف ماكينة الدفع، تضغط على جرس بعد مرور كل زبون وتسحب الأكياس الورقية لتملأها بالمشتريات. تُخرج ماكس ورقة أخرى من فئة العشرة دولارات وتدفع مقابل شطيرة وعلبة عصير كرز.

أسير خارج المحل فيما تنتظر ماكس باقي نقودها. حين تخرج، تقسم الشطيرة إلى نصفين وتمنحني أحدهما. يسعدني تناول شيء ما غير طعام المستشفى. نجلس إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة على الرصيف ونأكل.

«لقد شحنت قواي العبقرية»، تعلن ماكس وهي تنفض الفتات عن حجرها.

نسير شارعين آخرين قبل أن يزداد الزحام أكثر، البشر في كل مكان. يحمل قليل منهم لافتات عليها كلمات أو صور. تصطدم أكتافنا بهم كما حدث في محطة المترو.

«هل الأمر جنوني هكذا طوال الوقت هنا؟» أسأل ماكس، لكنها لا تسمعني لأن رجلين خلفنا يصيحان.

«هاربون من إن واي دي بي!»

إن واي دي بي هو اختصار لقسم شرطة نيويورك. أتذكر رؤية تلك الأحرف الزرقاء السميكة على سيارة الشرطة. أرى عددًا من ضباط الشرطة يقفون في الشارع، أسفل الطوار مباشرة. يمسحون بأعينهم فيضان وجوه المارة.

نسمع هتاف حولنا.

«كار- ترا كار- ترا كار- ترا سنكون في انتظارك هنا بعد الـ 26.2!»

تقف شابتان بالقرب منا. تلتقطان صورًا للزحام بهاتفيهما مرفوعين أعلى رأسيهما.

«أهلا، ممم، ما الأمر؟» أميل عليهما لأسألهما، بصياح.

ترمقني الاثنتان بنظرات حائرة. تميل إحداهما برأسها جانبًا، ترتدي سترة خضراء باهتة.

«أي أمر؟»

«كل هذا»، أقول وأنا أشير إلى الزحام. «هل يحدث شيء ما اليوم؟»

«أنت تمزح معي»، تقول بعينين تتوهجان ككشافي ضوء. «أنت خفيف الظل ألست كذلك؟»

لم أكن أمزح.

تضحك صديقتها. «هل يحدث شيء ما؟ هذا مضحك جدًّا!»

«لقد صدقتك للحظة، أليس كذلك؟» أبتسم لها ابتسامة عريضة وأرفع كتفي قبل أن أستدير إلى ماكس حائرًا. تتقدم الشابتان بمسافة ياردات قليلة أمامنا. ألاحظ رجلًا برقم 26.2 مطبوع على كم قميصه الطويل.

«نحن في مشكلة»، تقول ماكس.

«هل هذا رأيك؟» أجيبها بسخرية قليلًا لكن الزحام الشديد يجعلها لا تلاحظ.

«اتصلت ماما. إنها- كيف أصيغ هذا؟ أتتذكر ديناصورات التي ريكس في حديقة الديناصورات؟ ستبدو وديعة أمامها. إنها غاضبة لهذه الدرجة».

«كيف اتصلت أمك؟»

ترفع ماكس الهاتف الجوال. يتخذ وجهها أكثر هيئاته غموضًا، عيناها مغمضتان تقريبًا وفمها خط رفيع وجاد. صارت أهدأ كثيرًا الآن بعد أن تناولنا الشطيرة.

«لديك هاتف»، أقول مدهوشًا.

«نعم، إنها حريصة حقًا على أن نبقى على اتصال. كانت ستسعد كثيرًا لو كان هذا الهاتف يمكنه أكثر من الاتصال والتقاط الصور. أنا واثقة أن الديناصورات كانت لديهم تكنولوجيا أكثر تطورًا».

«ماذا قلتِ لها؟»

«أخبرتها أنني بخير وأنني سأعود، لكنني عليّ أن أفعل شيئًا ما قبل هذا. إنها قلقة جدًا، بالطبع، وغاضبة بشدة من أبي لأنه كان نائمًا في أثناء خروجنا. كانت تتوسل إليّ لأخبرها أين نحن».

تضغط على زر أحمر ضغطة طويلة فأرى الهاتف ينطفئ تماما.

«نحن؟»

«أوه، نعم. لقد أدرك الممرضون أننا هربنا معًا. أنهيتُ الاتصال بسرعة، وإلا تعقبوا الاتصال. هكذا يقبضون على المجرمين دائمًا

فـي التلفـاز. تقـول إنهـم بحثـوا عنـا فـي المستشـفى كلـه. حسـبوا أننـا ما زلنـا فـي المبنـى. كم هـذا رائـع؟»

يضـج قلبـي فـي صـدري. أريـد أن أختبـئ. أريـد أن أختفـي بيـن ذراعـي أمـي. أريـد أن أعـود صغيـرًا، هـذا الأمـر يكبـر حجمـه بمـرور كل دقيقـة.

بالكاد أسمع تفكيري من صوت المشجعين.

«تبدو جيدًا يا عدّاء!»

«أمامك طريق طويل!»

يلتصـق ظهرانـا بلوحـة زرقـاء، حاجـز بيننـا وبيـن الشـارع. أفهـم فجـأة، كوميـض كشـاف كاميـرا فـي ذهنـي، يكتسـب الرقـم 26.2 معنى.

26.2 ميمًا في ميم واحدة.

إننـا نشـهد ماراثـون مدينـة نيويـورك- ماراثـون لمسـافة 26.2 ميـلًا.

الفصل الخامس عشر

«أحسب أن الملايين قد قرروا الركض اليوم بدلًا من ركوب قطار الأنفاق».

تقرأ ماكس أفكاري.

نحدق في تيار العدّائين، تضرب أحذيتهم الرياضية الأسفلت المتشقق للشارع بإيقاع ثابت. أسراب من السراويل الرياضية، زجاجات المياه المثبتة بالأحزمة، وصدريات عليها أرقام. بعضهم يبتسمون أو يلوحون في أثناء مرورهم. آخرون يثبتون أعينهم أمامهم مباشرة.

أعرف ماذا كانت أمي ستقول لو رأت هذا.

كثيرون يركضون لأنهم يريدون - وآخرون يركضون لأنهم مضطرون.

تعج الشوارع بالمشاهدين. الجميع أعلى سطح الأرض اليوم. ضباط الشرطة هنا اليوم، أدرك الآن، لحِفظ الأمن والنظام. لا ينظرون إلينا. بل ينظرون إلى الجميع. يقف عدد منهم في الشارع، ويقف عدد أكبر خلف المشاهدين. نحن بينهما، وهذه ليست الوصفة السليمة للهرب.

يتحرك العداؤون في الاتجاه الذي علينا السير فيه.

نحن الآن في الشارع الواحد والخمسين وما زلنا على مبعدة عدة كتل مبانٍ من حديقة الحيوان. لو خرجنا عن مسارنا للابتعاد عن الزحام، سنبرز للعيان كلمبتي نيون في غرفة مظلمة، والضباط منتبهون جيدًا لما يحدث.

أحـرص كـي لا تقابـل عينـاي عينـي أحـد منهـم، أخشـى أن أجـد نفسـي أمـام الضابـط خـان. لـن أسـتطيع إيجـاد طريقـة للهـرب منـه- ليـس بعـد محادثتنـا الأخيـرة.

«اسمعي ماكس، كيف في رأيك علينا أن-»

لكـن سـؤالي يطيـر حيـن ألتفـت وأراهـا تميـل إلـى حاجـز فـي الشـارع. تبـدو كالسـلحفاة وهـي تمـد رأسـها خـارج قوقعتهـا. تكـور يديهـا الاثنتيـن حـول فمهـا كأنهمـا مكبـر صـوت وتصيـح.

«اضربوا الطريق جيدًا!»

«ماكس!»

«إنـه ماراثـوان وليـس سـباقًا للزحـف!» تقـول وتُخـرِج هاتفهـا مجـددًا.

أجذبهـا مـن حقيبـة ظهرهـا وأعيدهـا إلـى سـاتر الزحـام. تمسـك هاتفهـا فـي يدهـا. تبـدأ تشـغيله، تلتقـط صـورة للعدائيـن ثـم تعيـده إلـى الحقيبـة مجـددًا.

«ماذا تفعلين؟»

«أنـا أشـجع هـؤلاء الرياضييـن الصالحيـن- هـذا مـا أفعلـه! أُظهـر بعضًـا مـن الـروح الرياضيـة. عليـك أن تجـرب هـذا».

«أأنتِ جادة يا ماكس؟ ألا ترين ضباط الشرطة حولنا؟»

يديـر أحـد الضبـاط رأسـه نحونـا كأننـي ناديتـه باسـمه. أشـد ماكـس نحـو الزحـام، نعـود للوقـوف وسـط المشـجعين. أخفـض رأسـي وأمسـك ذراع صديقتـي، أخشـى أن يرانـا أحـد.

«ستجعلين الجميع يحدقون فينا!»

«لم أشهد ماراثون مدينة نيويورك من قبل!» تقول بحدة. تبدو منزعجة، كأنني أبعدتها عن حفلة عيد ميلادها. «أريد أن أشاهده فحسب! أهذا طلب كبير جدًّا؟»

أترك ذراعها. يواصل المشجعون من حولنا هتافهم رغم وجود طفلين هاربين على وشك الانهيار.

«ماكس؟»

عيناها حزينتان. تحدق في حذائها الرياضي وهي تقول شيئًا. يجب أن أميل إليها لأسمعها رغم الصياح.

«والداي يُبعِدانني دائمًا عن الزحام والضجة. يعاملانني كزهرة رقيقة، وأنا متأكدة من أنني لست كذلك».

يختفي الصياح من أذني ولا أسمع سوى صوتها.

«لا يمكنني السفر لأننا سنكون بعيدين جدًّا عن الأطباء. لا يمكنني حضور مباراة كرة سلة بسبب الأضواء. لا يمكنني المبيت عند أصدقائي. لا يمكنني كل شيء».

أسكت، أحاول أن أتخيل كيف قد يكون العالم هكذا. أرى أن لديها كل شيء. لكنها لا ترى الأمر على هذا النحو. أرى قطع الصمغ في شعرها وأتساءل عمّا لا أراه من الصورة. لماذا لا ينبغي أن تبتعد كثيرًا عن الأطباء؟

«ماكس، لماذا لا يمكنك الابتعاد كثيرًا عن الأطباء؟»

تأخذ نفسًا عميقًا بحدة.

«أنا لم أقل أطباء».

أطرف بعيني مرتين. الضجة شديدة هنا لكنني متأكد أنني سمعتها تقول *أطباء*.

«لتوّك قلتِ-»

«جيسون دي»، تقول وتأخذ نفسًا عميقًا آخر وتنظر إليّ بعينين ناعمتين. «أنا لست مجرمة ما. هذه ليست نزهتي المعتادة ليوم الأحد. أنا أحاول فقط قضاء عدة ساعات من المرح قبل أن-»

يعلو التهليل لمرور مجموعة أخرى من العدائين. وجوههم محمرّة في الطقس الدافئ عن المعتاد. تنصبّ أعين الجميع عليهم، يبحثون عن الأصدقاء أو الأقارب الذين واصلوا حتى هذه المرحلة. تحول ماكس انتباهها إلى السباق، وأرى في عينيها الحرية. أيًا كان ما تهرب منه، إنه أكبر بكثير من مجرد اختبارات عبقرية.

«الزحام شديد جدًا هنا»، أقول وأنا أميل إلى أذنها. «لا أظن أن أحدًا سيلاحظنا حتى. لنشاهد السباق لدقائق قليلة».

«حقًا؟»

أومئ برأسي. «تعرفين، لم أكن لأصل إلى هذا الحد من دونك».

تبدو للحظة كأنها ستعانقني لكنها توجّه لي إصبعها. زال الحزن من عينيها الآن وحلّت محله لمعة شقاوة.

«هذا لا شك فيه. لولا مهارتي في سرقة بطاقة المرور، كنت ستظل مختبئًا من الشرطة تحت فراش المستشفى».

«ماكس».

«نعم؟»

«أعدك أنني سأكتب لكِ وأنتِ في السجن».

«مضحك جدًا يا جيسون دي»، تقول بغرور، لكن وجهها يشع بالفخر. «مضحك جدًا».

العداؤون من مختلف الألوان والأشكال والأعمار. يستمر تدفقهم على امتداد البصر. تتحرك أذرعهم وأرجلهم بإيقاع له تأثير التنويم المغناطيسي. على جانبي مسار الركض تيشيرتات بأكمام طويلة وأكواب ورقية خضراء متجعدة ملقاة على الأرض.

نميل أنا وماكس أكثر على الحاجز ونلوح للعدائين المقتربين، تبدو ركبهم ومرافقهم كأجزاء محرّكات. يعدو الناس في بلدتي أحيانًا، لكنهم لا يسببون زحامًا حولهم. ماذا في هذا السباق يجعل الجميع يريدون ترك ما يفعلونه ويقفون لمشاهدته؟

لست مهتمًا به مثل ماكس. أتساءل إن كانت أمي قد وجدت طريقة للاتصال بصديقتها وإن كنت سأسمع صوتها مجددًا يومًا ما.

«جيسون دي-»

«نعم؟»

«اسمع، ظني أن-»

يعلو التهليل من حولنا مجددًا. كأن الجميع لديهم صديق أو قريب يشارك في السباق.

«جيسون دي!»

حين تردد اسمي مرة أخرى، أسمع القلق في صوتها، حينها تقابل عيناي عيني عدّاء أعرف وجهه.

أوه لا، أقول في سري، ويخفق قلبي.

ما إن بدأت أظن أننا لا مرئيان في هذه المدينة المزدحمة، أُدركُ أنني مخطئ.

الفصل السادس عشر

تشدني ماكس من ذراعي، ونختفي في زحام البشر ولافتاتهم.

«أرأيتِ-»

أعرف من طريقة طرقها رأسها وسيرها وسط الزحام، أنها رأت دكتورة شاباني. لم أتعرف عليها لوهلة. لأنها ليست في معطفها الأبيض وبذلتها الطبية. بل في سروال وحذاء رياضيين ورديين، لا تبدو كطبيبة كثيرًا.

بالتأكيد رأتني هي الأخرى. حدق أحدنا في الآخر مباشرة حتى شدتني ماكس من ذراعي. تقودنا ماكس خارج الزحام فنقطع مسافة كتلة مبانٍ كاملة في الاتجاه المعاكس للماراثون. توقفتْ دكتورة شاباني للحظة حين رأتني، لكنها ربما عادت إلى السباق. آمل أن يكون بيننا الآن كتلتا مبانٍ أو ثلاث كتلٍ على الأقل. أرفع رأسي لأرى إن كانت، تحت أي ظرف من الظروف، تركت الماراثون لتأتي خلفنا.

«جيسون، الأفضل أن نبتعد عن الماراثون. في الغالب سمعتْ بهروبنا من المستشفى. وهذا الماراثون مزدحم بالفعل. الأعين كثيرة هنا حقًا».

«نعم، ويوجد أيضًا أطفال كثيرون»، أقول. «لو سرنا وحدنا، سنلفت النظر أكثر. على الأقل هنا، سيظن من يرانا أننا مع إحدى الأسر. يمكننا الذوبان وسط الزحام، علينا فقط أن نتصرف بطبيعية».

تعض ماكس شفتيها، وتجفل.

«أتقول إننا لسنا طبيعيين؟» تسأل، بصوت مشدود.

«أنا لم أقل هذا».

«إن كنت تقول لي أن أتصرف بطبيعية فهذا يعني...»

علينا أن نتحرك حقًا، وهي تدقق في الكلمات. لا أعرف ماذا يضايقها.

«ماكس، أنت تعرفين ماذا أعني. أنا الذي لا أتصرف بطبيعية، لذلك لا تكوني حساسة هكذا. إن كنت لست طبيعية فهذا لأنك أذكى من الجميع فحسب. ليت مشكلاتي مثل مشكلاتك».

تتحول عيناها إلى الوردي. تزم شفتيها بحدة، كأنها تخشى أن يفلت منهما شيء. لا أعرف ماذا قلت فأزعجها بشدة هكذا. تبدو مرهقة، أكثر مما كانت وهي جائعة. الساعة الآن بعد الحادية عشرة. لم يمر على مغادرتنا المستشفى سوى ساعات قليلة، لكنها تبدو شهرًا.

«ماكس؟»

تأخذ نفسًا عميقًا. ترفع قبعتها عن رأسها بمقدار بوصة واحدة وتمرر أصابعها في شعرها، تكور راحتها فتتسل من بين أصابعها ندف الصمغ لتسقط على أرض الطوار.

«أنتَ لا تعرف عن ماذا تتحدث»، تقول بهدوء.

ها هي مجددًا. كيف أجعلها تثق بي لتخبرني بما تخفيه؟

«ماذا تقصدين؟» أسألها.

تدس خصلات شعرها الفالتة تحت أذنيها. تطرف بعينيها بسرعة وتتنحنح.

«لنتحرك»، تقول بمرح، لكنني أعرف من صوتها أنها تتظاهر.

«اسمعي، إن كان يوجد شيء-»

«ماكس؟ أم دي؟ ظننت أنكما أنتما الاثنان!»

نتجمد أنا وماكس.

صوت دكتورة شاباني اللاهث لا تخطئه الأذن. نستدير ببطء لنواجهها. يشحب وجه ماكس تمامًا. لا توجد أي أفكار عبقرية خلف عينيها البنيتين. لن تستطيع إخراجنا من هذا المأزق.

«أوه، أهلًا، دكتورة شاباني»، أقول بطبيعية ما أمكنني. «ماذا... ماذا تفعلين هنا؟»

«ماذا أفعل هنا؟ ماذا تفعلان أنتما الاثنان هنا؟ ليس من المقرر مغادرتك المستشفى اليوم يا ماكس. وأنت، هل عرفوا عنوان والديك؟ من الذي جاء بكما إلى هنا؟»

كل هذه أسئلة جيدة جدًا. ليت لدي إجابات جيدة.

«أحضرتنا أمي لنشاهد السباق»، تقول ماكس. بالكاد يمكنها إخفاء توترها. «أذنوا لي في الخروج هذا الصباح».

تضع دكتورة شاباني يديها في خصرها. تلمع حبات العرق على حاجبيها المعقودين. «الخروج؟ لم يكن محل نقاش بالأمس حتى». تلتفتُ إليّ. اقتربت منا، العداءة الوحيدة على الجانب الآخر من الحواجز. ينظر إليها أشخاص قليلون لهذا. «وأنتَ؟ كيف تشعر؟»

«رائع»، أجيبها بمرح. «رأسي لا يؤلمني تقريبًا!»

تمسح جبينها بظهر يدها وتهز رأسها.

«سأقول لكما صدقًا أنتما الاثنين. أنا لا أعرف كيف صرتما أصدقاء بسرعة أو كيف أنتما هنا بدلًا من المستشفى. سأُجري

اتصالًا سريعًا». تلمس الحقيبة الصغيرة المعلقة بحزام عبر جذعها. «للأسف، هاتفي مع صديقي».

تنظر إليّ ماكس بعينين واسعتين وتشير بهما إلى اليمين. أضغط شفتيّ معًا برفض صامت. لا، أخبرها في رأسي. لن نستطيع الهرب من عداءة في الماراثون!

«يجب أن أستعير هاتفًا». تستدير إلى الأشخاص حولنا، تحاول تحديد من ستطلب منه.

«آخر فرصة»، تهمس لي ماكس.

المدينة ليست كبيرة ومزدحمة كما تمنيت.

«عذرًا»، تصيح دكتورة شاباني. «ألدى أحد منكم هاتف يمكنني استخدامه؟»

يتظاهر البعض بأنهم لم يسمعوا ويهز آخرون رؤوسهم ويبتسمون بأدب. تسدد لنا نظرة جادة، تحذير بألا نتحرك. تطلب مجددًا، يداها مكورتان حول فمها لتضخيم صوتها.

«عذرًا. إنها حالة طوارئ حقًا. أنا-»

«طبيب!» تصدر صيحة يبدو أنها تأتي من تيار العدائين. «طبيب! نحن بحاجة إلى طبيب!»

تلتفت دكتورة شاباني خلفها.

«لقد سقط عداء، أيوجد طبيب أو ممرض في أي مكان هنا؟ الرجل في حاجة إلى مساعدة!»

«أوه يا رجل، هذه الساق مكسورة بالتأكيد!»

«أنتما الاثنان- تعاليا معي». تشق طريقها في الزحام المتجمع. نسير خلفها مباشرة.

«الرجل المسكين! تعثر في زجاجة مياه!»

يمد الناس أعناقهم ليلقوا نظرة أفضل على العداء الكسير. نتبادل أنا ماكس نظرة. لا نفكر. نتحرك فقط، بسرعة ما أمكننا. نسير ثلاث خطوات كبيرة للخلف فيملأ الزحامُ الفراغَ بيننا وبين دكتورة شاباني. نشق طريقنا كتفًا بكتف إلى ما خلف الحواجز. أفكر في أفضل طريقة للاختفاء.

«لنبقَ خلف الحواجز ونحاول الذوبان في البشر. نسير في اتجاه العدائين نحو البر العلوي لنستقل القطار. في الغالب ما زالت دكتورة شاباني هناك».

نبقي رأسينا خفيضين ونتحرك ببطء كاف ليبدو أننا نحاول إيجاد مكان لنشاهد منه السباق عن قرب. لا نرى دكتورة شاباني، لكننا نظل نتلفت خلفنا كأنها ستظهر في أي لحظة.

نمر بكتلتي مبانٍ نحو البر العلوي فنسمع جوقة من الرنين والأزيز. يمد عدة أشخاص أيديهم في جيوبهم أو حقائبهم وينقرون شاشة هاتفهم.

«هل تلقيت رسالة؟» تقول المرأة أمامنا للرجل بجوارها. يمرر إبهامه على هاتفه، وأرى صندوق رسائل أزرق على الشاشة.

«منبه أمبر»، يغمغم الرجل ويعيد الهاتف إلى جيب سترته.

«أمر فظيع»، تجيبه وهي تهز رأسها.

ينظر آخرون في هواتفهم، يزمون شفاههم أو يهزون رؤوسهم أو يقولون شيئًا ما للشخص الذي بجوارهم.

«ماكس، ما هو منبه أمبر».

تنظـر إلـيّ بطريقـة أعـرف منهـا أنهـا لا تعرف. أرى أبًـا يلف ذراعه حـول ابنتـه الصغيـرة بجـواره ويقربهـا منـه. تنظـر إليـه وتبتسـم. أشـعر بحجـر فـي معدتي.

«ربما يتعلق بالعدائين المصابين»، تخمن ماكس.

تخميـن جيـد. أشـدها ونواصـل التقـدم بيـن المرافـق وحقائـب الظهـر، ننتقـل مـن تقاطـع طـرق إلـى آخـر. أسـمع جمـلًا عابـرة مـن محادثـات. تكـوّن معًـا قصـة.

«هل تلقيت رسالة أيضًا؟»

«منبه أمبر؟ نعم. أكره هذه الرسائل».

«نعم، إنهما اثنان. شيء فظيع!»

«من أين؟»

«لست متأكدًا. يقول المنبه إنهما فتى وفتاة».

تشـهق مـاكس بهـدوء. انتصبـت أذنانـا للمحادثـة الأخيـرة. تقابلـت أعيننـا لكننـا لـم نجـرؤ علـى التحـدث.

منبـه أمبـر ليـس لـه عـلاقـة بعدائـي المـاراثـون. منبـه أمبـر، أتذكـر فجـأة، هـو نظـام الإبـلاغ عـن الأطفـال المفقوديـن.

«الوالدان المسكينان».

«يشعرك بأنك تريد احتضان أطفالك، أليس كذلك؟»

«أو أن تضع عليهم وسائل تتبع. يا إلهي، لا أعرف ماذا سأفعل».

أنكمش، أستعد للحظـة التـي سيسـتدير فيهـا هـؤلاء ويـرون وجهـي الضـارب للحمـرة. تحـدق ماكـس فـي شـقوق الطـوار الأسـمنتي.

هـل أبلغـت عنـا دكتـورة شـابانـي بالفعـل؟ هـل تحـوي الرسـالـة أوصـافنـا أو صـورنـا؟ هـل سـتظهر وجوهنـا فـي الأخبـار؟

تخفض ماكس رأسها بشدة إلى حد يبدو أنها تريد أن تنشق الأرض وتبتلعها.

«ماكس، ربما يجب أن...»

تومئ برأسها في الاتجاه الذي نسير فيه، علامة على أن علينا أن نواصل السير فحسب. أسير بجانبها صامتًا.

تبدو مهزومة حقًّا الآن. وأعرف أنها ستواجه مشكلات ضخمة مع والديها. لا أريدها أن تواصل هذا. لا أحب أن كل هذا خطئي أنا، لكنني لا أريد أن أنضم إلى الآخرين الذين يرددون عليها ما لا يمكنها فعله.

نقطع كتلة مبانٍ أخرى، فتختفي الهواتف في الجيوب والحقائب مجددًا. لا أحد يقرأ عن طفلين مفقودين، مع أنهما في الغالب يفكرون فينا.

تنعطف ماكس في شارع جانبي ضيق. تقودنا إلى خلف مكَبِّ قمامة. تملأ رائحة الطعام الفاسد أنفي وتقلب معدتي. أرى ذيل فأر يختفي خلف كومة كراتين. ترفع ماكس رأسها لترى إن كان أحد يتبعنا.

«ماكس؟»

إنه يوم مشرق وجميل، وها نحن ذا، طفلان بالكاد يعرفان أحدهما الآخر وليس بينهما شيء مشترك، يختبئان في زقاق.

«ماكس، لم أظن أن الأمر سيكون هكذا».

تمنحني ابتسامة واهنة.

«أتظن أنه توجد مكافأة لمن يعثر علينا؟»

«سيكون هذا رائعًا»، أقول وأميل برأسي جانبًا. «ربما سأبلغ عنكِ».

تنحني لتربط رباط حذائها. تغمغم بشيء ما لا أميزه لأنها توجهه نحو الرصيف.

«ماذا قلتِ؟»

تقف وتسوي سترتها الثقيلة البنفسجية بيديها الاثنتين وهي تكرر ما قالته، بصوت عالٍ لأسمعه هذه المرة.

«يجب أن أخضع لجراحة غدًا».

لم أتوقع هذا.

«لدي... لدي صرع، ويجب أن أخضع لجراحة غدًا».

«جراحة؟»

تومئ برأسها. لم تعد تتظاهر الآن.

«أنا لست عبقرية. أنا مريضة صرع. هذا ما أنا عليه».

«أنا لا أعرف معنى هذا»، أعترف بهدوء.

«يعني أنني تأتيني نوبات. كثيرًا. تتملك مخي إثارة شديدة فيخرج عن السيطرة ويتحكم في جسدي. أحيانًا يختلج فمي أو تفعل يداي أشياء غريبة. أحيانًا جسدي كله. يجب أن أتناول أدوية كثيرة تجعلني أشعر أنني أتحرك بالإيقاع البطيء. لا يدعني والداي أفعل أي شيء لأنهما يخافان دائمًا من أن أصاب بنوبة أخرى، وهما محقان. بالطبع ستأتيني. هذا ما يحدث لمرضى الصرع. ويظن الناس أن هذا هو كل ما أفعله».

«لم أر أحدًا يُصاب بنوبات من قبل، لكنكِ بإمكانك فعل أشياء كثيرة».

تتحول عيناها إلى الوردي بحزن لا أفهمه.

«أتعرف ماذا أكره؟»

أنظر إليها.

«أكره حقًا أن يظن الآخرون أنني بلهاء أو أنني سأبتلع لساني أمامهم».

«الناس بُلْهٌ بشدة أحيانًا»، أقول وأنا أفكر في الذين سألوا أمي لماذا لا ترتدي زي الأفغان. تقول إنها ترتدي الملابس التي يرتديها الناس في أفغانستان، لكن الناس يبدون مدهوشين دائمًا.

«في الحقيقة، كثير من الناس تأتيهم نوبات».

«مثل من؟» أسألها بفضول.

«مثل أحد الباباوات، يوليس قيصر، تيكي باربر[4]، ليل وين[5]...»

«ليل وين وتيكي باربر تأتيهما نوبات؟»

تومئ برأسها. حسبت أن تيكي باربر لا يصاب بشيء سوى التواء الكاحل.

«ماكس، كيف توقف النوبة؟»

«بالأدوية. أو من نفسها. لكنه أمر لا يعرفه الجميع. كان جدي يظن أن عليه وضع ملعقة أو عصا في فمي كي لا أبلع لساني. أخبرته أمي أن هذا أشد خطرًا حتى».

«لن أعرف ماذا أفعل لو رأيت أحدًا مصابًا بنوبة»، أعترف لها.

---

(4) لاعب كرة قدم أمريكي.

(5) مغني راب أمريكي.

«لا يوجد الكثير لفعله. أخلِ المساحة حوله وأرقده على جانبه. اطلب مساعدة. لا تضع شيئًا في فمه. هذا هو كل شيء».

«لماذا إذن الجراحة؟»

تطلق ماكس تنهيدة عالية وتدفن وجهها في يديها.

«يريدون استئصال الجزء الذي لا يعمل جيدًا من مخي- الجزء الذي يتسبب في النوبات».

جراحة في مخها؟ أشعر بألم في رأسي لمجرد التفكير في هذا. لا عجب أنها عصبية جدًا. أتمنى وجود أحد معنا، أحد ما يعرف ماذا يقول. كيف أخبرها ألا تخاف وأنا نفسي مرعوب؟ وإن أخبرتها أنني أيضًا مرعوب ألن يزيد هذا الأمر سوءًا؟ ليس لدي ما تحتاج إليه الآن، لكن عليّ قول شيء ما.

«لكنها ستساعدك، صحيح؟ ستصلح الـ..... مشكلة، على ما أظن». أنا خارج نطاق خبرتي حقًا في هذه المحادثة.

تمسح دمعة على خدها بظهر يدها.

«أنا خائفة».

«من ماذا؟»

«ماذا لو... لو لم يأخذوا الجزء الذي يسبب النوبات فحسب؟ ماذا لو أفقت ولم أعد ذكية؟ أو نسيت كل الأشياء المهمة بالنسبة إليّ؟ ماذا لو لم تأتِني نوبة أخرى أبدًا، ماذا لو لم يعجبني هذا؟ ماذا لو أفقت لأجدهم أخذوا مني الجزء الذي يجعلني أنا؟»

«أهذا ممكن؟ إن كان جزء من مخك لا يعمل جيدًا فهو ليس الجزء الذي يجعلك أنت».

لا تقتنع.

«إنهما يظنان أن النوبات كلها سيئة»، تقول، فأفهم أنها تتحدث عن والديها. «لكن أحيانًا تمنحني النوبات أشياء».

«مثل ماذا؟»

«أحيانًا أتذكر أشياء حدثت منذ وقت طويل حقًّا. مثل الصور المعلقة على حائط مطبخ جدتي قبل أن يحترق منزلها. أو البطانية التي كانت تلفني بها أمي حين نجلس حول النار في الفناء الخلفي لنحكي قصصًا. لا أذكر شيئًا مما حدث قبل إتمامي أربع سنوات، لكنني أتذكر أشياء كهذه. وأكثر».

«هذا هو صندوق الكنز الذي كنت تتحدثين عنه»، أقول وقد بدأت أفهم. «أتفضلين إذن الاحتفاظ بالنوبات؟»

تهرش قفاها.

«أفضل الاحتفاظ بالجزء الجيد منها. أحيانًا لا أتناول أدويتي كلها لأنني أريد تلك الذكريات. يظن والداي أن ذكرياتي كلها سيئة لأنني ظللت في المستشفى وقتًا طويلًا، لكنني لا أريد نسيان هذا الوقت أيضًا».

«أيعرف والداكِ أنك لا تتناولين أدويتك كلها؟»

«لا»، تقول بنبرة انتصار خفيفة. «كنت أخبئ الحبوب تحت زهور الجيرانيوم التي أتت بها أمي، ويسعدني أن هذه الزهور لم تأتها نوبة واحدة منذ أن بدأت أفعل هذا».

أضحك. أشعر أنني لم أضحك منذ وقت طويل، وأتساءل إن كنت سأضحك مجددًا يومًا ما. تبتسم ماكس. لكننا نعود جادّين بعد لحظة.

«كنت سأشعر بالرعب أيضًا».

«كنت ستشعر بالرعب؟»

«كنت سأفقد صوابي من الرعب».

تطلق نفسًا عميقًا من بين شفتين مزمومتين وخدين منتفخين. أرى وجهها يلين قليلًا. ظني أنه لا بأس أن أخبرها بالحقيقة. أعرف من الظلال القاتمة حول عينيها أنها لم تنم جيدًا ليلة أمس في الغالب بسبب قعقعة العربات وصفير الأجهزة في طابقنا من المستشفى.

«أنا أيضًا كنت سأشعر بالرعب لو كنت مكانَك»، تقول. «أتمنى من كل قلبي أن تعود أمك».

جاء دوري أنا لأحدق في الأرض. ظللت أبذل جهدًا حقًّا كي لا أفكر في مدى رعبي من أنني قد لا أرى أمي مرة أخرى أبدًا أو لا أجد خالتي سيما.

حينها يُخرِج فأرٌ رأسه المدبب من خلف الكراتين ثم يعاود الاختفاء. نقفز نحن الاثنان ونتراجع خطوة بسرعة، ونضحك على رد فعلنا. ينبح كلب مار ويشد طوقه نحونا. لا يلاحظنا صاحبه، فيمر بالزقاق دون أن يرانا. تحط حمامتان على سلم الحريق أعلى رؤوسنا، تهدلان بهدوء. يذكرانني ببيتي. يهدأ روعي قليلًا. يصلنا صوت المشجعين، لا بد أن دفعة جديدة من العدائين يمرون بالحشود.

«جيسون دي».

«نعم ماكس؟»

ترفع رأسها نحو السماء، يمر شعاع شمس رفيع من بين المباني ويسقط على وجهها. تغمض عينيها ويتحول خداها إلى الوردي تحت وهج الشمس.

«من الأسهل بكثير أن نكون مرعوبين معًا».

الفصل السابع عشر

طارت الحمامتان وظهر الفأر واختفى مجددًا. تخرج ماكس من خلف المكب وتنظر من الزقاق. نحدق في زحام البشر- بحر من المعاطف والسترات، والتلفيحات. تعاود النظر إليّ.

«لم يعد أمامنا الكثير»، تقول، «مدخل حديقة الحيوان في الشارع الرابع والستين. على مسافة كتلة مبانٍ ونصف».

«تبدين كأنك من هنا».

تركل ماكس الرصيف بمرح.

«أنا لا أمزح. نيويورك هي الأروع».

الآن بعد أن رأيت نيويورك، أعرف أنها ليست المكان العنيف الخطِر الذي تظنه أمي. أتمنى أن يمكنني إخبارها بهذا.

«ليت أمي لم تظن أن هذا المكان خطر جدًا».

«أخطر من أفغانستان؟»

«لا أعرف. كل ما أعرفه أنها أحبت بلدتنا حقًا. كانت تخبرني بهذا طوال الوقت. كانت تحب جيراننا وتحب أنها بإمكانها السير إلى أي مكان تريد الذهاب إليه تقريبًا. إلى جانب هذا، توجد جامعة قريبة، وكانت تظن أنني سألتحق بها لدراسة الطب أو الهندسة أو شيء ما من هذا القبيل».

«اختارت لك كليتك بالفعل؟» تسأل مدهوشة.

«نعم»، أقول بابتسامة صغيرة. الآن بعد أن عرفتُ بشأن نوباتها، أشعر بقرب أكبر منها. كأنني لم أعرف قصتها كاملة إلا بمسألة النوبات.

أتذكر كلماتها. لست عبقرية. أنا مريضة صرع. هذا هو أنا.

لا يبدو لي هذا صحيحًا. قد تكون مريضة صرع، لكنها ليست هذا فحسب.

«كيف هي أمك؟» تسألني.

«أمي... حسنًا، إنها أمي». كيف أخبرها عن أمي بكلمات قليلة فحسب؟ «إنها رائعة حتى وهي صارمة جدًا. تحب الغناء مع الراديو مع أنها تردد الكلمات كلها خطأ. تريدني أن أكون أمريكيًا، أمريكيًا حقًا بالفعل، لذلك أحضرت لي وأنا صغير كتاب أغاني أطفال أمريكية لتعلمها لي. لم تتعلم شيئًا من هذا وهي صغيرة لذلك كان غريبًا عليها، خاصة أغنية تنويم الرضيع على غصن شجرة».

«ما الغريب في هذه الأغنية؟»

«ما الغريب في أغنية لتنويم الأطفال عن طفل يسقط بمهده من أعلى شجرة؟ لماذا قد يغني أحد عن هذا لطفل يحاول النوم؟»

«أوه»، تقول، وتبقى شفتاها في دائرة تامة للحظة قبل أن تتحدث مجددًا. «ظني أنها مقلقة قليلًا بالفعل».

مع كل كتلة مبانٍ نمر بها، أعرف عن ماكس شيئًا وتعرف عني شيئًا.

«ماذا في رأيك سيحدث مع أمك؟»

لا يمكنني إجابة هذا السؤال. ظللت أواصل التحرك كي لا أفكر فيه. لكنه موجود بالطبع، التفكير في أنها في طريقها إلى مكان تذكره نشرة الأخبار دائمًا وليس لأسباب جيدة. أتساءل إن

كان الأشرار الذين قضوا على أبي في الماضي سيعرفون بعودتها.

لكن أمي قوية. حين فقدنا أثاثنا في حريق في الشقة، نامت على الأرض، وصنعت لي فراشًا من بطانياتنا كلها. ظلت مستيقظة طوال الليل تقرأ كتبي المدرسية لتساعدني في إنجاز فروضي. هي من علمتني كيف أصلح الصنبور حين يُسرّب، وكانت، قبل أن أتولى أنا تلك المهمة، تستيقظ مبكرًا أيام سقوط الثلج لتزيحه عن سلم البناية الأمامي وتفسح ممرًا إلى الشارع. ويبدو أنها دائمًا ما تستيقظ حين أستيقظ، حتى في منتصف الليل.

«أمي مقاتِلة من نوع ما»، أقول بابتسامة خجلى، لأنني أدركت لتوي أنها هكذا بالفعل. ويجعلني إدراكي لقوتها آمل في أنها ستجد طريقًا لتعود إليّ كما وعدت.

«مقاتِلة!» تردد ماكس مدهوشة. ألاحظ توقفها للحظة، وأعرف أنها تفكر في الكلمة، تزنها. ترددها مرة أخرى، تتعلم منها شيئًا ما عن نفسها، تقول ونحن نمر بكتلة مبانٍ أخرى. «يعجبني هذا. مقاتِلة».

نواصل السير، تتوقف ماكس كل عشر دقائق تقريبًا لتستريح (مع أنها تتظاهر بالنظر في ساعتها أو إعادة ربط حذائها). نبقي رأسينا منخفضين ونسير بإيقاع ثابت، تخبط أقدامنا المتعبة الرصيف بانسجام.

حين أسألها عن الوقت، لا تجيبني. تقف أمام نافذة عرض أحد المحلات.

«ماكس، علينا أن نعبر الشارع مرة أخرى. أأنتِ بخير؟»

حين لا تجيبني، أتوتر. ماذا سنأفعل لو أتتها النوبة؟

«آسفة، شردتُ قليلًا فحسب». يبدو أنها رأت الرعب على وجهي، لأنها تحاول طمأنتي. «أنا بخير حقًّا يا جيسون دي».

نعبر الشارع. حين نصل إلى الرصيف الآخر، تشير ماكس إلى مجموعة من الأشجار على الطرف الآخر من الجادة.

«أترى هذا؟» تسألني وهي تنظر إليّ.

«إنه السنترال بارك»، أهمس. نبدو كأننا وصلنا إلى محيط.

كنت قد ظننتُ حتى الآن أن مدينة نيويورك ليست سوى مبانٍ طويلة وشوارع مزدحمة. لكن ما أراه الآن ليس له أدنى علاقة بهذا. نقف عند حافة المتنزّه، أراه عالمًا داخل عالم. تحده أسوار من الأشجار. لا يمكنني رؤية ما خلفها، حتى بعد أن عبرنا الشارع.

أمام الأشجار، كأنه يحرس مدخل المتنزه، تمثال ذهبي كبير على قاعدة أسمنتية طويلة. أطرف بعيني في مواجهة الشمس. إنه تمثال لرجل يمتطي حصانًا بظهر مستقيم ووجه صارم. تنتفخ عباءته خلفه بسبب رياح لا مرئية. تتقدمه امرأة بوجه حجري، ذراعها اليمنى مرفوعة نحو السماء وفي يدها اليسرى ريشة بطول جذعها كله. على رأسها إكليل ولها جناحان ملائكيان رشيقان.

«يبدو حقيقيًا جدًا»، أهمس. يمكنني رؤية ثقبي أنف الحصان يختلجان تقريبًا.

ماكس ليست منبهرة مثلي لكنها تبطئ سيرها وأنا أدقق النظر في التمثال. مع أنه من المعدن، لكن قوائم الحصان تبدو مفتولة العضلات وحيوية. ترتدي المرأة ثوبًا واسعًا. تبدو كملاك أو آلهة من أسطورة ما.

«لا يمكننا التسكع هنا يا جيسون دي».

القائم الأمامي للحصان الثابت منحنيًا كأنه على وشك الانطلاق. عنقه سميك جدًا إلى حد أنني لن يمكنني إحاطته بذراعيّ الاثنتين. كيف سأشعر إن امتطيت صهوة هذا الحيوان القويّ؟ أتخيل نفسي على ظهره برأسي مرفوع والملاك الحارس يشير لي أن أتقدم إلى الأمام.

«النصر»، تقول ماكس حين ترى افتتاني.

أنظر إليها.

«ماذا؟»

«إنها ملاك النصر. هذا ما تقوله اللوحة». تنظر خلفها بسرعة، فأتتبع نظرتها. يعبر خمسة أشخاص الشارع. يتحدث بعضهم مع بعض وتنظر إحداهم إلينا، فيعبّر وجهها تعبيرًا فضوليًا.

هل رأوا مُنبه الأطفال المفقودين؟ ماكس محقة. علينا مواصلة السير.

نعبر الميدان بسرعة ونختفي في الحديقة الخضراء. تخبو أصوات البشر والسيارات. يتكسر العشب الجاف تحت أحذيتنا الرياضية، ويحرك نسيم خفيف أوراق الأشجار العالية.

«ماكس»، يذكرني التمثال بأحجية. «يصل راعي بقر إلى البلدة على جمعة. بعد ذلك بيومين يخرج منها على جمعة أيضًا».

«أحجية- الآن؟»

أومئ برأسي.

«حسنًا إذن. بعد ذلك بيومين... وما زال على جمعة». تجعلني أكرر الأحجية وترفض أن أخبرها بالحل. حين أظنها ستستسلم، تتوقف عن سيرها وتشير إليّ.

«اسم الحصان جمعة!»

أسمع صوت حركة من أجمة إلى يساري، فتسرع دقات قلبي وأنا أخمن ماذا قد يكون. أرى ذيلًا رماديًا منفوشًا ويختفي قبل أن أعرف ما هو. تواصل ماكس السير لتصعد بنشاط تلة واطئة مرصعة بالأشجار. نواصل السير نحو بحيرة لامعة على الجانب الآخر.

ندخل حكاية عن غابة. أهي غابة مسحورة أم مسكونة، ما زلت لا أعرف.

الفصل الثامن عشر

تسير ماكس إلى حافة البحيرة وتقتعد مجموعة حجارة. تضع حقيبتها بجانبها وتجلس متربعة. لا يوجد حولنا أحد، فأفعل مثلها. تلمع صفحة الماء بلون أخضر ذهبي من انعكاس الأشجار المحيطة. تبدو البطات الثلاث البريات كأنها تتزلق في لوحة مرسومة للمياه.

«أتظن أنك ستعود إلى بيتك يومًا ما؟» تسألني. تنظر إلى المياه كأنها تسأل البطات.

«لا أعرف»، أجيبها. «يومًا ما ربما، إن عادت أمي».

«يوجد خلف بيتنا مساحة محاطة بسور خشبي فيها بئر وبحيرة. تبدو كأنها غابة خاصة. اعتدت أن أُلقي في البئر بعملات وأتمنى أمنيات. ويوجد هناك مجموعة أشجار تشكل معًا دائرة تكفي لأجلس وسطها وأمدد ساقي. أعرف أن هذا يبدو جنونًا، لكنني أجلس هناك لساعات. ليس هناك جدران ولا أي شيء فخم، لكنه يبدو كأنه آمن مكان في العالم.

يذكرني هذا على نحو ما بشعوري حين أصعد إلى سطح بيتنا. وتذكرني البئر التي تحدثت عنها بأحجية أخرى.

«ما الذي يذهب بابتسامة واسعة ويعود بدموعه تسيل؟»

تنظر إليّ، بابتسامة خفيفة. بعد دقيقة، ترفع كتفيها وتنتظر الحل.

«الدلو في البئر».

«أه، هذه جيدة»، تقول. لا أعرف هل تتخيل دلوًا فارغة تسقط في البئر المظلمة وتعود والمياه تتسال من جانبيها كالدموع أم لا.

«ماذا تفعلين وأنتِ جالسة في دائرة الأشجار؟»

«أتعد أنك لن تضحك؟»

«هيا يا ماكس».

تبتسم وتجيبني. تعرف الآن أنني لن أضحك على أي شيء تفعله.

«أحيانًا أتظاهر أنه السنترال بارك حقًا، وأنني هناك في منتصف مدينة نيويورك. أحيانًا أذهب لأقرأ فحسب. في الرابع من يوليو توجد ألعاب نارية عند البحيرة. في الغالب لا يدعني والداي أراقبها لأنهما يخافان أن يحفز وميض الأضواء نوبة، لكنهما العام الماضي تركاني أجرب. أخذت بطانية وذهبت إلى هناك وشاهدت الألوان تُضيء في السماء».

أتخيلها وهي تريح رأسها على يديها المشبوكتين، تتطلع إلى سماء الليل وترى الألعاب النارية لأول مرة. دائمًا ما كنا نراقب أنا وأمي الألعاب النارية من فوق سطح بيتنا ومعنا مِس راز وجيراننا الآخرين. لم يكن ليفوتني الكثير لو لم أنضم إليهم.

«الآن وأنتِ في السنترال بارك، أتشعرين أنه مثل دائرة الأشجار تلك هناك عند بيتك؟»

«لا شيء مثل البيت».

أعرف ما تعنيه. تنظر إلى يديها. ظللت أتساءل بيني وبين نفسي لكنني لم أجرؤ على سؤالها حتى الآن.

«ماذا حدث ليديكِ يا ماكس؟»

تقلب يديها وتضغطهما معًا.

«كنت أخشى أن أنسى الطريق إلى دائرة أشجاري. لذلك، في اليوم السابق لذهابنا إلى المستشفى، أخذت سكين أبي الصغيرة ونقشت أسهما صغيرة على الأشجار ليمكنني تذكرها. ثم شعرت بسوء لأنني جرحتها بالسكين. لا شيء من هذا خطؤها. اضطرّ والداي إلى انتزاعي من عند شجرة، لم أرغب في تركها».

تُكوِّر يديها في قبضتين.

«لم تستطع ماما إخراج جميع الكسرات، لكن الأطباء في المستشفى أخرجوها».

«أتظنين حقًّا أنك قد تنسين الطريق إلى مكانك المفضل؟»

ترفع كتفيها. «لم أرغب في المخاطرة». تقول ببساطة.

لقد تركتُ أمي بسهولة شديدة. لماذا لم أقاتل مثلما فعلت ماكس؟

«ماذا عنكَ أنت؟ ما هو مكانك المفضل؟»

لم أفكر في مكاني المفضل من قبل. أحب الجلوس على السطح مع طيور الحمام. أحب العودة إلى البيت بعد المدرسة. وأحيانًا إلى المغسلة عند أمي. ثم هناك المتنزه الذي نذهب إليه، بكيس ورقي مليء ببطاطس أمي المبهرة في خبز ملفوف وزجاجتي عصير. كل أماكني المفضلة قريبة من بيتي، ولا يمكنني العودة إلى أي منها.

«ما زلت لم أحدده بعد، على ما أظن».

يقفز سنجاب على شجرة قريبة من فرع إلى آخر بمرح. يتوقف وتتقابل أعيننا للحظة. يهبط إلى الأرض. أسمع خشخشة

سريعة، ويختفي في اللحاف الثقيل من أوراق الشجر الذي يغطي الأرض.

«لا أظن أنني كنت سأخبر أيًا من أصدقائي هناك بكل هذا»، أُخبرها بخجل. تفهم أنني أقصد ما حدث لأمي. «حتى حين عرفتُ بشأن أوراقها، لم أرغب في إخبار أحد. بدا كأن هذا سيغير كل شيء».

تومئ برأسها.

«اعتادت معلمتنا في الصف الثاني التنبيه على الأطفال أن يعاملونني بشكل جيد لأنني فتاة شجاعة وخاصة- كأنني لا أعرف ماذا تعني بخاصة. كنت مشهورة شهرة الفرض المنزلي الإضافي ذاك العام. لكنني أصلحت تلك المشكلة.

«كيف؟»

تضحك للذكرى.

«أحضرت مرطبانًا مليئًا بالعناكب الحية، ومرطبانًا آخر مليئًا بالديدان. ثقبت الغطاءين لتتنفس بالطبع. ثم قبل بدء الحصة، ألصقت المرطبانين بدكتي بلاصق قوي. فوجئتِ المعلمة بشدة. حاولت أن تظل هادئة وهي تسألني لماذا أحضرت معي عناكب وديدان، لكن صوتها كان رفيعًا كصوت الفأر. أخبرتها أن هذا ما يفعله الأطفال الشجعان الخاصّون».

« أفعلتِ هذا حقًا؟»

تومئ برأسها وترفع يدها كأنها تُقسِم.

«اسألها بنفسك إن قابلتها في أي وقت، اسمها مِس كابلان».

«لا أظن أن الشجاعة أمر سيئ». أقول. «لكنني أظن أن كونك شجاعة يعني حدوث شيء ما سيئ».

لم تقلْ شيئًا بعد هذا، تخرج دفترها من الحقيبة وتبحث عن قلمها.

أنظر إلى المياه وطيور البط. أشاهد حركة أوراق الشجر مع النسيم والظلال المهولة التي تلقيها جذوع الأشجار. الشمس في كبد السماء، ما يخبرني أن الوقت يمر بسرعة. علينا أن نواصل السير.

تغلق ماكس سحاب الحقيبة كأنها شعرت بما أفكر فيه، اختفى دفترها. تنهض واقفة. أميل برأسي إلى الخلف وأنظر إليها. تقف أمام الشمس الساطعة، أرى رسمًا ظليًا لها فحسب. تبدو طويلة وشجاعة وقوية. أريد أن أخبرها بهذا لكنني أعرف أنها لا تريد سماع هذا الآن.

بدلًا من ذلك، أقف أنا أيضًا ونواصل سيرنا مجددًا. نظل قريبين من الأشجار، نعرف أن جذوعها ستخفينا عن العالم. أكدت ماكس من قبل أن حديقة الحيوان قريبة.

«أنت محقة يا ماكس!»

نرى مدخلًا حجريًا مكونًا من ثلاثة أقواس. في منتصفه برج ساعة مستديرة. الوقت منتصف الظهيرة بالفعل. بمرور كل دقيقة، نتورط أنا وماكس في مشكلات تنمو تدريجيًا.

يدفع الآباء عربات صغارهم. يسير مراهقون في مجموعات. قطعة صغيرة من ملايين البشر في مدينة نيويورك هنا اليوم. أمر غريب رؤية زحام الآن. لست متأكدًا إن كان بإمكاننا الاختفاء وسطهم أم أنهم سيلاحظوننا.

عينا ماكس واسعتان ولامعتان، قريبة جدًا من تحقيق أمنيتها البسيطة لتفكر في سير الأمور على نحو سيئ الآن. رغم كل ما حدث لي منذ يوم الجمعة، ما زلت أشعر بسعادة من أجلها لأنها وصلت إلى هنا. على الأقل سيمكنها زيارة حديقة الحيوان قبل العملية الجراحية.

«أوه هوه»، أقول محبطًا. فنتوقف ماكس فورًا. رأينا لتونا شباك التذاكر.

«أتظن أن التذاكر مجانية؟» تسألني.

«لا توجد تذاكر مجانية عادة»، أقول ببطء. أكره التفكير في أننا قد لا نتجاوز هذه النقطة، لكننا ليس لدينا سوى ستة عشر دولارًا فقط في حقيبة ماكس. أنفقت نقودي كلها تقريبًا مقابل تذكرة القطار إلى المدينة.

تمد ماكس عنقها وتشب على أطرافها لترى حديقة الحيوان من خلف السور والأشجار. تعض شفتيها وتنظر حولها. لا يمكننا الوقوف في الخارج هنا، تفكر. لا نرى حولنا ماكينات لبيع التذاكر، لذلك أتوجه مباشرة إلى شباك التذاكر..

«أين ستذهب جيسون دي؟»، تصيح ماكس.

«مرحبا، هل التذاكر مجانية للأطفال؟ كنت أنا وصديقتي نتساءل.

«صديقتك»، يكرر وهو يبحث خلفي.

«صديقتي»، أقول وأشير نحو ماكس.

«كم عمر كل منكما؟» يسألني الرجل. تتعرق راحتاي. لماذا يسأل؟ أرى حينها لافتة بجوار شباك التذاكر. تختلف أسعار

التذاكر حسب الأعمار. تذكرة الأطفال بثلاثة عشر دولارًا. أقل ثمنًا من تذكرة الكبار لكنها بعيدة تمامًا عن كونها مجانية.

«نحن طفلان»، أقول بصوتي الأكبر سنًا.

«التذاكر المجانية للأطفال دون العامين فقط»، يقول. تعبر وجهه نظرة الاهتمام نفسها التي نظر بها إلينا الرجل صاحب الكلبين والدكتورة شاباني في الماراثون. ربما أتصرف بارتباك شديد.

«حسنًا، هذا منطقي. لم أر رضيعًا يحمل مبلغًا كهذا من قبل»، أقول بابتسامة طبيعية.

«لا أظن هذا»، يجيبني بابتسامة معتدلة. «أيوجد معكما كبار؟»

أنا من ورطت نفسي في هذه المشكلة. عليّ أن أخرج منها.

«طبعًا، والداي... والداي هنا معنا».

لماذا قلت ذلك؟

«عظيم. لماذا لا يأتيان ويشتريان لكما التذاكر إذن؟»

أومئ برأسي، أنظر إليه بشيء ما يشبه الابتسامة قبل أن أستدير وأبتعد. عيناي مغرورقتان.

والداي هنا معي.

لم أنطق بهذه الكلمات من قبل. تركتْ مذاقًا غريبًا في فمي- بعضه حلو وبعضه مرير.

«هل حصلت على تذاكر؟» تسألني ماكس بحماس. أتنحنح وأطرف بعيني محاولًا حبس دموعي.

«لا»، أقول. صوتي حلقيّ وغريب. «نحتاج إلى شخص كبير معنا».

«ما الأمر؟» تضع يدها على ساعدي.

«لا شيء». أبتعد، لا أريد أن يلمسني أحد.

«جيسون دي، يمكنك التحدث معي. أتذكر؟»

أذكر بالفعل، لكنني لا يمكنني هذا الآن. أخشى مما قد يحدث لو تركت نفسي أفكر في هذا كثيرًا. كان سيئًا بما يكفي العيشُ مع صورة فوتوغرافية لأبي. الآن ليس لدي أحد من والديّ. نقف إلى جانب أحد الأقواس الثلاثة، ظهرانا لتيار دخول الناس.

«جيسون دي، لا يمكنك الاستسلام الآن»، تقول ماكس برقة. «ستصل إلى بيت خالتك، وأراهن أن أمك قد اتصلت بها بالفعل لتسأل عنك».

أُطلق نفسًا عميقًا وأومئ برأسي، أحاول تجاهل الشعور الثقيل في صدري. ربما كانت جولة في حديقة الحيوان هي ما أحتاج إليه بالفعل.

«نحن في حاجة إلى تذاكر. وهي ليست مجانية. بل بثلاثة عشر دولارًا للتذكرة الواحدة، وليس لدينا سوى ستة عشر دولارًا».

«ظني أن لدي فكرة». تقول وعيناها على مجموعة من الكبار والأطفال يرتدون تيشيرتات خضراء ويقفون عند المدخل. يوجد نحو خمسين طفلًا، في المرحلة الإعدادية على ما أظن، وأربعة أشخاص كبار. منهم واحدة تتحدث على هاتفها الجوال، ورجل وامرأة يتحدثان أحدهما مع الآخر. وتلوح الأخيرة تلوح بإصبعها في الهواء، وهي تعدّ الرؤوس الكثيرة أمامها.

تفتح ماكس حقيبتها وتخرج النقود من محفظة على شكل بومة.

«تعال معي»، تقول وتسير بسرعة. حديقة الحيوان قريبة من حافة السنترال بارك، لذلك نعود خلال دقائق إلى الجادة الواسعة. تسير ماكس نحو كشك يبيع تيشيرتات وتذكارات. يومئ لها الرجل الأسمر الجالس بداخله.

«كم ثمن تيشيرت تمثال الحرية الأخضر من فضلك؟» تسأله بثقة.

«خمسة عشر دولارًا»، يجيبها الرجل. ألاحظ أنه يرحب بالتعامل معنا أكثر من الرجل الجالس في شباك التذاكر.

«ماكس، هكذا لن يتبق معنا سوى دولار واحد!» أذكرها، لكنها تتجاهلني.

«سآخذه. ولا أريد كيسًا».

ما إن تدير ظهرها للكشك، تقلب القميص داخله خارجه. يختفي تمثال الحرية وترتدي ماكس التيشيرت على سترتها. الآن نحن الاثنان نرتدي الأخضر.

«أسرِع»، تقول وتهرول نحو مدخل حديقة الحيوان. حين نعود، أرى الطلبة ذوي التيشيرتات الخضراء يستعدون للدخول من بوابة جانبية. ظني أنهم لم يعبروا الأبواب الدوّارة لأن عددهم كبير.

«ابق قريبًا!» تقول لي ماكس فأتبعها. نتلكأ قليلًا خلفهم ثم ندفع بنفسينا وسطهم، لا ننضم من الخلف كي لا نلفت الأنظار، بل من الجانب لنُحاط بهم بسرعة. يصيح المرافقون الكبار بالتعليمات، فيما يثرثر الطلبة. يتحدثون جميعًا لغة لا نفهمها.

ندخل الحديقة، وتنغلق خلفنا بوابة سوداء عالية. يتفرق الطلبة هنا وهناك، نقف أنا وماكس جانبًا. حين يتجمع الكبار حول خريطة الحديقة، نتركهم ونبتعد.

«ليست فكرة سيئة. صحيح؟» تسأل ماكس بابتسامة. تخلع التيشيرت الأخضر، تطويه، وتدسه في حقيبتها.

أبتسم رغما عني، وعن الشعور الثقيل في صدري.

نسير في ممر إلى حمام سباحة كبير محاط بالزجاج وفي منتصفه جزيرة. أرى خلف الزجاج ثلاثة من أسود البحر تدور حول صخور الجزيرة، أطرافها ممدودة وأنوفها مرفوعة. يضغط الأطفال الصغار وجوههم بالزجاج، على مسافة عدة أقدام من حمام السباحة. يتناثر رذاذ الماء وأحد أسود البحر يندفع من السطح ويحط على صخرة مستوية. جسده أملس ولامع كالزجاج المصقول. حين يهز شاربه يمينًا ويسارًا، أضحك.

أنظر إلى ماكس فأرى ابتسامة رفيعة وعينين متعبتين.

«لنذهب من هذا الاتجاه»، تقول وتشير بعينيها إلى ممر إلى يسارنا.

حولنا أطفال كثيرون. أتساءل إن كنا نبدو لهم طبيعيين، كأن لا شيء بنا شجاع أو خاصّ.

«بالداخل هنا»، تهمس. ندخل مبنى طويلًا فنجد أنفسنا فجأة في غابة استوائية بأشجار الزان ونباتات ذات أوراق عريضة. أوراق أكبر حجمًا من رأسي لم أر مثلها من قبل. نسير على لوح خشبي عريض، من النوع الذي قد يربط بين بيتي شجرة. يحط ببغاء بألوان زاهية على أحد الأغصان ويبسط جناحيه. يميل طير ذو ريش أزرق لامع برأسه بفضول ونحن نمر به. أرى حِبالًا فأتخيل طرزان يتأرجح بها ليعبر تلك الغابة الصغيرة بحركة واحدة.

نسير على اللوح العريض ونرى سلمًا يؤدي إلى أعماق تلك الغابة الاستوائية الوارفة. أقرأ، على المستوى العمودي لدرجات السلم، كلمات تكوّن جملة، أتذكر، ببطء، سطرًا من قصة قرأتها في المكتبة، عن ولد تسبب في مشكلات فأُرسِل إلى غرفته دون أن يتناول العشاء. الكلمات مكتوبة بطلاء أبيض يذكرني بالمخلوقات الظلية التي كانت تشكلها أمي بيديها على جدران غرفة نومنا ليلًا.

نصعد السلم، القصة عند أقدامنا. تبدو هذه الغابة مثل تلك التي تنمو من أعمدة الفراش وورق الحائط تمامًا. أشعر أني دخلت عالمًا خياليًّا.

تتوقف ماكس فجأة. تضع إصبعًا على شفتيها ثم تشير إلى ظلة أعلانا. يستغرقني الأمر لحظة لأرى ما استوقفها، لكنني أراه. يجلس طاووس أمام طائر أصفر كالشمس. أرى من خلف لوح زجاجي ثعبانًا أخضرَ لامعًا ملتفًّا حول فرع شجرة. ظهره القشريّ مخطط بعلامات بيضاء تبدو كملصق إنذار. يقشعر بدني، وأشعر بارتياح حين نخرج مجددًا.

«الثعابين تخيفني حقًّا»، تعترف ماكس.

«لكنك لا تخافي من العناكب والديدان؟» أسألها.

«عذرًا؟ إنها مختلفة تمامًا»، تؤكد وهي تبدو مُهانة تقريبًا.

ندخل إقليمًا معتدلًا. ألاحظ أن ماكس عليها مضاعفة خطواتها من حين إلى آخر لتلحق بي، فأُبطئ سيري. ألاحظ حينها حيوانًا لم أره من قبل. يرقد على فرع شجرة بوجه ثعلب ومخلبي دب. ينام، رأسه مرتاح على الفرع، وذيله المدور المنفوش يتدلى أسفله.

«ما هذا؟»

«أوه، لقد قرأت عنه. هذه، يا صاحبي، هي الباندا الحمراء الأسطورية»، تعلن ماكس ويداها في خصرها. أتخيلها كعالمة أحياء عظيمة متخصصة في الحياة البرية - من النوع الذي يعد برامج أطفال شائقة في التلفاز، «لا يجب الخلط بينها وبين باندا الكونغ فو أو الباندا التي تتخيلها في ذهنك. إنها لا تأكل سوى أغصان الزان الحديثة الطرية، وبعض الحشرات والفاكهة».

حديقة الحيوان مليئة بالأشجار الطويلة، أوراقها بألوان الغروب. خلف قمم الأشجار، يلوح إطار ناطحات السحاب في السماء. كلاهما باهرٌ حقًا.

نصل إلى قرود الثلج. يجلس قردان على صخرة مشرفة على بحيرة. تتلامس ركبتاهما كما يفعل الأطفال.

«انظُر إلى هذين. أتعرف أن لديهم عواطف وعلاقات تمامًا مثل-»

تتوقف عن الكلام. حيث ظننتُ أن هناك قردين فقط، أرى الآن ثلاثة. الثالث صغير، ويتعلق بصدر أمه. يستدير لينظر من أعلى كتفه، ويبرز وجهه الجلدي الأحمر ضد فرائه الداكن. يميل الأب برأسه ليقترب أكثر من أسرته. تتثاءب الأم، فتكشف عن أسنانها الصفراء ثم تميل برأسها إلى صغيرها الذي على صدرها.

تظاهرنا أنا وماكس كثيرًا جدًا اليوم. تظاهرنا أننا نجمع تبرعات. وأن والدينا خلفنا مباشرة. وأننا قويان وشجاعان وطبيعيان.

لكننا لا يُمكننا، رغم جهودنا في المحاولة، أن نتظاهر بأن شيئًا ما بداخلنا لا يتفجر من الغضب والألم ونحن نرى قردة الثلج الثلاثة تلك تبدو راضية تمامًا بجلوسها معًا كأسرة.

الفصل التاسع عشر

تقرر ماكس أنها اكتفت من حديقة الحيوان. حان وقت العودة إلى مهمتنا الأصلية. نتجه نحو أحد المخارج، ووسط جموع الآباء والأطفال في ممرات الحديقة، لا يلحظ أحد طفلين يغادران بوجهين واجمين.

«البر العلوي من هذا الاتجاه»، تقول ماكس. «مسافة تسعة شوارع فقط من هنا إلى الشارع الرابع والسبعين، ثم سيكون علينا أن نجد البناية الصحيحة حينها».

نظل داخل المتنزّه مباشرة، نسير بالقرب من الأجمات والشجيرات. تتحرك ماكس بإيقاع أبطأ الآن. لا بد أنها جائعة حقًّا. أنا كذلك. لكن الدولار المتبقي لدينا لن يأتينا بشيء.

تمد يدها في الجيب الأمامي لحقيبتها وتخرج هاتفها الخلوي. تضغط زرًا جانبيًا وأرى الشاشة تضيء.

«ماذا تفعلين؟»

«أريد أن أرى إن كان لدي أي رسائل».

توجد سبع عشرة رسالة.

تبدأ الاستماع إليها ونحن نسير. عيناها في الأرض، لكنني أرى جانب وجهها. تعض شفتيها وتضغط زرًا للاستماع إلى الرسالة التالية. أسمع صوت أمها وأميز عدة عبارات جزعة. *سيجن جنوني، أرجوكِ أرجوكِ أرجوكِ اتصلي بي، ماكسي. أريد أن أطمئن أنكِ بخير. اتصلي بي أو اتصلي بوالدك، لكن أرجوك اتصلي بنا.*

في الرسالة الأخيرة، لا شيء سوى «نحن نحبك». تتردد وسط البكاء، فأشعر بالحزن لوالدتها، القلقة عليها حقًّا.

«يجب أن تتصلي بها»، أقول بهدوء. أحدق في الأرض أنا أيضًا، لأنني أعلن لها أن مغامرتها قد انتهت. ليس شيئًا سهلًا لقوله، لكننا قطعنا معًا طريقًا طويلًا، وأشعر أن بإمكاني قول هذا.

«أعرف»، تهمس وتضع الهاتف في جيبها. تحاول بجهد أن تمنع نفسها من البكاء، لكنه ليس سهلًا. جعلني صوت أمها على حافة البكاء أنا الآخر. تفرك وجهها بيديها الاثنتين وتشيح به عني.

«أخبريها أنكِ بخير وأننا بالقرب من الفندق».

«سأتصل بها خلال دقائق»، تقول بعزم، «بعد أن نجد بناية خالتك. حينها لن تكون في حاجة إليّ».

بقدر ما أريد إيجاد خالتي سيما، جزء مني لا يريد توديع ماكس. أتساءل إن كنت سأراها مجددًا يومًا ما. نتوقف قبل أن نغادر المتنزه ونعبر إلى الرصيف. نودع الأشجار والتلال التي صارت صديقاتنا، ساعدتنا على البقاء بعيدًا عن أنظار ملايين الأعين في المدينة.

والمتنزه خلفنا. نبدأ السير في الشارع الرابع والسبعين. أنظر إلى البنايات، أحاول تمييز بناية تشبه التي كانت في الصورة. أرى سلالم الحريق ونوافذ كبيرة لا تشبه الصورة في شيء.

نمر بثلاث بنايات. ثم الرابعة. حين نصل إلى الخامسة، أشك أننا في الشارع الصحيح. كان هذا هو العنوان الذي انتزعته من فوق صندوق الحذاء، أين البناية إذن؟

«جيسون دي، أليست واحدة منها؟»

«لا أظن ذلك».

تفرك جبينها وأنا أنظر حولي.

«لا. لا، لا واحدة منها بالتأكيد».

«هل نواصل إلى البناية التالية؟»

إنه الشارع الصحيح. توجد في الركن لافتة خضراء مكتوب عليها الشارع الرابع والسبعون. أمنع نفسي من الصياح باسم خالتي سيما لأرى إن كانت ستظهر من إحدى النوافذ.

«لا أعرف يا ماكس. الأمر لا يسير كما خططنا». صوتي يرتعش.

تسير بجانبي.

«يجب أن تظل هادئًا يا جيسون دي». تركل قدمها في الهواء ونحن نسير وتصدر إنذارًا هادئًا بصوت غِنائي «الـ/ناس/ ينـ/ ظر/ون».

«لا واحدة».

«أتريد أن نتوقف؟» تقترح، لكنني أهز رأسي. لا بد أن خالتي سيما هنا في مكان ما. بعد ذلك بخمس عشرة دقيقة، ننظر إلى طريق مزدحمة. يوجد جموع من البشر. بعضهم يحمل لافتات. نسمع هتافًا وتشجيعًا وأصواتًا يبدو أنها من مكبرات صوت بعيدة.

«مستحيل»، تقول ماكس بألم.

«إنهم هنا»، أقول غير مصدق. ما زالوا يركضون. قل تيار العدائين كثيرا عمّا كان عليه في الصباح، لكن هؤلاء ما زالوا

يواصلون، تضرب أقدامهم الأسفلت وتلمع جباههم بحبات العرق.

خلف العدائين، أرى صفحة ماء. ما يخبرني بشيء آخر. لقد سرنا حتى نهاية الشارع دون أن أرى بناية خالتي سيما.

«ماكس؟»

«نعم؟»

«أيمكننا الجلوس لدقيقة فحسب؟»

«نعم»، كانت تبدو متعبة ونحن في الحديقة، لكنني الآن في حاجة إلى هذه الاستراحة أكثر منها.

نجلس تحت ظلة انتظار الباص.

«انتهى الأمر. أنا آسف على تضييع وقتك يا ماكس». ليتني دسست قطعة الكرتون المكتوب عليها العنوان في جيبي بدلًا من جيب الحقيبة. ماذا لو كنت لا أتذكرها بشكل صحيح؟

«أنت لم تضيع وقتي يا جيسون دي».

أبتلع ريقي بصعوبة.

تخرج دفترها وقلمها. لا أشعر برغبة في التحدث، فأدعها تكتب وأدير ظهري لها كي لا ترى وجهي. سار كل شيء على نحو خاطئ جدًّا، ولا أعرف ما خطوتي التالية أو إن كان لدي خطوة تالية حتى.

أحدق في الأسمنت.

تمر بنا السيارات، تصدر أبواقها بعشوائية تقريبًا. تمر بنا الدراجات بأزيزها. أرى رجلًا يدفع عربة يد محملة بأكياس مليئة بزجاجات بلاستيكية فارغة. يرتدي معطفًا رثًّا يبدو كلحاف قديم.

أنظر نحو العدائين وأرى خلفهم قاطرة بحرية تطفو على

سطح الماء بهدوء، فتذكرني بأحجية أخبرني بها مستر فازيو عن قارب. كيف كانت؟ ظني أنها كانت عن بحارين يقفان على طرفي سفينة.

ثم أتذكر بقيتها.

بحاران يقفان على طرفي سفينة. ينظر أحدهما شرقًا وينظر الآخر غربًا. يمكنهما رؤية أحدهما الآخر بوضوح. كيف هذا؟

استغرقت مني هذه عدة دقائق. ظن مستر فازيو أنه هزمني. فتح جريدته ليعاود القراءة لكنني أمسكتُ طرف الجريدة العلوي وجذبته إلى أسفل لأنظر في عينيه مباشرة وأنا أخبره بالحل.

البحاران ينظران أحدهما إلى الآخر.

أفكر في هذه الأحجية الآن فتخطر لي فكرة أخرى ببطء.

«ماكس».

«نعم».

«نحن على الجانب الشرقي من السنترال بارك».

«أوه، نعم، ظني هذا».

«ماذا على الجانب الآخر من المتنزه إذن؟»

«لست متأكدة، متحف، على ما أظن. ومزيد من البنايات».

أنهض واقفًا.

«إنه الجانب الغربي يا ماكس. أراهن أن الشارع الرابع والسبعين يمتد إلى الجانب الغربي من المتنزه. لا بد أن شقة خالتي سيما هناك!»

تنهض هي الأخرى. ربما تخجل لأنها، الخبيرة في مدينة نيويورك، فاتها هذا.

«أنت عبقري يا جيسون دي»، تقول بمرح.

أريد أن أصدقها، لكن صوتًا صغيرًا بداخلي يتساءل إن كنت محقًا.

نسير كتفًا إلى كتف بنشاط.

إن كنت محقًا، فليس علينا سوى عبور المتنزه في خط مستقيم لنخرج إلى امتداد الشارع الرابع والسبعين على الجانب الآخر منه. ضيعنا بعض الوقت على هذا الجانب من الجزيرة، لكننا سنعوضه الآن.

تمر بنا سيارات الأجرة الصفراء فننظر إليها بيأس، نتمنى لو كان بإمكاننا القفز داخل واحدة منها لننظر إلى البنايات ونحن مرتاحان في مقعدها الخلفي. أُبقي عيني على المباني لأتأكد أنني لم يفتني بيت خالتي سيما. لا شيء يشبه الصورة.

«نحن في المتنزه مجددًا تقريبًا. أتذكر رؤية هذا الباب الأخضر بعد أن غادرنا حديقة الحيوان».

لم أحظ بصديقة مثل ماكس من قبل. صديقة تحاول جعلي أشعر بشكل أفضل حتى وإن كانت هي الأخرى في حاجة إلى تشجيع.

«أخبريني فقط حين تريدين أخذ استراحة أو-»

تتقدم خطوة إلى الأمام كأنها تثبت لي أنها بخير تمامًا.

أنظر إليها. أرى فتاة في طولي. كتفاها مفرودان وتمسك بيديها حزام حقيبتها. يبرز شعرها كذيل الأرنب من فتحة قبعتها الخلفية ويتأرجح مع كل خطوة لها. لا أرى تعبير وجهها، لكنني أستطيع تخمينه الآن. شفتاها مضغوطتان في خط حاد والعينان

تنظـران إلـى الأمـام مباشـرة. أحـب هـذا فيهـا- تبتسـم فقـط حيـن يوجـد شـيء مـا لتبتسـم لـه.

هـل سـتغير عمليتهـا الجراحيـة شـيئًا مـا فيهـا حقًّـا كمـا تظـن هـي؟

لا أريدهـا أن تتغيـر. ولا أظـن أن والديهـا يريـدان هـذا أيضًـا. أتذكـر الجـزع فـي صـوت أمهـا. لا يمكننـي تركهـا تسـير معـي إلـى أبعـد مـن هـذا، حتـى وإن كنـت خائفًـا مـن السـير وحـدي.

«ماكس، سنقترب مـن فندق والديـك سـريعًا»، أبادرهـا. «يمكننـي عبـور المتنـزه وحـدي».

لا تجيبني.

أراهـا علـى خلفيـة مـن الخضـرة. قطعنـا مسـافة جادتيـن مـن المتنـزه ونقتـرب مـن تقاطـع الطـرق التالـي. ينزلـق حـزام حقيبتهـا عـن كتفيهـا المتهدلتيـن قليـلًا.

«دعينـي أحمـل عنـكِ الحقيبـة»، أعـرض عليهـا وأُمسـك بالحقيبـة لأسـاعدها علـى نزعهـا. حينهـا أراهـا تميـل برأسـها قليـلًا إلى اليسـار وركبتاهـا تتخبطـان.

«ماكس!»

أميـل إليهـا وأحيـط جذعهـا بذراعـيّ بشـكل عفـوي. نسـقط علـى الأرض معًـا، تسـقط بجانبهـا علـيّ وأسـقط أنـا بجانبـي الأيسـر علـى الأرض. لحسـن الحـظ يمتـص ذراعـي سـقوطها، فـلا يرتطـم رأسـها بالرصيـف.

أنهض بصعوبة وأجلس بركبتيّ على الأرض بجانبها.

«ماكس، أأنت بخير؟» أصيح.

أرى بوضوح أنها ليست كذلك.

ذراعاها وساقاها يرتعشان، تطرف أهدابها نصف المغمضة، وعضلات وجهها منقبضة.

«ماكس، أرجوكِ لا!»

لكنها تعجز عن إيقاف ما يحدث مثلي تمامًا. أتذكر ما أخبرتني به وأرى أنه حقيقي. لا يمكنها التحكم في جسدها حقًّا. كأنها دمية أمسك بخيوطها محرك عرائس غاضب. شفتاها شاحبتان، وذراعاها وساقاها يرتجفان. الأسوأ من هذا كله أنها، بدلًا من الوجود مع والديها أو في المستشفى محاطة بأطباء وممرضين يمكنهم مساعدتها، ترقد على رصيف أسمنتي في الشارع.

وهذا كله خطئي أنا.

الفصل العشرون

«مرحبًا، ماذا حدث لصديقتك؟»

أرفع بصري فأرى شخصين يقفان أعلاي. لا يمكنني تمييز وجهيهما بعينيّ المغبشتين بالدموع.

«ماكس!» أصيح بجزع مجددًا، يداي مثبتتان على الأسمنت. ما زالت ماكس ترتعش. «ليساعدنا أحد ما أرجوكم!»

يسحبني أحدهما من مرفقي بعيدًا عنها. ويصيح آخر أننا في حاجة إلى عربة إسعاف. أقف عند جدار بناية، أراقب الكبار يأخذون مكاني بجوار ماكس.

لا أريد أن أنظر. لا أريد رؤية صديقتي مغلوبة، لا أريد رؤية تلك النظرة الضائعة على وجهها. ولا أريد رؤية من يتحلقون حولها. لا أريد رؤيتهم يحدقون أو يشيحون ببصرهم بعيدًا أو يغطون أعين أطفالهم، لأن هذا ما يفعلونه الآن بالفعل.

أريد أن أكون في أي مكان ما عدا هنا.

«هل اتصل أحدٌ بتسعة واحد واحد؟»

أنتظر أن أسمع أحدهم يقول إنها بخير. أن أسمع ماكس نفسها تعلن انقضاء النوبة وأنها عادت إلى طبيعتها مرة أخرى.

«ثبّتها- يجب أن نُثبتها».

«هل يوجد طبيب هنا؟»

«عربة الإسعاف في طريقها، لكن الماراثون يعيق المرور. أوه يا رجل، هذا ليس جيدًا! ضع عصا بين أسنانها لئلا تبتلع لسانها. ليُحضر أحدكم عصا!»

لا، أفكر.

ثم أشق دائرة الكبار في لمح البصر. يحلقون جميعًا حولها، ويضع أحدهم يديه على ذراعيها المرتعشتين. ليثبتها بالأرض.

«توقفوا!» أصيح.

«نحن نحاول وقف النوبة يا فتى. تراجع أنت ودعنا نتعامل مع الأمر». تضيق دائرة الكبار، وأدرك أنهم يحاولون إبعادي. لن أتركهم يفعلون هذا. لا يمكنني تركهم يفعلون هذا.

«كفوا عمّا تفعلونه! سوف تؤذونها!»

«أهي أختك؟ أين والدتكما؟»

أدفع من حولي بمرفقيّ لأقترب من ماكس، وأزيح اليدين عن ذراعيها. لم أزعق مثل الكبار من قبل، لكننا نتحدث عن ماكس هنا. إنها في حاجة إلى أن يسمعوني.

«إنها نوبة، لا تُثبتها. أرقدها على جانبها ولا تفكر في وضع عصا أو أي شيء آخر في فمها، إلا إذا كنت تريد خنقها».

يجعلهم شيء ما في صوتي، الغضب غالبًا، يستمعون إليّ. يداي ترتعشان.

أرجوكم كفوا عن هذا، أردد في سري. أرجوك يا ربي أوقِف النوبة.

حين أفتح عيني مجددًا، أجد ماكس تتألم بهدوء. كف جسدها عن الارتعاش، وسكنت ذراعاها وساقاها. تبدو بخير. كأنها كانت نائمة.

«هل انتهت؟»

«آمل هذا يا رجل. أيتها المسكينة».

أسمع الارتياح في أصواتهم. أعد خمسة أشخاص- خمسة أشخاص كبار جاؤوا حين صحتُ بطلب مساعدة، حتى وإن لم يعرفوا ماذا يفعلون تحديدًا.

أحدق في وجهها. أراقب عودة اللون الوردي إلى شفتيها ببطء، يسقط عليها حينها ظلٌّ طويل، أرفع بصري فأرى الزي الرسمي الأزرق. تتسارع دقات قلبي كمطارق. لا سبيل للهرب من هذا. هذا ليس سائق قطار ولا حارس أمن ولا حتى زيًا تتكريًا لعيد الهلع. هذا ضابط شرطة حقيقي يقف أعلاي، عيناه خلف نظارته الشمسية.

«أهي بخير؟» يميل إليها ويقيس نبضها بضغط إصبعيه في رسغها. يطمئن، فيعتدل ويبدأ طرح الأسئلة على الكبار عمّا حدث.

«تبدو أفضل مما كانت عليه منذ لحظة. نحن في انتظار عربة الإسعاف. وهذا الفتى هنا كان يعرف ماذا يفعل، مع هذا».

«أحسنتَ يا فتى!»

يربت أحدهم على كتفي. أرفع كتفيّ وأنظر في الأرض. يصل رجل إلى الضابط ويربت على كتفه.

«أيها الضابط، نحن سعداء جدًا بظهورك الآن! نحن في زيارة إلى- إنها أول مرة لنا في نيويورك، وقد قضينا وقتًا أمتع مما تخيلنا حتى! هل يمكننا إزعاجك بسؤال؟ ترك ابننا دبه المحشو في قطار الأنفاق وكنا نتساءل كيف يمكننا أن نبلغ...»

ينظر الضابط إلى ماكس وهو يستمع إلى الرجل الذي يبلّغ عن دب محشو مفقود.

أنظر خلفه وألاحظ أنه لم يأت بسيارة شرطة. يوجد على مسافة أقدام قليلة فرس رائمة بسرج أسود لامع. تهز ذيلها وتختلج ركبتها سريعًا، كموجة تقريبًا.

أعاود الانتباه لماكس، يضج قلبي في صدري بعصبية. يجب أن أسلم نفسي لهذا الضابط، لكنني لست مستعدًا لذلك. لست مستعدًا للاستسلام الآن.

تطرف ماكس بعينها سريعًا. تتقشع السحب في رأسها، كما حدث معي في غرفة الطوارئ في المستشفى بعد أن سقطْتُ مغشيًا عليّ.

«جيسون دي»، تهمس. لا بد أن تعبير وجهي سيخبرها أن تنظر حولها وترى ما حدث. ترفع بصرها لأعلى وترى ضابط الشرطة. أرى جبينها يتغضن بإحباط.

«أأنتِ بخير؟» أقول بهدوء لئلا يسمعني أحد سواها.

«ممم»، تجيبني بإيماءة خفيفة جدًا.

«عربة الإسعاف في طريقها إلينا. ستكونين بخير». أضع يدي على يدها.

«جيسون»

«نعم ماكس؟»

«أنا سعيدة لأنك هنا».

«أنا سعيد لذلك أيضًا»

«الشرطة...»

«لا أظن أنه يعرف من نحن».

أرفـع بصـري إلـى الضـابـط. يـدوّن أسـمـاء مـن توقـفـوا لمسـاعـدة ماكس.

تغمض ماكس عينيها؛ تشكل أهدابها هلالين قاتمين.

«جيسـون دي»، تهمـس وعيناهـا تطرفـان بـبـطء. «خـذ حقيبتـي واذهـب فحسـب. لـن ينتبهـوا لـك حتـى».

«مسـتحيل أن أتـركك»، أقـول وأنـا أهـز رأسـي. «لا يمكننـي السـير مبتعـدًا وأتـركك هكـذا».

«هـذه ليسـت أول نوبـة لـي يـا جيسـون دي. ليسـت أول مـرة أكـون هكـذا». كلماتهـا ثقيلـة وبطيئـة، كأنهـا تتحـدث تحـت المـاء.

هذا حقيقي، لكنني لن أتركها وحيدة.

«لكن هؤلاء لا يعرفون ماذا عليهم فعله لكِ»

«سأخبرهم أنا»، تقول بإصرار.

لا أشك في هذا.

مـا زال جفنـاهـا ثقيليـن، لكن اللـون يعـود إلـى خديهـا شـيئًا فشيئًا. لديهـا نمـش خفيـف لـم ألحظـه مـن قبـل. أضـع يـدي علـى يدهـا.

«أي صديق يغادر حين- حين-»

«سـتصل عربـة الإسـعاف فـي أي لحظـة الآن، وكذلـك والـداي»، تصـر ماكـس، تخـرج كلماتهـا بطيئـة وخافتـة قليـلًا. «هيّـا. لقـد فعلناهـا اليـوم. مـا زالـت توجـد فرصـة للنصـر».

النصـر، المـلاك ذو الجناحيـن أمـام التمثـال. تتقـدم الحصـان القـوي.

تقتـرب أضـواء حمـراء دوارة. تتوقـف عربـة إسـعاف عنـد الرصيـف، ويسـحب أحـد رجلـي الإسـعاف فـي الـزي الطبـي نقالـة

من خلفية العربة فيما ينحني الآخر على ماكس، متخذًا مكاني. يركع ضابط الشرطة على ركبتيه أيضًا.

أنهض، حقيبة ماكس في يدي. أعلقها على ظهري.

ترتفع زاويتا فم ماكس بأخف ابتسامة ممكنة. حينها أعرف أنها ستكون بخير لو ذهبتُ، ربما ستكون أفضل حتى وهي تعرف أنني أواصل طريقي. يتردد المقطع الثاني من الأحجية في رأسي.

بعد يومين، يغادر البلدة على جمعة.

لا يمكن أن أفكر في هذا. لست من الأطفال الذين يفعلون أشياء كهذه.

لا يمكنني رؤية ماكس الآن. اختفت مع رجلي الإسعاف وضابط الشرطة والثلاثة الصالحين الذين توقفوا للمساعدة، والفتى الصغير الذي ترك دبه المحشو في قطار الأنفاق. مع ذلك، زاد عدد الأشخاص المتحلقين في دائرة المراقبين لأن الجميع ينتابه الفضول قليلًا لرؤية ماذا يحدث.

تنخر الفرس وتنظر نحوي. يبدو كأن قطع الأحجية تتجمع معًا.

لا أفكر. لا أتحرك حتى. الأمر يحدث فقط.

لا أحد يلاحظني وأنا أقترب ببطء نحو جمعة، تخفيني عربة الإسعاف وأضواؤها الدوارة عن الأنظار. لا أحد يرى كيف لمست جلدها الحريري لأول مرة وشعرت بعضلاتها تختلج تحت يدي. كان التمثال رائعًا، لكن المخلوق الحقيقي مذهل. تخفض رأسها وأنا أقترب، وأشعر بعمودي الفقري يستقيم. فيما يحملون ماكس من على الأرض ويضعونها على النقالة، لا أحد يراني وأنا أقف

على صنبور حريق وأمسك باللجام. أقفز لأعلى وأضع قدمي في الركاب. أُوسّع ما بين ساقيّ لأمتطي الفرس. أُمسك اللجام بيدي وأميل إلى الأمام لأضغط بجسدي على عنقها السميك القوي. ترجف أذنيها، كأنها تنتظر التعليمات.

لقد قطعت كل هذه المسافة. ليس لدي شيء لأخسره الآن.

«هيّا يا جمعة. لنذهب!»

الفصل الحادي والعشرون

تتدلع عاصفة صياح من خلفي. ظني أني أسمع صياح ضابط الشرطة، لكنني لا أسمع سوى أنين رعبي.

«أوه لا .. ووه... انتبهي يا فتاة!»

حين رفعتْ جمعة حافرها نحوي، ربما افترضتْ أنني امتطيتُ فرسًا من قبل. الأرجح أنها أدركتِ الآن كم الخطأ في أن تفترض أي شيء. تتشبث أصابع قدمي بالسرج ككرات مطاطية مربوطة ببدال خشبي. يجعل الفارس في ذلك التمثال وكل رعاة البقر الذين رأيتهم من هذا الأمر يبدو سهلًا.

لكنه ليس كذلك.

بعد أن أقطع مسافة نصف كتلة مبانٍ أجرؤ على الالتفات خلفي.

«أوه، يا رجل»، أغمغم. يركض ضابط الشرطة نحوي بينما يقف الجميع ليراقب، أيديهم على أفواههم. تخب الفرس، أو تهرول أو تقفز، أيًا كان ما تفعله الأحصنة. أحاول حفظ توازني حين تقفز قفزة عالية، فأرتفع عنها مسافة بوصتين في الهواء. حين أعود على السرج، ترتطم ساقي بكفليها فتصهل.

الواضح أنها تعدّ خبط قدميّ بها كإشارة لها بالإسراع. من الصعب إبعاد قدميّ عنها، ولا يمكنني التفكير في طريقة لأخبرها أن هذا الهروب أسرع مما توقعتُه.

«ووه... ووواه... وووووهـوووو!» أصيح. تنطلق في الشارع بتشجيعي غير المقصود. يخيل لي أن السيارات توقفتْ، لكنني

لست متأكدًا لأن عيني مغمضتان تقريبًا. اتشبث بعنق جمعة بكل قوتي، لكنني ما زلت أهتز كدمية قماشية، مستعدًا للسقوط أرضًا في أي لحظة. تنعطف يمينًا ثم يسارًا. لا أعرف في أي شارع أنا، ولا يمكنني التركيز.

ألف اللجام حول يدي تحسّبًا. ألتفت خلفي مجددًا، أرى ضابط الشرطة نقطة زرقاء على خلفية مغبشة من السيارات. ما زال يلاحقني، لكن المسافة بيننا تتسع.

إلى أين الآن؟ إلى المتنزه؟ سيكون فتى على صهوة حصان ملحوظًا جدًا. قد أحاول الاختفاء في مترو الأنفاق لكنني لا يمكنني دخول المحطة بجمعة. عليّ الترجل عن ظهرها والعودة للاختفاء وسط الزحام.

حقيبة ماكس على ظهري. أصيح في جمعة لتتوقف، أشد اللجام. تنخر لكنني أشعر بها تُبطئ قليلًا. أشد اللجام مرة أخيرة بكل قوتي.

«أرجوكِ!» أصيح. «أرجوكِ توقفي!»

تبطئ سيرها ويبدأ جسدي بالاسترخاء. أرفع رأسي وأرى الحديد الأخضر الداكن الذي يميز محطة مترو الأنفاق أمامي مباشرة. هذه فرصتي. لا بد أن ضابط الشرطة قد سلك طريقًا مختصرًا لأنه عاود الظهور، لكنه على مسافة كتلتي مبانٍ تقريبًا. تتوقف جمعة، تنقر بحوافرها الأسفلت حتى وهي واقفة. إلى يسارنا على جانب الطريق كومة كراتين فارغة. أفك اللجام الجلدي عن ساعدي وأرفع قدمي عن سرج جمعة بعصبية فيما أقترب من الكراتين.

«اثبتي للحظة فقط»، أهمس.

أقفز على الكراتين وآخذ نفسًا عميقًا. يحدق فيّ صاحب محل، وكذلك رجلان وامرأة بملابس رياضية تربط رضيعًا إلى صدرها. أنفض بنطالي وألوح لهم كأن كل شيء في العالم بخير.

أبدأ السير نحو المحطة. لا أجرؤ على الركض كي لا يظنوا أن عليهم إيقافي. يجب أن أظل هادئًا. يبدو أنهم مدهوشون دون أن يتحركوا، لكنهم لن يظلوا هكذا طويلًا. أهبط سلم المحطة، ألاحظ أنني في الشارع السادس والثمانين. مدخل المحطة معتم ككهف بعد سطوع شمس الظهيرة. انكسرت لمبات إضاءة قليلة في السقف وعليهم استبدالها. توجد ماكينات بيع تذاكر وخريطة المسارات على الجدار الأبيض. يصل قطار إلى المحطة، فيصطف الركاب خلف الأبواب الدوارة مباشرة في انتظار انفتاح أبواب القطار. الكشك الزجاجي في منتصف المحطة خالٍ، ولا أحد يراقبني. ما زلت قريبًا بما يكفي لأسمع الصياح القادم من أعلى الأرض.

أنظر إلى الأبواب الدوارة وأرى سهولة العبور من تحت القضبان المعدنية وركوب القطار قبل مغادرته المحطة مباشرة. ما زال الضابط خارج مجال الرؤية ولن يعرف إلى أين ذهبت.

خطة ذكية، على ما أظن، ومع اعتبار خياراتي الأخرى. أمسح بعيني المحطة، أشعر أنني في سباق مع الزمن، حينها، تخطر لي أحجية.

لا أظهر إلا بالضوء، لكنني أموت لو سقط عليّ. ماذا أكون؟

بعد ذلك بلحظة، يهبط الضابط السلم بسرعة البرق، بالكاد

تلمس قدماه الأرض. يقفز أعلى الباب الدوار كرياضي أوليمبي ويشق طريقه بين المتجهين نحو القطار. يبدو بعضهم منزعجًا حين تخبط كتفاه بأكتافهم، لكنهم يبتلعون غضبهم حين يدركون أنه ضابط شرطة. ينظر يمينه ويساره ويسمع الصوت الآلي لتحذير الركاب قبل إغلاق الأبواب. يستقل القطار ويتحرك داخل العربة بسرعة، يبحث عني.

يخرج القطار من المحطة، يدخل ثقب أسود كبير. يبدو الضابط مرتبكًا، كأن أحدهم أخرج له لتوه أرنبًا من كيس ورقي. يبدو الركاب حائرين أيضًا. لا يعرفون لماذا يريكهم هذا، ضابط لاهث ينظر إليهم جميعا كأنهم متواطئون.

كيف يختفي فتى في الهواء في محطة قطار الأنفاق؟

هذه أحجية.

لا أظهر إلا بالضوء، لكنني أموت لو سقط عليّ. ماذا أكون؟

أنا ظل.

يوم ما، أفكر وأنا أقف منتصب القامة. سيحلها الضابط.

من فراغ صغير في الظل بين ماكينتي بيع تذاكر، على مسافة أقدام قليلة من السلم المؤدي إلى الشارع السادس والثمانين، أخرج من المحطة المعتمة وأسير نحو الضوء.

الفصل الثاني والعشرون

يهبط مجموعة من الصبية سلم المحطة وأنا أغادرها. أقترب من الدرابزين ما أمكنني لأترك مسافة بيننا. يحملون حقائب قماشية وعصيّ لاكروس[6] على أكتافهم. أُبقي عينيّ في الأرض، أتساءل إن كان أحد سيعرف أنني الفتى الذي امتطى فرس الشرطة.

أرى جمعة مربوطة إلى عمود، تنظر إليّ ما إن تطأ قدماي أرض الرصيف. تنخر وتحرك ذيلها.

«أنا آسف لأنني أقحمتُكِ أنتِ أيضًا في هذا»، أهمس لها. تطرف بعينيها لكنها لا تشيح ببصرها. هذا جنون، لكنني أشعر أنها لم تكره رحلتنا معًا، مع أن عليها أخذ جانب ضابط الشرطة. هل أحست بمدى حاجتي إلى مساعدتها؟ هل عرفت أنني في حاجة إلى الهرب؟

يواصل أصحاب المحلات والمارة الاهتمام بشؤونهم. ألم يروني على ظهر الفرس منذ دقائق قليلة؟ ظني أن لا شيء يُدهش النيويوركيين. أُبقي عيني على المربعات الأسمنتية للرصيف وأواصل السير، أعود أدراجي من الشارع السادس والثمانين إلى الشارع الرابع والسبعين. لا بد أن ماكس في المستشفى الآن، لكنني يجب أن أقف في المكان الذي تركتها فيه. حتى خارج عن

---

(6) رياضة جماعية تلعب بكرة مطاطية وعصا طويلة تنتهي بشبكة مصممة لتلقي الكرة. (المترجمة)

القانون هاوٍ مثلي يعرف أنه ليس من الصواب العودة إلى موقع الجريمة.

أتساءل إن كان منبه أمبر قد انتشر مرة أخرى- لقد دوخنا أنا وماكس المدينة بالفعل. لن ترضى أمي عن كل ما فعلته، يراودني شعور بالذنب.

حين أصل إلى الشارع الثمانين، أنعطف يمينًا وأعود إلى حافة المتنزه. أرى زحامًا، بعضهم ما زال يحمل لافتات الماراثون، لكنني لا أرى عدّائين.

أرى حينها مبنى ضخمًا إلى يميني. يبدو كقصر ملكي بمداخله المقوسة وأعمدته الطويلة، وأتوقع أن أرى ملكًا وملكًا في عباءتيهما يخرجان برفقة فرسان مسلحين. يمتد المبنى لعدة كتل مبانٍ، وتوجد ثلاث مجموعات من السلالم تؤدي من الرصيف إلى بواباته الثقيلة بالأسفل.

أتمنى لو كانت ماكس معي هنا. أهبط أول مجموعة سلالم ثم أسمح لنفسي بالجلوس قليلًا. أضع حقيبة ماكس إلى جانبي وأفكر كم تبدو وحيدة من دونها.

تطرف عيناي مرتين قبل أن أقرأ لافتة مكتوب عليها متحف المتروبوليتان للفنون.

أرى لافتة أخرى، عمودية طويلة تتدلى بين عمودين كستارة. أقرأ الحروف المرصوصة فوق بعضها كبرج كلمات. فِنسنت فان جوخ.

يهبط زوجان شابان على السلم، منشغلين تمامًا في هاتفيهما إلى حد أتوقع أنهما سيصطدمان بحائط. يكور الشاب ورقة ما

في يده ويلقي بها في سلة المهملات إلى جانبي. لا تسقط كرته في السلة- لست مدهوشًا، إذ بالكاد رفع بصره عن الهاتف.

كانت خالتي سيما ستتقر على كتفه وتجعله يلتقط الورقة عن الأرض. ظني أنني أدين للمدينة بالكثير، وأقل ما يمكنني أن ألتقط أنا الورقة. قبل أن أنهض لألقي بها في السلة، يغلبني فضولي وأفضّها. إنها مطوية عن معرض للوحات فان جوخ. غلافها لوحة لآنية زهور مليئة بزهور عباد الشمس، بعضها متفتحة وأخرى ذابلة. بداخلها مزيد من اللوحات والكلام. على غلافها الخلفي لوحة لمقهى في شارع، بطاولات وكراسي فيما يبدو كأمسية صيفية. اللوحة الأخيرة لسماء داكنة مرصعة بالنجوم أعلى قرية هادئة.

أقرأ أن فان جوخ كان هولنديًا وأنه ولد عام 1853. وقد رسم أكثر من ألفي لوحة فنية بأسلوب ما بعد الانطباعية.

أقرأ المزيد لأعرف أنه شهير بكونه «مضطربًا» وأنه يعاني «خللًا ذهنيًا». أتساءل كيف لشخص بخلل ذهني أن يكون «شخصية شهيرة» و«موهوبًا». ثم أرى الكلمة التي سمعتها لأول مرة في هذه العطلة الأسبوعية.

من المرجح أن فنسنت فان جوخ كان يعاني نوعًا من الصرع وأن هذا هو ما ألهمه بكثير من تلك الرؤى...

هذا مثل مرض ماكس إلى حد كبير.

ليت بإمكاني قراءة هذا لها. هل اضطرّ فان جوخ لإجراء جراحة أيضًا؟ ليتها ترى هذا الفنان الشهير الذي يشبهها تمامًا. أم أنها هي من تشبهه. أحدهما يشبه الآخر فحسب. لم يكن عاديًا. بل أفضل من العادي.

قد تعرف خالتي سيما المزيد عن هذا. أدس المطوية في حقيبة ماكس.

أنهض. أشعر بوحدة أكبر الآن بعد أن قابلت ماكس. تغير فيّ الكثير جدًا خلال هذه العطلة. مع ذلك، عليّ أن أواصل. أملي الوحيد لأسمع صوت أمي مجددًا في الوصول إلى بيت خالتي سيما. يمنحني التفكير فيها القوة لوضع قدم أمام الأخرى لأنني أعرف أنها، حتى وإن لم تكن أمي، ستحيطني بذراعيها وستتولى مهمة إصلاح كل شيء.

أُبقي عيني نصف مغمضتين في مواجهة الشمس، وزحام الماراثون والضباط ذوي الزي الأزرق. أرى سيارات الأجرة، بشرًا من جميع الأعمار، وأشعة الشمس المنعكسة على النوافذ الزجاجية. لا شيء خارج نطاق العادي.

أسمع صوت امرأة ورجل يسيران خلفي. أعرف من قولهما فجأة بعد مدة صمت «أهلًا، أيها القرد السمين، هل تغوطت؟» أنهما يدفعان عربة أطفال فيها رضيع. أسمع محادثتهما. يتحدثان عن طلب عشاء تايلاندي وتحديد موعد التطعيم التالي للرضيع. أنصِت إليهما لأتأكد أنني لست مرئيًا، طالما لا يتحدثان عني، وهذا تحديدًا ما أطلبه.

أنعطف نحو المتنزه، أسلك دربًا متعرجًا كالثعبان بين الأشجار والأجمات. تختفي شوارع مانهاتن المرصوفة جيدًا من خلفي. عليّ التركيز جيدًا كي لا أفقد الاتجاه في هذا المسار المتعرج. يجب أن أعبر المتنزه في خط مستقيم.

ظللت أتجاهل فكرة سوداء حتى الآن. كان من السهل تجاهلها بوجود ماكس معي، لكن الآن بعد أن افترقنا، عادت الفكرة. ماذا سيحدث لو لم أجد خالتي سيما؟ هل سيكون عليّ تسليم نفسي؟ هل سيرسلونني إلى دار رعاية؟ هل سيوافقون إن طلبت منهم إرسالي إلى أفغانستان؟ كيف سأجد أمي هناك؟ هل سيكون علينا الاختباء هناك؟ لكنهم لا يمكنهم إرسالي إلى أفغانستان لأنني أمريكي. هل يمكنني النوم في المتنزه؟ أو على الرصيف مثل بعضٍ من مررتِ بهم؟

أعبُر المتنزه فحسب، أقول لنفسي. *كدت تصل*.

أسير لدقائق قليلة قبل أن أسمعه. الهدير الذي لا تخطئه الأذن لتشجيع الجموع. ثم أرى اللافتات والأصدقاء المهللين والثلاجات المليئة بالمشروبات الرياضية.

أتنهد وأتجه إلى الخطوط الجانبية، أشق طريقي وسط من بدأت أحبالهم الصوتية تؤلمهم من كثرة التشجيع. تنسحق الأكواب الورقية الخضراء تحت قدمي. لا فرار من هذا الماراثون.

كيف لطفل هارب أن يعبر نهر عدّائي الماراثون دون أن يتم القبض عليه؟

هذه أحجية لا أعرف حلها.

الفصل الثالث والعشرون

بينما أفكر في هذه المشكلة أشعر بشيء ما يهتز في جانبي. أنظر حولي حائرًا، وأدرك أنه في الحقيبة التي أحملها.

هاتف ماكس! كيف نسيت؟ لا بد أنها تركته مفتوحًا.

أفتح الحقيبة وأمد يدي لألتقطه. تلمس أصابعي شيئًا ما يهتز فأسحبه. أنظر في الشاشة وأرى رقم هاتف يبدأ بـ 212.

هل أجيبه؟

ينتهي الاتصال قبل أن أقرر. أفكر في إطفاء الهاتف تمامًا لكنني لا أفعل. ليس لديّ رقم هاتف خالتي سيما، ولا أجرؤ على محاولة الاتصال بأمي مجددًا. لا أحد يمكنني الاتصال به، مع ذلك أشعر أن الهاتف وسيلة نجاة. أرفع صوت الجرس في حال قررت الرد على الاتصال التالي. أعيد الهاتف إلى الحقيبة وأحدق في مسار الركض الفاصل بيني وبين الجانب الغربي من مانهاتن. لا أرى الدكتورة شاباني. أتساءل إن كانت ما زالت تركض أم وصلت إلى خط النهاية بالفعل.

يتنحنح الرجل بجانبي ويضع ترومبيتا لامعة على شفتيه المضمومتين. من أين جاء؟ يبدأ عزف أغنية تشجيعية إلى حدٍّ ما فأرى وجوه العدائين ترتفع، وأذرعهم تتحرك إلى جانبيهم بعزيمة. لا أعرف الأغنية لكنها على ما يبدو تخبرهم جميعًا أنّ: إياكم والتفكير في الاستسلام الآن.

أرى طاولة طويلة عليها أبراج من أكواب ورقية صغيرة خضراء، وبجوارها مبرِّد مياه بطولي تقريبًا. يقف عندها ثلاثة أشخاص، يملؤون أكواب الماء ويناولونها للعدائين المارين بهم.

أخبرني مستر فازيو ذات مرة أن الحاجة أم الاختراع، أي إن البشر يتحلون بالذكاء حقًا عندما تضطرهم الحاجة- حين يتطلب منهم شيء ما التفكير بإبداع. أنا في حاجة إلى عبور هذا المسار حقًا- هذا النوع من الحاجة الذي يتطلب فكرة ذكية.

يواصل عازف الترومبيت عزفه. يغمز لي ويلوح بآلته النحاسية وهو يعزف. خداه محمران ومنتفخان كالسنجاب. يركل الأكواب الورقية بعيدًا عن قدميه دون أن يتوقف عن العزف. تتحرك أصابعه لأعلى وأسفل على مفاتيح الترومبيت.

حينها ينجم عن الحاجة فكرة صغيرة.

أتوجه إلى الطاولة مبتسمًا بحماس لشابة تقف عندها وألتقط عدة أكواب. آخذ نفسًا عميقًا وأتذكر كيف بادرت ماكس الرجل صاحب الكلبين دون تردد.

«ماراثون رائع، أليس كذلك؟» أقول حين تلتفت إليّ، بمرح وبعينين لامعتين.

«إنه كذلك بالفعل»، تجيبني ووجهها يشع سرورًا. «هذه رابع مرة أتطوع هنا. وما زلت منبهرة!»

«ملهم جدًّا!» أقول وأنا أميل إلى الحاجز وأمد يديّ إلى مسار الركض. تأخذ عدّاءة ترتدي بنطالًا قصيرًا وبلوزة بلا أكمام كوبًا مني. تلهث بشيء ما كالشكر وهي تمر. أملأ كوبًا آخر وأبتسم مجددًا للشابة عند الطاولة. تشبّ على أطراف أصابعها من الحماس.

أتسلل من فجوة بين حاجزين وأرفع الأكواب لأعلى للعدائين المارين. تختفي الأكواب من يدي فأعود نحو الطاولة، أمد يديّ من أعلى الحاجز، وأمسك بثلاثة أكواب أخرى. أتقدم خطوة إلى الأمام في مسار الركض. بعد تلك الخطوات أرى مساحة خالية من المسار قبل وصول دفعة تالية من العدائين. أقف في منتصف المسار، قلبي يضج.

«ها هو بعض الماء. واصلوا الركض بقوة!» أصيح.

«هيي يا فتى!» تصيح فيّ إحدى المتطوعات من عند الطاولة، تلوح بذراعها في الهواء، تشير لي أن أعود. «لا يمكنك الوقوف هناك. ابتعد عن طريقهم!»

أنظر حولي كأنني لا أعرف أين أنا.

«آسف!» أصيح.

أندفع إلى ما خلف الحواجز على الجانب الآخر من المسار، أبتعد في اللحظة التي يمر فيها عداء. أختفي في الزحام على الجانب الآخر وأسرع خطوي مبتعدًا عن الماراثون.

حافظ على هدوئك، أقول لنفسي. لست متأكدًا من نجاح مناورتي تمامًا. أتمرن على ردي في حال شعرت بيد على كتفي. *كنت أحاول المساعدة فحسب.*

لكنني أتقدم، لا بسرعة ولا ببطء. لا أحد يقترب مني، وأعبر المروج الخضراء. أمر تحت ظلال الأشجار الكبيرة. أتجاهل قرقرة معدتي وأدعو أن أصل إلى الجانب الغربي من السنترال بارك سريعًا. تمر بي عائلة من طيور الإوز. تنظر إليّ الأم بحذر ثم تتحرك من ممر الأسفلت إلى العشب.

أفتقدُ أمي.

تلمس أصابعي عمود إنارة وأنا أسير- أشعر ببرودة المعدن في أطراف أصابعي. أين أمي الآن؟ تستغرق الرحلة من نيويورك إلى أفغانستان يومًا كاملًا تقريبًا بالطائرة. كنت في السادسة من عمري حين أخبرتني بقدر قليل جدًّا عن رحيلها من أفغانستان وقدومها إلى الولايات المتحدة. كانت تسير بي إلى روضة الأطفال في يوم ممطر.

كم تستغرق الرحلة من أفغانستان إلى أمريكا؟

حسنًا، لقد غادرت بيتنا يوم الثلاثاء، وحين وصلت إلى أمريكا كان يوم الأربعاء.

ظللتِ فوق السحاب ليوم كامل؟

توقفنا مرة واحدة لتغيير الطائرة. لكن نعم، قضيت يومًا واحدًا فوق السحاب.

كيف شعرتِ وأنتِ في السماء؟

بالأمان. رأيتُ في أفغانستان ما يفعله الناس بالأرض لأن كلًّا منهم يريد قطعة منها. يدمرونها. يقسّمونها. وحتى حين لا يتبقى منها شيء، يظلون يطالبون بها. لكن السماء ليست هكذا. لا يمكن تقسيمها.

كيف بدت أمريكا من السماء؟

سكتت أمي حينها، كأنها لم تسمع سؤالًا مثل هذا من قبل.

بدت كشيء ما كالحلم.

حلم جيد؟

تركت مظلتها المكسورة تسقط إلى جانبها حينها. انسالت قطرات المطر على خديها. ذهب سؤالي بلا إجابة، حملته رياح قوية.

ألاحظ وأنا أتذكر ذلك اليوم أنني أمام جدار حجري. أرفع بصري نحو السماء وأرى الجدار يمتد ليكوّن برجًا. يرفرف العلم الأمريكي أعلاه بفخر، ويتسلق اللبلاب جانبيه كما تسيل المثلجات الذائبة على جانبي المخروط.

أصعد السلم وأدخل قلعة حجرية. كيف توجد قلعة وسط مدينة نيويورك؟ أواصل الصعود. أقف في شرفة عالية. وجهًا لوجه مع شجرة بلوط. تعلو ناطحات السحاب اللامعة على قمم الأشجار، لكنها لا تقترب من القلعة التي تبدو كأنها سقطت من السماء لتستقر في قلب هذا المتنزه الشاسع.

أتوغل في أعماق القلعة. ليس بها فرسان، ولا تنانين، ولا سيوف ولا مبارزات. أنظر من أعلى الدرابزين الواطئ للشرفة. يوجد على الجانب المقابل صخور مغطاة بالطحالب.

«ماكس»، أهمس وأنا أنظر إلى بئر عميقة وصخرية. «كنت ستحبين هذا».

حلقي جاف. أرى سلمًا حلزونيًا، ليس لدي طاقة لصعوده. أجد حجرة بنوافذ ضيقة في جدرانها الحجرية فأمنح نفسي استراحة قصيرة. الجو رطب هنا بعيدًا عن وهج الشمس.

أجلس بظهري للحائط وأشعر بالفراغ من حولي.

«انظري إلى مليكك يا أمي. ها هو يجلس في قلعة. أراهن أنك لم تتخيلي هذا قط». أهذا ما يشعر به المرء حين يكون

ملكًا؟ أكان أبي يشعر أنه ملك؟ تتزايد قائمة الأسئلة التي أتمنى أن أسألها له.

الجو مظلم في القلعة، أعلى رأسي نافذة صغيرة. أعرف ما كانت أمي ستقوله لو كانت معي هنا، كانت ستتظر إلى النافذة في الجدار الحجري.

أنا أسقط في الماء دون أن أبتل وأسقط على الأرض دون أن أتحطم. ماذا أكون؟

«أنتِ الضوء»، أهمس، أفتقدها بشدة، إلى حد مؤلم.

نعلا حذائي الرياضي في حالة سيئة. لم أركض في الماراثون، لكنني قطعت به اليوم عدة أميال تقريبًا. أفتح الحقيبة بأمل أن أجد قطعة جرانولا قديمة أو عدة دولارات نسيتها ماكس. أجد تيشيرت تمثال الحرية متكومًا.

«لا أصدق أن خطتك هذه نجحت».

أشعر أفضل حين أتحدث مع ماكس كأنها إلى جانبي. يشعرني هذا، بشكل ما مبهم، أنها ما زالت معي. أضع التيشيرت على حجري وأقلب محتويات الحقيبة. يسقط دفتر يومياتها ذو السلك الحلزوني والغلاف المخطط المنقوش عليه حرف M، على الأرض مفتوحًا. لا أتحرك، أتذكر كيف كانت تحني ظهرها وهي تكتب فيه. أنظر فيه لأرى ماذا كتبت، رغم علمي أنني بذلك أقتحم خصوصيتها، ظني أنني سمحت لنفسي بهذا لأنني أريد أن أسمع صوتها.

إنه خطاب لنفسها، مكتوب بخط جميل بالحبر الأسود.

عزيزتي ماكس،

توجد عدة أشياء يجب أن تعرفيها عن نفسك- لندعُها حقائق ماكس. أكتب هذا لأنني لا أعرف ماذا سيحدث لكِ بعد العملية الجراحية في المخ. أريد، وأريدك، أن تتذكري بعض الأشياء المهمة، لأنك لو نسيتها، لن تكوني ماكس التي بذلت جهدي حقًا لأكونها. سأحاول تدوين كل ما هو مهم هنا. وسأضيف إليه كلما أمكنني، لكنني فكرت في هذا قبل العملية بثلاثة أيام فقط. ربما كنت آمل ألا يضطرون إلى إجراء هذه الجراحة، وأنك لن تكوني في حاجة إلى هذه القائمة. وما زلت عاجزة عن التفكير في خطة ذكية لتجنب الجراحة، لذلك فهذه هي الخطة البديلة. ولذلك فلنبدأ:

1 - بنطالك الجينز المفضل هو الأزرق الداكن ذو البلّورات الوردية على جيبه الخلفي.

2 - أنتِ تكرهين الفِطر. أوضحتِ لماما من قبل أنه أشبه بقذارة الحمام عنه بخضراوات حقيقية. بعد عام من الجدال، تقبّل بابا وماما الأمر أخيرًا. لا تفقدي هذا المكسب الثمين.

3 - تناولي المعجنات المرشوش عليها السمسم بدلًا من بذور الخشخاش. لأنها أفضل كثيرًا والسمسم لا يعلق بين أسنانك مثل بذور الخشخاش.

4 - سرقت بريانا كنسلي كرة السلة خاصتك في الصف الثاني. الحقيقة أنه لا بأس إن نسيتِ هذا، لأنها ظلت لطيفة جدًّا منذ ذلك الحين. لكنني مع هذا سأتركه في القائمة، في حال فقدتِ أي شيء آخر، ستكون بريانا أول المشتبه فيهم.

5 - تنبأتْ لك مسز روبرتس أنكِ ستكونين عالمة صواريخ لأنك ممتازة في الحساب، ولستِ من هذا العالم في جميع الأحوال. وأنت ترين أن هذه فكرة رائعة جدًا وقد أضفتِ المريخ إلى قائمة الأماكن التي تودين زيارتها.

6 - وعدك بابا بآيباد في أعياد الميلاد. دوّرت ماما عينيها لتبدأ الجدل ضد هذا، لكن الوعد وعد.

7 - تخاطبك الممرضة ذات الشعر الأحمر بـ «يا حلوة»، لأنها لا تتذكر اسمك. وليس لأنها تحبك. أرجوك لا تفيقي ساذجة.

8 - أنتِ تكرهين النوبات. تكرهين شعورك قبلها مباشرة ولوقت طويل بعدها. تكرهين مواعيد الأطباء وطريقة نظر الناس إليك وطريقتهم في فعل أي شيء كي لا ينظروا إليك حين يعرفون مرضك. لكن الأمر ليس سيئًا كثيرًا. أنت تعرفين الكثير عن المخ والأدوية والتحاليل والمستشفيات، ومن المرجح جدًا أن تصيري طبيبة ماهرة حقًا إن كان يمكن لمن تأتيهم النوبات ممارسة الطب.. أشك في هذا. لا أظن أن بإمكانهم القيادة حتى، ما يعد سيئًا حقًا. لأنك ستبدين جميلة وأنت تقودين سيارة مكشوفة.

أضحك، فيتردد صدى ضحكي بين حجارة القلعة الباردة. يُحزنني أنها اضطرت إلى تدوين تلك القائمة، لكنها فكرة ذكية بالفعل. الصفحة التالية مكتوبة بالحبر الأزرق. يُدهشني أن أرى اسمي.

9 - جيسون دي شاب رائع. شجاع. أنت تكرهين هذه الكلمة في الحقيقة لكنها تناسبه، ولا يمكنني التفكير في كلمة أخرى. انطلق وحده ليجد خالته بعد أن أخذوا أمه، هذه شجاعة

حقيقية. لو عوقبتِ بالحبس في غرفتك إلى الأبد وأنت تقرئين هذا والناس يقولون إنها غلطته، فاعلمي أن جيسون دي مسؤول جزئيًا فقط عن هذا. أنتِ من قررتِ الذهاب معه حين سمعت خطته المجنونة التي ليست مجنونة جدًا. اعلمي أيضًا أن هذا اليوم بقدر ما كان مرعبًا وصعبًا، لكنكِ لستِ نادمة على دقيقة واحدة منه. ستذهبين أخيرًا إلى حديقة الحيوان ولديك صديق جديد بقصة مذهلة.

أتذكر حين أخرجتُ دفترها ونحن عند البحيرة. هل كتبت هذا حينها؟ أشعر بغصة في حلقي. تعتبرني ماكس شجاعًا بينما أنا مرعوب. أيُّنا محق؟ لا أعرف، لكن كلماتها تمنحني الأمل.

10 - أنت تريدين كلب بولدوج فرنسي. (القطط ليست جديرة بالثقة. دعي ماما تخبرك كيف حدث لكِ الندب على ساعدك الأيسر).

لا تحسبي أن هذا كل شيء. يوجد أكثر بكثير من عشرة حقائق مهمة عن ماكس، لكنك الآن هاربة ولا يتسع لك الوقت للكتابة. من فضلك حاولي التمسك بالأشياء المهمة في أثناء الجراحة. أرجوكِ.

أُغلق الدفتر، ويزداد افتقادي لها. أتمنى، أيًا كان ما سيحدث، ألا يتغير فيها أي شيء.

الفصل الرابع والعشرون

أسمع أصواتًا تقترب فأعيد كل شيء إلى الحقيبة وأتسلل خارجًا من القلعة متجاهلًا آلام الجوع.

أصل نهاية المتنزه خلال وقت قصير. أصعد على الرصيف وأرى تيار السيارات في جادة مزدحمة. يوجد بائع نقانق بعربة معدنية لها مظلة باللونين الأحمر والأصفر. تصطف خلفه عدد من الشاحنات، ملصق عليها قوائم طعام عملاقة. في الجانب المطل على الرصيف من كل شاحنة نافذة واسعة يطلب منها الناس الطعام ويأخذونه معهم. على واحدة منها صورة لقطعة تاكو ضخمة. التالية مطلية بخطوط حمراء وبيضاء وزرقاء ومكتوب على جانبها لاكازيتا، والثالثة مكتوب عليها كباب إكسبريس بحروف خضراء سميكة. تفوح منها جميعًا روائح شهية تجعل ريقي يسيل، لذلك أسير بعيدًا عنها.

على الجهة الأخرى من الشارع، أرى مبنى ضخمًا آخر. يشبه متحف الفنون الذي رأيناه على الجانب الشرقي من المتنزه. لمدخله أربعة أعمدة شاهقة وأمامه تمثال لرجل على صهوة حصان. توجد لافتة أعلى عمود الإنارة على الطوار.

المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي.

أنا أعرف هذا المتحف. لم أدخله من قبل، لكنني شاهدت أنا وأمي، ذات مرة، فيلمًا عن معروضات هذا المتحف تعود للحياة ليلًا. كان فيلمًا كوميديًا، لكنني في الحقيقة، أخرجت

بعض أبطالي الدمى، تلك الليلة قبل النوم، ووضعتها على الطاولة بجوار صورة أبي، أردتها أن تعود كلها إلى الحياة وأنا نائم.

أسير في الاتجاه الذي آمل أن يوصلني إلى الشارع الرابع والسبعين. أشعر براحة حين أرى لافتة تؤكد هذا. على الأقل أعرف أنني في المسار الصحيح وعلى مسافة ثلاثة شوارع من بيت خالتي سيما. أُبقي عينيّ أمامي وأمر بثلاثة تقاطعات دون لفت انتباه أحد.

يوجد كشك عند منعطف الشارع الرابع والسبعين. يتحدث الرجل الواقف بداخله في الهاتف، وسماعة لا سلكية صغيرة في أذنه اليسرى. أنظر إلى أكياس الرقائق وصناديق الحلوى بنهم. كنت سأدفع كل ما أملكه تقريبًا مقابل كيس رقائق الآن. أقترب منه قليلًا، كأنني آمل أن يعرض عليّ كيسًا مجانًا.

يلفت نظري عنوان على حامل الجرائد. أتجمد حين أرى كلمة أفغانستان بحروف كبيرة وسميكة على الصفحة الأولى. ألتقط الجريدة.

هجوم عنيف في أفغانستان

تهوي معدتي. أواصل القراءة. تقفز عيناي بين أعمدة الكلام بحثًا عن كلمات أعرفها، عن مفتاح لمعرفة مكان أمي.

هجوم عنيف آخر على كابول....

أمراء الحرب يرفضون المشاركة في محادثات السلام...

مقتل أربعين على الأقل...

المدنيون يسارعون إلى المستشفيات للتبرع بالدم...

«هذه ليست مكتبة عامة».

تسقط الجريدة من يدي. أرفع بصري فأرى الرجل داخل الكشك يحدق فيّ بصبر نافد.

«أتريد جريدة؟» يقول بلكنة خفيفة.

«حسنًا، آسف»، أقول وأعيد الجريدة مكانها بحرص. لو أرسلوا أمي إلى أفغانستان فسيعيدونها إلى كابول. حيث الهجوم حسبما تقول الجريدة. أسير مبتعدًا عن حامل الجرائد، أحاول ألا أتخيل الانفجار الذي قتل أربعين شخصًا.

أصل إلى الشارع الرابع والسبعين، وأبدأ البحث عن بناية خالتي سيما، تمسح عيناي المباني يمينا ويسارًا. أمر بكتلة مبانٍ واحدة قبل أن أضطر إلى التوقف.

تزداد أنفاسي صعوبة وسرعة، كأن أحدهم يُحكِم قبضته على عنقي. أجلس بجوار كومة من الكراتين.

هجوم *عنيف... المستشفيات... التبرع بالدم.*

كيف ستعيش أمي هناك؟ أدفن وجهي في يدي وأبكي.

تتحرك كومة الكراتين بجانبي فأنهض مأخوذًا.

«ماذا تظن نفسك فاعلًا هنا؟» يصيح رجل بلحية وسترة مموهة وبنطال قذر. تغطي طاقية صوف شعره وجبهته. «لا يمكنك الجلوس هنا ببساطة!»

«أنا... أنا آسف...»

«أنت تبكي؟ هل تبكي؟» يسألني، كأنه لا يصدق عينيه.

«لا!» أقول بسرعة.

«الفتى الكبير لا يبكي. كانت أمي تقول هذا دائمًا».

أومئ برأسي، وأتساءل ماذا سيحدث لو نهضت وسرت مبتعدًا عنه. أنظر بسرعة داخل الكرتونة الطويلة التي خرج منها لتوه وأرى عددًا من الأكياس البلاستيكية المربوطة جيدًا، ولحافًا أخضر رثًا، وكوب قهوة بنجمة ذهبية إلى جانبه، وبداخله قلمان، فرشاة أسنان، ونظارة. توجد بعض الجرائد أيضًا بالداخل. رأيت متسولين من قبل. كانت أمي تمنحهم ما تجده في جيبها من عملات أو دولار واحد.

كانت تقول دائمًا إن *هذا يُعينهم قليلًا. ويساعدنا نحن كثيرًا*.

«نعم، ليس بالشيء الكبير، لكنه بيتي»، يقول. أخجل لأنه رآني أحدق.

«أتعيش هنا؟»

«نعم»، يقول ضاحكًا. يبدو عجوزًا بما يكفي ليكون جدّ أحدهم، لكن ربما كان ذلك بسبب الشعيرات الرمادية في لحيته البنية. «إنها ضيعتي الصغيرة».

أومئ برأسي وأنظر إلى الشارع، أريد أن أغادر لكنني لا أريد أن يظن الرجل أن هذا بسببه. يراني أتململ.

«هل ينتظرك أحد؟» يسأل ويبتسم كاشفا عن أسنانه.

«لا. أعني، نعم. خالتي، لكنها لا تنتظرني حقًا. بل لا تعرف أنني قادم». أنا أتحدث كثيرًا.

«هكذا تفعلها. فاجئهن كي لا يختلقن قصصًا عن موعد الطبيب».

أبتسم بأدب.

«لا أظنها قد تفعل هذا»، أقول.

«لا تظن، هاه؟ حسنًا أنت إما محق وإما مخطئ. أليست هذه حكمة؟ وهي مجانًا، ولدي مزيد منها».

منذ أن بدأتُ السير على قدميّ والجميع يخبرونني ألا أتحدث مع غرباء، ومع ذلك ها أنا ذا. يرفع الرجل رأسه نحو السماء.

«سيأتي الشتاء قاسيًا جدًّا هذا العام. كنا محظوظين العام الماضي».

إنه ليس مخيفًا. لم يسألني عن اسمي. لا يبدو مهتمًّا بكوني وحدي بلا صحبة شخص كبير.

«كيف تعرف؟» أسأله.

«شيء ما...» يرفع أنفه لأعلى كأنه يحاول التقاط رائحة ما. «شيء ما في الهواء. وكذلك لاحظت حلقات كثيرة حول القمر. علمني جدي هذا هناك في بلدتنا».

«لم أظن أن للقمر حلقات».

يضحك.

«ألم ترَ هالة ضوء حول القمر من قبل؟ علمني جدي ملاحظتها حين كنت صغيرًا. إنها طريقة مؤكدة للتنبؤ بالطقس القريب».

«من أين أنت؟» أسأله وأحاول تخيل هالات الضوء حول القمر.

«كِنساس»، يجيبني ويتنحنح. يرتدي قفازات بلا أصابع. «هل سافرت إلى هناك من قبل؟»

«لا. لكنني سمعتُ عنها».

«هذه بداية. سماؤها كبيرة بلا نهاية تلقي بصواعق الرعد. وناسها بقلوب واسعة كالسماء».

«لماذا غادرتها؟»

أميل بظهري إلى جدار البناية.

«التحقتُ بالخدمة العسكرية».

أعاود النظر إلى النجمة على كويه وأفهم معناها.

«أكنتَ في الجيش؟»

يومئ برأسه. أتذكر أن والدي عمل مع جنود أمريكيين- كانوا أصدقاءه. يجعلني هذا أرحب بالحديث مع الرجل. أتساءل إن كان أبي سيسره أن يراني معه.

«خدمتُ في مواقع عدة قبل إرسالي إلى بنما».

«لا أعرف موقعها»، أصارحه. إن كان قد أحبط لأنني لا أعرف شيئًا عن الموقع الذي حارب فيه، فلم يبد عليه شيء.

«إنها فردوس صغيرة في أمريكا الوسطى. قضيتُ ثلاثة وعشرين يومًا أسودَ هناك. عدت بكتف مكسورة وأذن لا تسمع شيئًا إلا من مكبر صوت»، يشير إلى أذنه اليسرى. «كان ذلك منذ اثنين وعشرين عامًا. عدت بعد شهر واحد أشعر أنني عجوز طاعن في السن».

لا أعرف شعوري اليوم، لكنني متأكد من أنني لست فتى في الثانية عشرة من عمره. أفرك ساقيّ. يؤلماني من السير طوال اليوم.

«توجد حروب كثيرة في أفغانستان أيضًا». ألف حزام حقيبة ماكس حول رسغي وأشده لينضغط في جلدي.

«توجد حروب كثيرة في كل مكان. يبدو أنهم لا يمكنهم العيش من دونها». يقول ويضحك مجددًا. يجعله صوته المبحوح يبدو

مُتعَبًا وحكيمًا. «نجد دائمًا سببًا للحرب. يبقينا هذا متشوقين إلى السلام، على ما أظن».

ألاحظ أنه كان يقرأ الصفحة نفسها التي كنت أقرؤها عند الكشك. عنوان أفغانستان على مسافة عدة أقدام مني.

«أمي من هناك»، أقول وأنا أشير إلى الجريدة. «أفغانستان».

«همف». يعتدل ويجلس متربعًا. «أراهن أنها سعيدة لأنها رحلت من هناك».

«لقد أُعيدت لتوها»، أجيبه، وأندم على ما قلته فورًا. ماذا لو عرف أنني وحدي؟ ماذا لو أبلغ عني الشرطة؟ لكنه لا يبدو مدهوشًا.

«هذا قاسٍ»، يقول ببطء. «لدي أصدقاء يخدمون هناك. أناس رائعون. ومكان قاسٍ. ولدينا الآن فتى بلا أمه. هذه أخبار سيئة أخرى».

لا شفقة في صوته. بل يعلن حقائق فحسب. يسعدني هذا. لأنني على وشك الانهيار هنا. ولو أظهر شفقة نحوي، فقد يقضي عليّ هذا فورًا.

«كان أبي يعمل مع جنود أمريكيين في أفغانستان. كان مترجمًا».

«حقًا؟» يقول مدهوشًا. «يستحيل العمل من دون مساعدة أصدقاء من أبناء البلد».

أسمع صوت وشيش وصوت آلي.

«اصطدام مركبتين خارج نفق هولاندا مباشرة. لا إصابات».

«ما هذا؟» أسأله.

«هـذا مذياعـي»، يقـول ويمـد يـده فـي الكرتونـة ليخـرج جهـازًا لاسـلكيًا أسـود صغيـرًا. «سـرقت هـذا الصغيـر ليمكننـي التقـاط محادثـات الشـرطة. إنهـا مسـلية أكثـر مـن أي شـيء آخـر علـى موجات الأثيـر. وأفضـل مـن انتظـار الأخبـار علـى صفحـات الجرائـد».

«يمكنك سماع ما تقوله الشرطة من هنا؟»

ينظـر إلـيّ بفضـول، فأنـدم علـى السـؤال. لا أريـده أن يظـن أن لـدي سـببًا للاسـتماع إلـى محادثـات الشـرطة.

«ليـس كل شـيء. تأتـي المحادثـات متقطعـة فـلا أسـمع سـوى مقاطـع. أيهمـك هـذا؟»

«لا»، أقـول وأهـز رأسـي. «فقـط لـم أر جهـازًا لاسـلكيًا يمكنـه هـذا مـن قبـل».

تقرقر معدتي بصوت عالٍ، أعلى من اللا سلكي حتى.

«جوعـان؟ لـدي بعـض الرقائـق بطعـم الجبـن. يخـرج خمسـة أكيـاس صغيـرة، مـن النـوع الـذي يوزعونـه فـي وجبـات المـدارس. «يمـر رجـل مـن هنـا مرتيـن أسـبوعيًا ويسـلمني كومـة مـن هـذه الأكيـاس. لا شـيء آخـر أبـدًا. هـذه فقـط».

تبدو لي الآن هذه الأكياس الصغيرة أغلى من الذهب.

«أنـا.. جوعـان جـدًا»، أقـول بإحـراج شـديد لأننـي آخـذ طعامًـا مـن رجـل يعيـش فـي كرتونـة، لكننـي لـم أتنـاول شـيئًا بعـد الشـطيرة التـي تقاسـمناها أنـا وماكـس.

«أنـت تعـرف»، يقـول بمـرح. «حتـى الفئـران القـذرة تأنـف تنـاول هـذا الشـيء».

أبتسـم مدهوشًـا مـن حسـه الفكاهـي. يخطـر لـي فجـأة أن عليـه أن يكـون مـع أسـرته. لمـاذا ليـس كذلـك؟

«لماذا لا تعود إلى كنساس؟» أسأله.

ينظر عبر الشارع ويبدأ قرض أظافره.

«لا يمكنني. لقد تركت كنساس وأنا طفل صغير لم ير ظلمًا في حياته. كانت أهم مسؤولياتي وضع أخي الصغير في مهده. لكنني أُرسِلت إلى بنما. يا فتى، ما إن ترى الظلم، ما إن تقترب منه كثيرًا فيلطخك، لن تعود كما كنت من قبل أبدًا. حين عدت إلى بلدي وتظاهرت أنني ذاك الفتى الصغير مجددًا، لم أكن كذلك حقًا، ولم أستطع مواصلة التظاهر. لم أعد أنتمي إلى هناك».

«لكن ماذا عن عائلتك؟ ألم يطلبوا منك البقاء هناك؟».

«لا أظن ذلك»، يقول ويطرق برأسه بخجل. «ظني أنهم وجدوا صعوبة في التعامل معي. وأصدقائي القدامى كذلك. لا بد أنهم ارتاحوا جميعًا حين غادرت».

لا أعرفه جيدًا، لكنه يبدو من النوع الذي يرحب الآخرون بوجوده. ظني أن الحديث معه لطيف.

لكن ما قاله يجعلني أفكر. هل سأعود يومًا ما جيسون دي الذي استيقظ صباح الجمعة؟ هل سأعود يومًا ما إلى إلكتون؟ ماذا سأقول لمِس راز أو لمستر فازيو في المغسلة؟ ماذا سيقول معلميّ لو عرفوا بما حدث لأمي؟ هل سيطردونني من الفصل؟

«أنت تسأل أسئلة كبيرة بالنسبة إلى سنك. ما اسمك؟» يسألني فأشعر كأن سؤاله يضغط عليّ كدمة.

«جيسون دي»، أجيبه.

«أنا بارتلي».

«معذرة لأسئلتي الكثيرة مستر بارتلي».

يرفع كتفيه، وياقة سترته أيضًا. «أفضل من ألا تسأل إطلاقًا».

أصمت لوقت ثم أستدير إليه مجددًا.

«إن كانت كنساس لم تعد بلدك، هل تشعر بنيويورك كذلك؟»

«لا بد من هذا. إنها بلد الجميع. فيها الفقير والغني. الصغير والكبير. للكوريين موقعهم، وللصينيين بلدتهم، وللإيطاليين شوارع قليلة أيضًا في البر العلوي، وللروسيين حيهم في بروكلين».

أتمنى أن أجد مكانًا أنا أيضًا.

«أمريكا بكاملها على جزيرة صغيرة واحدة»، يقول. «هذه هي نيويورك».

يصعب تصديق أن نيويورك جزيرة. لم أر لا نخيل ولا شواطئ رملية. يصعب كذلك تصديق أنها جزيرة صغيرة. بمبانيها الأطول من أي شيء رأيته من قبل. يبدو السنترال بارك كأنه يمتد بلا نهاية. كل شيء كبير جدًا في مكان صغير. وأنا أبحث عن شخص واحد على هذه الجزيرة بين الملايين.

أنظر إلى بارتلي. يزم شفتيه بحدة. غارق في التفكير، يبتلع ريقه بصعوبة، ويعبث بقرص الجهاز اللا سلكي. ألاحظ ارتعاش يديه قليلًا، وأتساءل إن كانت عائلته في كنساس تعرف كيف يعيش.

«لا بد أن عائلتك فخورة بك حقًا. وأنا واثق بأنهم كانوا سعداء حقًا بعودتك. ربما لم يعرفوا ماذا يقولون فحسب».

أتذكر مِس راز وكيف كانت تغمغم بكلمات شكر بدائية حين نرسل إليها طعامًا. يرفع بصره إليّ. يسعل ثم يمرر أصابعه في شعره.

«أنا واثق بأنهم يفتقدونك».

تلمع عيناه الدامعتان في الضوء الهادئ لنهاية الظهيرة.

«كنت خائفًا من العودة أكثر مما كنت خائفًا وأنا في بنما»، يقول بهدوء. يسكت قليلًا ثم يردف «يومًا ما ربما. لا تقل أبدًا أبدًا، صحيح؟»

«الأفضل أن أواصل سيري»، أقول له. تأخر الوقت. بدأت الشمس تختفي خلف المباني.

«انتظر يا فتى»، يمد يده لي بجهاز اللا سلكي. «لماذا لا تأخذ هذا؟ أنا لا أحتاج إليه الآن».

«حقًا؟»

«ولماذا لا؟» يسأل. «ظننتُ، حين كنت طفلًا، أن أجهزة اللا سلكي أروع شيء في العالم. استخدمتُ جهازي الأول حتى تهالك تمامًا ولم أستطع لصق أجزائه معًا مرة أخرى. أنت في حاجة إلى شيء ما صغير لجعل يومك أفضل».

آخذ منه جهاز اللا سلكي.

«شكرًا لك بارتلي».

«أسعدني التحدث معك أيها الشاب»، يصيح وأنا أنهض. يحدق في الأرض. يتنهد ببطء، خداه منتفخان ومستديران. «أسعدني التحدث معك حقًا».

أسير مبتعدًا عنه، زاد ثقل حقيبة ماكس قليلًا بوزن جهاز اللا سلكي. لا أعرف لماذا أعطاني إياه، لكنه أشعرني بقدر أكبر من الأمان.

أمر بكتلة مبانٍ أخرى ثم يخطر لي فجأة شيء ما قاله بارتلي.

هذا مستحيل. كم ساعة قضيت لأصل إلى هنا؟

أخبرتني خالتي سيما أنها على مبعدة كتلة مبانٍ واحدة من مطعم دومينيكاني شهير.

نيويورك بلد الجميع، قال بارتلي.

أجلس على صنبور حريق. تعبر السماء غيوم كثيفة تحجب الشمس. ينتشر برد قارس فجأة فتتجمد أطراف أصابعي.

ألف ذراعيّ حول ركبتي. لا يمكنني رفع بصري. ليس الآن. وليس وقد أدركت لتوي أنني كنت في المسار الخاطئ.

الفصل الخامس والعشرون

كان عليّ أن أدرك هذا من قبل. ربما كنت سأفعل لو كنت قد توقفتُ لأفكر. أخبرتني خالتي سيما أنها تسكن بالقرب من مجموعة مطاعم دومينيكية. قال بارتلي إنني على مبعدة مئة شارع من الحي الدومينيكاني في المدينة. خالتي سيما لا تعيش في الشارع الرابع والسبعين، بل في الشارع مئة وأربعة وسبعين. لا بد أن الرقم واحد في العنوان قد تمزق مع اللاصق.

ربما كنت مخطئًا؟ بالطبع لا. المباني هنا لا تشبه الصورة في شيء. ولا يوجد مطعم دومينيكاني واحد في مجال الرؤية. يؤسفني أنني لم أفهم هذا حتى الآن.

كيف سأقطع مسافة المئة شارع؟ أنا منهك وجوعان، ولا شك الآن في أن دماغي ينبض بألم. ألمس الورم مجددًا. يذكرني بسير كل شيء على نحو خاطئ في كل مرحلة من الطريق.

أسمع تكة من خلفي فأدرك أنه باب ينفتح. أنهض وأواصل السير على جانب الطريق كأن بيتي بالقرب من هنا. قررتُ التوجه إلى السنترال بارك. إن استطعت السير بحذاء حدوده الشمالية، سأصل في النهاية إلى الشارع مئة وأربعة وسبعين. عبور الشوارع لا يستغرق وقتًا طويلًا، أذكر نفسي، كذلك قطع مسافة مئة شارع ليس مستحيلًا.

أمر بكومة كراتين بارتلي لكنه ليس هناك، ثم كشك الجرائد. المتحف على مسافة شارعين فقط والمتنزه على الجانب المقابل

منه. أمر بواجهات المحلات لأعبر الشارع عند التقاطع التالي.

إلى يساري عمارة سكنية فخمة بطوابق ونوافذ أكثر بكثير من عمارة مِس راز ذات الطوابق الثلاثة. أبقي عيني على أرض الرصيف، أرفع بصري من حين إلى آخر لأتأكد أن لا أحد ينظر إليّ بفضول، ومن أنني لم تفُتني لافتة شارع. على مقربة خطوات قليلة عمارة بنوافذ طويلة في طابقها الأرضي تتيح رؤية الداخل. أنظر من خلف زجاج نافذة فأرى ثلاثة أشخاص يجلسون على مقاعد بذراعين. أمامهم طاولة عليها مجلات. والتلفاز مثبت أعلى حائط، تظهر فيه امرأة ترتدي بذلة وتقرأ الأخبار من خلف مكتب. أرى شيئًا ما يجعلني أتجمد في وقفتي.

حين تختفي مذيعة الأخبار. تظهر على الشاشة صورة مدرسية، بخلفية زرقاء والعلم الأمريكي إلى جانبها.

الصورة لوجهي.

إنها صورتي المدرسية التي أُخذت لي بداية هذا العام الدراسي. أرتدي سترة بنية، وأبتسم ابتسامة واسعة. كان ذلك قبل أن تخبرني أمي بأنها غير مسموح لها بالإقامة في أمريكا بشهر تقريبًا. ثم تختفي صورتي من الشاشة ويظهر المستشفى.

أستغرق لحظة لاستعادة تنفسي. بطريقة ما عرفوا في المستشفى من أكون. استطاعوا أيضًا الحصول على صورتي المدرسية ونشرها في الأخبار. يُجمّدني الذهول. لم يسبق لي رؤية وجهي في أي شيء سوى مرآة الحمام. لم أتوقع قط رؤيته على شاشة تلفاز في مدينة نيويورك! حين أفيق من ذهولي، أنظر حولي لأرى إن كان أحد يلاحظ أنني صاحب الصورة التي على

شاشة التلفاز. لحسن الحظ، لا أحد يتابع الأخبار حقًا. إنهم جميعًا مشغولون باللعب بهواتفهم.

أدس يدي في جيبي وأواصل السير، رأسي مطرقًا. أتمنى أن يمكنني التنكر بطريقة ما، لكنني ليس لدي قبعة حتى. أقف أمام المتحف، يسهل الذوبان في زحام الأسر وأطفال كثيرين من سني. أنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع وأرى شاحنات الطعام عند حافة المتنزه. يجب أن أعبر الشارع الآن وأختفي في المتنزه. أقف أمام السلم العريض المؤدي إلى المتحف حين أسمع رنين في الحقيبة.

إنه هاتف ماكس. لا أجرؤ على الرد.

«أهذا هاتفي؟» تقف شابتان على مقربة أقدام قليلة مني. تفتح إحداهما، بشعر أسود قصير وأحمر شفاه لامع، حقيبتها وتبدأ البحث فيها. يواصل هاتف ماكس الرنين. أتحرك لأخلع الحقيبة عن ظهري. يجب أن أغلقه الآن.

«لدى الآخرين هواتف أيضًا، أتعرفين؟» تعلق صديقتها بسخرية.

«أها!» تصيح ذات أحمر الشفاه اللامع وهي تخرج هاتفها من حقيبتها. «وجدته».

لا يتوقف الرنين لأنني لم أخرج هاتف ماكس من الحقيبة بعد. يعلو صوت الجرس حين أخرجه، فتلتفتا إليّ.

«آسف»، أقول وأنا أرفع كتفي، أضغط زر رفض الاتصال. «كان هاتفي».

إنه الرقم نفسه الذي اتصل من قبل. بالطبع لن أجيبه وأنا في الشارع بشابتين تحدقان فيّ. أعيد الهاتف إلى الحقيبة بطريقة طبيعية ما أمكنني. أرفع بصري فأرى إحداهما تلكز الأخرى بمرفقها فتومئ لها الأخرى وهي تؤكد «نعم، إنه هو بالتأكيد».

«أأنتِ متأكدة؟» تسألها صديقتها بصوت يعلو بدهشة. أشعر بمعدتي تهوي. هل أهرب؟

«أنت تعرفين، أنا لا أخطئ وجهًا أبدًا. إنه هو بكل تأكيد».

«ماذا نفعل؟»

تحدقان فيّ بتركيز، ربما لظنهما أنني سأحاول الهرب.

تتوقف امرأة تحمل حصيرة يوجا تحت ذراعها، وتنضم إليهما.

«أوه»، تصيح. «غير معقول!»

يعود جسدي إلى الحياة. أستدير لأعبر الشارع فأصطدم ببطن رجل يحمل كاميرا كبيرة ينظر فيها بإحدى عينيه. أتراجع خطوتين فأجد الكاميرا موجهة نحوي.

«صوِّره يا بابا!» يصيح الطفلان إلى جانب الرجل. «صوِّره!»

يبدو أن الجميع قد رأوا وجهي في التلفاز. يبدو لي أنهم يحدقون فيّ، يهمسون لأصدقائهم، وبعضهم يشير نحوي حتى. ظللت أتساءل منذ بداية هروبي، متى سينفد حظي.

الآن أعرف.

الفصل السادس والعشرون

أغطي وجهي بيدي، وأسمع تكّات الكاميرا.

«أنت لا توضحه جيدًا يا بابا».

«نعم، أنت لست محترفًا».

«أنتما يا رفاق من تريدان تصويره! أنا لا أحب أفلامه حتى!»

أفلامه؟

أنظر من بين أصابع يدي وأرى الكاميرا ليست موجهة نحوي. بل لأعلى رأسي. أستدير وأرى رجلًا يرتدي سترة رياضية بلون رمادي فاتح وتيشيرتًا أبيض. بنطاله الجينز داكن ومهترئ عند الأطراف. يرتدي نظارة شمسية وقبعة بيسبول ويمسك بمقود كلبه، لو كان يحاول التخفي، فلم ينجح في ذلك إطلاقًا. حتى أنا عرفته.

شاهدته من قبل يهزم آليين احتلوا الأرض. ويقبض على عصابة لصوص مجرمين. ويدرب فريق في الدوري الصغير خلال موسم تحول. أفهم ببطء أنني لست من ينظر إليه الجميع. بل ينظرون إلى جافين هوبويل.

أنا نفسي أنظر إليه.

يشده كلبه المتعجّل. يوقع أوتوجرافًا لفتاة، تخفي قبعته تعبير وجهه. أعرف الآن ماذا يعني الانبهار بالنجوم. لا يمكنني رفع بصري عنه. كان لديه، في فيلم الخيال العلمي ذاك، عضلات صدر تبدو كجذع الشجرة قضى بها على الآليين الأشرار. يردد

دائمًا أفضل الجمل، وتجعلها لكنته الأسترالية أفضل حتى. فيلم فريق الدوري الصغير هو المفضل لديّ مع ذلك. مجموعة فتية من الحي الفقير في المدينة لا يسعهم تحمل كلفة الملابس والمعدات بآبائهم يعملون في عملين أو أكثر. يؤدي جافين هوبويل دور مدرب مطرود من الدوري الرئيس، لذلك اعتاد التعامل مع رياضيين حقيقيين، وليس مجموعة من الصبية. حين بدأ الفيلم كانوا بالكاد يجدون القاعدة الأولى، لكنهم، بعد ذلك بمئة دقيقة، صاروا ينزلقون في الملعب كلاعبي نهائيات كأس العالم.

فعلها جافين لهم. حولهم من زمرة من الخاسرين إلى أبطال. في المشهد الأخير، وقف يودع واحدًا منهم بعد أن دربهم طوال الموسم. وضع يده على كتفه، فابتسم له الفتى. قصة من النوع الذي يجعل الجميع سعداء، لأنه من ذا الذي لا يريد الفوز لطفل؟

أتذكر هاتف ماكس في الحقيبة. أُخرجه وأفتحه. أفتح الكاميرا وأوجهها إلى جافين. يصعب التقاط أكثر من مرفقه لتجمع الناس حوله. أنظر حولي بسرعة، لا أحد ينظر إليّ. ولماذا ونجم هوليوودي على مقربة أقدام قليلة؟

«جافين، أحببتك في «تم القبض عليه!»

«الشمس لا تشرق إلا حين آمرها»، يصيح فتى، يقعر صوته ليقلد اللكنة الأسترالية. واحدة من تلك الجمل التي تبقى معك لوقت طويل بعد نهاية الفيلم.

يرفع جافين يده ويبتسم. أقترب أكثر منه. لو أمكنني إعادة هذا الهاتف إلى ماكس يومًا ما، سيسعدها أن تجد عليه صورة جافين هوبويل. أنزلق بين المتجمعين حوله وأنا أحتضن الحقيبة،

محاولًا أن أكون نحيفًا ما أمكنني، يفلح هذا، اقتربت بما يكفي لأرى أنه يربط حذاءه بعقدة مزدوجة. أوجه كاميرا الهاتف نحوه. أضغط وألتقط له عدة صور وهو يتحدث. تبدو مهزوزة. أريد أن أعتقد أن هذا لأنه يتحرك، لكن الحقيقة أن الصور مهزوزة لأن يديّ ترتعشان.

«إنه يوم رائع. يسعدني أن أرى الجميع بالخارج هنا»، يقول جافين بمرح. لا يصيح، بل يتحدث بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه من حوله. يتصرف كأننا جميعًا نسكن بناية واحدة وأننا تقابلنا مصادفة في الرواق.

«لكنتك رائعة!» يصيح صوت، فينفجر الجميع بالضحك. أستدير لأرى أنها المرأة التي تحمل حصيرة اليوجا تحت ذراعها.

«مثل لكنتك يا حبي»، يقول مبتسمًا. يبدو أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام. ألاحظ أنه ليس طويلًا كما يظهر في الأفلام. يحدق فيه الناس، في انتظار أن يفاجئهم بشيء ما يمكنهم نشره على الفيسبوك الليلة. ينظر حوله ويرفع حاجبيه. ثم يميل ليهرش رأس كلبه. «انظر إليهم يا ريكس. لقد ركضوا لمسافة طويلة ونحن لا نفعل شيئًا سوى السير».

يزداد الضحك.

«نعم، نعم». يرفع كتفيه ويربت على كلبه مرة أخيرة. أتذكر الكلب الذي سرق مني حقيبتي في إلكتون. يبدو ريكس ألطف منه بكثير، لكنني أمسك حقيبة ماكس جيدًا من باب الاحتياط. أود أن ألتقط لجافين صورة أفضل لكنني لا أريد أن أضايقه أيضًا.

«ماذا عنك ياصديقي؟ أتركض أنت أيضًا؟»

يخاطبني. أتنحنح وأومئ.

«هـذا ...» ينظـر إلـيّ كأنـه ينتظـر إجابتـي حقًـا. تفلـت مـن شـفتي قطعـة مـن الحقيقـة. «هـذا يتوقـف علـى مَـن يطاردنـي».

يضحك بصـوت عـالٍ ويلكزنـي بقبضتـه فـي كتفـي. الحركة نفسـها التـي فعلهـا وهـو يلعـب دور المـدرب، لأفضـل لاعـب فـي الفريـق، الفتـى الـذي لا يتحـدث والـداه الإنجليزيـة.

«أوه، أنتـم الفتيـة الأمريكيـون عصابـة أذكيـاء حقًـا!» يقـول بمـرح. «أأنـت متابـع جيـد للأفـلام؟»

«لأفلامـك، بالطبـع. أنـت لا تـدع شـيئًا يُوقفـك»، أقـول ناسـيًا تجمـع النـاس حولنـا. «لهـذا أنـا وصديقتـي نحـب أفلامـك جـدًا».

يخلـع نظـارة الشـمس ويعلقهـا فـي ياقـة تيشـيرته. يطـرف بعينيـه. تبـدو الخطـوط علـى جانبـي عينيـه وهـو ينحنـي لينظـر إلـيّ فـي عينـيّ مباشـرة.

«مـن السـهل أن تكـون شـجاعًا أمـام الكاميـرا وفـي المشـاهد المصطنعـة. لكـن الواقـع الحقيقـي مختلـف تمامًـا، أليـس كذلـك؟»

أومئ برأسي.

«الواقـع الحقيقـي صعـب حقًـا»، أقـول بهـدوء. لمـاذا لا يمكنـه أن يتحـول إلـى أحـد أبطـال أفلامـه ويبحـث لـي عـن أمـي ويعيدهـا إلـيّ؟ أتخيـل المشـهد كأنـي رأيتـه فـي فيلـم مـن قبـل بالفعـل. تعانقنـي أمـي، ثـم ينظـر كل منـا إلـى جافيـن بامتنـان وهـو يبتعـد ويمـس حافـة قبعتـه بيـده بخفـة.

يضع يده على كتفي ويضغط برقة. تقع عيناه على الهاتف الذي أمسكه. يمد يده ويرفع حاجبه قائلًا «أتمانع؟»

أناوله الهاتف. يخطو فوق مقود ريكس ويقف بجانبي. ينحني لأسفل قليلًا، وبيد واحدة يلتقط لنا صورة نحن الاثنين معًا. يعيد لي الهاتف ويلوح بيده للمتجمعين حوله، وداع بسيط.

أنتم الأطفال الأمريكيون. هذا ما قاله لي.

هل أبدو له أمريكيًا؟ ظني أنني أبدو مثل زملائي في الفصل، لكنني لا أعرف أيهم أمريكي أيضًا.

يسير مبتعدًا. يراقبه الناس ينعطف ويختفي خلف مبنى. يبدو ريكس أسعد كثيرًا الآن لأنه يواصل سيره، يهتز ذيله المنفوش من خلفه.

«إنه رائع!» تقول لي فتاة وهي تنظر إلى الهاتف في يدي وتبتسم. «لقد التقط لنفسه صورة معك كأنكما صاحبين قديمين أو شيء كهذا! انتظر، أتعرفه؟»

أهز رأسي، فتقول شيئًا آخر لا أسمعه بسبب ضجة أفكاري العالية. أراقب ظهرها وهي تسير مبتعدة. ما زلت أتساءل إن كنت أمريكيًا. بالطبع، لقد ولدتُ في أمريكا، لكن، لو لم يكن مسموحًا لأمي بالبقاء في أمريكا، فهل ما زلت أمريكيًا؟

تفرّق الجمع. عليّ مواصلة السير كي لا ألفت الأنظار. أرى شاحنات الطعام ما زالت مصطفة عند حافة المتنزه. أسير حتى التقاطع وأنضم إلى من ينتظرون الإشارة لعبور الشارع.

المتنزه يناديني. أريد أن أختفي فيه وألوذ بالأشجار والأجمات بعيدًا عن بقية العالم. أمر بصف شاحنات الطعام وأرى بعضها

بدأ يُغلق. أختفي تحت الأشجار بالفعل حين يصدر عن الجهاز اللا سلكي ضجة مشوشة.

«منبه آمبر شوهد طفل في الشارع الرابع والسبعين يتحدث مع رجل متشرد والشاهد أحد سكان الحي. إلى الوحدات في المنطقة، لنذهب إلى هناك ونطرح بعض الأسئلة».

أضغط بظهري جذع الشجرة. أتمنى لو كان مجوفًا لأختبئ بداخله. تتسارع أنفاسي. الواقع الحقيقي أكثر رعبًا من أي فيلم رأيته أو لم تسمح لي أمي برؤيته.

أنظر حولي فلا أجد شيئًا سوى المروج الخالية وممرات السير. سأظل لافتًا للأنظار في أي مكان أتوجه إليه. أنظر إلى سماء الغروب. يوجد قمر أبيض كامل، باهت جدًّا إلى حد يبدو شفافًا. تتفرق كتل السحب هنا وهناك. سيحل المساء قريبًا أيضًا، ما يقلقني. ماذا سأفعل؟

إنهم يغلقون المتنزه عليّ، على ما أظن، أتذكر صورتي المدرسية على شاشة التلفاز. إنهم يبحثون عني، وصار الاختباء أصعب.

الفصل السابع والعشرون

أسير إلى حافة المتنزه. أريد أن أرى إن كان هناك أي أضواء أو صافرات إنذار تقترب. هل سيستجوبون بارتلي حقًا؟ سيخبرهم بما يعرفونه فقط. من الجيد أنني لم أفهم أن عليّ التوجه إلى الشارع مئة وأربعة وسبعين قبل أن أتركه. لن يخبرهم بشيء لا يعرفه.

اجتزت الشارع الرابع والسبعين بعدة كتل مبانٍ، لكنها ليست مسافة كافية، وظني أن الشرطة ستبدأ البحث في المنطقة ما إن تصل إلى الشارع الرابع والسبعين. هل أجرؤ على العودة إلى محطة قطار الأنفاق؟ إنها الوسيلة الأسرع للتنقل في المدينة، لكنها خطِرة لأن عليّ إيجاد محطة، ولا أعرف أين أقرب واحدة من هنا.

أجلس على الأرض تحت شجرة زيزفون. غير مرئي تقريبًا خلف سلة قمامة خضراء مستديرة. يصدر من داخلها صوت خربشة على معدن.

ما زالت شاحنتا طعام هناك، اختفت شاحنة الكباب. يغلق رجل نافذة شاحنة التاكو. يلوح للمرأة ذات الشعر البني في شاحنة لاكازيتا المخططة بالأحمر والأبيض والأزرق. تلوح له وتراقبه من الرصيف وهو ينتقل إلى مقعد السائق ويغلق بابه.

ترتدي بنطال جينز ومعطفًا أزرق منتفخًا. درجة الأزرق ذاتها التي تغطي ثُلثَ عربتها. تلتقط المناديل وأدوات الطعام البلاستيكية التي ألقاها الزبائن خارج عربتها وتضعها في كيس بلاستيك. ينفتح باب العربة الجانبي وتخرج منه فتاة.

«مامي، دعيني أساعدك»، تصيح وهي تمد يدها لتأخذ الكيس من أمها.

«لا بأس، يا حبي. أنجزي فرضك المدرسي فحسب. إنه الأهم. يمكنني إنهاء العمل وحدي».

في هذه المرأة شيء ما دافئ ومألوف. تذكرني بأمي رغم انعدام الشبه بينهما. لكنها، مثل أمي، لديها لكنة خفيفة، مختلفة تمامًا عن لكنة أمي مع ذلك.

تضع ابنتها، فتاة بشعر أسود ناعم وعينين داكنتين، قلما خلف أذنها وتأخذ الكيس من أمها.

«اهتمي أنتِ بالطعام الذي بالداخل. هكذا سننهي العمل بشكل أسرع».

تقبل أمها رأسها كعلامة على موافقتها. تدخل العربة من بابها الخلفي وتغلق إطار نافذة الخدمة. تلتقط الفتاة مزيدًا من المناديل والأكواب الورقية. حين تنتهي من جمع كل شيء، تسير نحو سلة القمامة القريبة مني.

ألاحظ وهي تقترب أنها في المرحلة الإعدادية غالبًا. ترتدي قرطًا ذهبيًا صغيرًا وسترة ثقيلة وردية. أحاول النظر بعيدًا كي لا تظن أنني أتلصص عليها، لكن الجهاز اللا سلكي يصدر ضجته المشوشة. تلتفت حولها بحدة وتراني عند الشجرة.

«أوه! لم أرك».

أمنحها ابتسامة سريعة، أنهض، وأنفض بنطالي. «آسف، لم أقصد مفاجأتك».

تومئ برأسها، وأراقبها وهي تحاول وضع الكيس في السلة الممتلئة، تدفعه بيديها الاثنتين.

ترفع يديها فيصدر من السلة صوت خشخشة وقعقعة.

«ما هذ-ا!» تصيح مدهوشة.

يقفز سنجاب رمادي من السلة فجأة كالألعاب النارية في الرابع من يوليو. يحط على كتفيها بشكل لا يصدق. تصرخ، فيقفز السنجاب على الرصيف. تتحرك قوائمه الضئيلة بسرعة شديدة إلى حد أن يتغبش منظره، ويختفي في المتنزه.

أقف إلى جانبها فورًا. تتعثر للخلف وتصطدم قدمها برفرف دراجة. أتدبر إسنادها وهي تترنح نحوي. نسقط أرضًا معًا، لكنني أمتص سقطتها.

«أأنتِ بخير؟» أسألها. للحظة أنسى رغبتي في الاختباء.

تلمس كاحلها بيدها وتضحك بتوتر.

«أنا بخير. هل أنت كذلك؟» تسألني وهي تنظر إليّ لترى أي إصابات. لا شيء. سقطت على وركي وبالكاد خدشت راحتي في الأسمنت.

«أنا بخير. كان ذلك سنجاب مجنون؟ صحيح؟» أقول وأنا أنهض.

«ليزا!» ينادي صوت. أستدير لأرى الباب الجانبي للعربة مفتوحًا. تركض المرأة ذات المعطف الأزرق نحو ابنتها. «أكان السنجاب على كتفك الآن؟»

«أنا بخير يا مامي!» تقول لكنها ما زالت على الأرض. «ظني أنني أخفته أيضًا!»

«أأنت متأكدة من أنك بخير؟» تبدو أمها قلقة.

«أوف، ظني هذا». تحاول النهوض، فأمد لها ذراعي. تبتسم وهي تمسك بها لتنهض.

«شكرًا!»

«عفوًا»، أجيبها بهدوء.

«لم أقابل سنجابًا طائرًا من قبل»، تقول ويداها في خصرها. تقف أمها إلى جانبها الآن، عيناها البنيتان الدافئتان قلقتان. تتفحص ابنتها للتأكّد من أنها بخير.

«من أين أتى؟» تسأل أمها. تذكرني بأمي مجددًا. ربما بسبب الخطوط الناعمة في وجهها. ربما طريقتها في الابتسام أو لمس رأس ابنتها. ثم تلتفت إليّ.

«وأنت سيد محترم!» تقول.

«إنه لا شيء»، أقول وأنا أرفع كتفيّ.

«لا أصدق هذا»، تقول المرأة وتهز رأسها. تنظر إليّ وهي تضيّق عينيها، نظرة الأم حين تشك في شيء. «كان كرم أخلاق منك أن ساعدتها. أأنت جوعان؟ لدي بعض الإمبانادا المحشوة بالسبانخ والجبن في الشاحنة- وما زالت دافئة».

«إنها إمبانادا[7] شهية حقًّا»، تقول ابنتها وهي تومئ برأسها.

تشير لي المرأة بيدها أن أتبعها. تصعد إلى الشاحنة من الباب الخلفي وتناولني قطعتي إمبانادا، دافئتين كما قالت، ملفوفتان في ورق شمعي. بعد بسكوت الجبن الذي لم يسد جوعي كثيرًا، تبدو رائحتهما طيبة حقًّا الآن.

---

(7) أكلة شهيرة من مطبخ أمريكا اللاتينية، من معجنات محشوة مخبوزة أو مقلية (المترجمة)

«أين أمك أو أبوك؟ أريد أن أخبرهما أن يفخرا بك، لمساعدتك فتاة صغيرة». تنظر حولها، تنتظر ظهور شخص ما كبير يناديني.

«أمي في مكان ما هنا في الأنحاء»، أقول محاولًا أن أبدو قابلًا للتصديق. «ستأتي في أي لحظة».

«أنت لست هنا وحدك، أليس كذلك؟» تسألني الأم. يتحول وجهها إلى الجدية.

«لا، لا. أنا هنا معها ومع مجموعة من الآخرين»

مجموعة من الآخرين؟ لماذا أقول هذا؟

«أوه، حسنًا»، تقول غير مقتنعة. ما زالت تنظر حولها بحثًا عن الآخرين الذين ذكرتهم.

«أنا... أوه... أنا أصور فيلما»، أقول. أريد أن أركل نفسي لو لم يكن هذا سيزيد موقفي سوءًا. «مع جافين هوبويل. أتعرفانه؟»

«أنا أعرفه!» تصيح ليز. «إنه نجم أخي المفضل».

تضيق أمها عينيها قليلًا. إما لأنها لا تصدقني وإما لأنها تعاني صداعًا شديدًا. من الوارد أيضًا أن قصتي هي ما تسبب لها الصداع الشديد.

«نعم، أنا آخذ استراحة من التصوير فقط. نحن نصور في المتحف، في الحقيقة. كثير من الكاميرات والإضاءة و... و... و... الحركة»، أتلعثم في بحثي عن كلمات.

أرى فم أم ليز نصف مفتوح. على وشك تحديد فجوة في قصتي، فألتقط هاتف ماكس من حقيبة ظهري.

«أنا لا أفعل هذا في العادة، لكننا أخذنا هذه الصورة لتونا». أفتح ألبوم الصور وأضغط على أحدث صورة، التي التقطها جافين

لنفسه معي في الشارع. أريها لليز فتنظر أمها من أعلى كتفها.

«واو!» تصيح ليز.

أعيد الهاتف إلى الحقيبة.

أرى جبين المرأة يرتخي. بل وتبدو منبهرة تقريبًا.

«نعم، لكننا ما زال لدينا كثير من العمل هناك، ويجدر بي أن أعود». أشير إلى المتحف بيدي اليسرى بينما تُدفئ الفطائر أصابع يدي اليمنى.

«أترين يا ليز؟ لقد قابلت نجمًا سينمائيًّا حقيقيًّا اليوم! لكن علينا نحن أيضًا أن نعود. لا أريد أن نتأخر»، تقول بتهيدة وتشير لابنتها إلى العربة.

«رائع جدًّا»، تقول ليز بحماس. «لا أطيق صبرًا لأخبر مارلون».

أقضم قطعة إمبانادا وأمنع نفسي بصعوبة من الاندفاع نحو المرأة ومعانقتها. المعجنات الدافئة والمحشوة بالجبن هي ما أحتاج إليه بالضبط. تسير ليز إلى الباب الجانبي للعربة فيما تلف أمها من أمام المقدمة إلى مقعد السائق. تقع عيناي، وأنا أراقبها، على الحروف السوداء المكتوبة على باب العربة.

لا كازيتا

201 تقاطع 215 و177

نيويورك

على مسافة ثلاثة شوارع من شارع خالتي سيما. هل هذه العربة متجهة إلى هناك الآن؟

تتسارع دقات قلبي مجددًا. تنظر لي ليز بفضول.

«أأنت متأكد من أن أمك في الأنحاء هنا؟» تسألني.

«نعم، نعم. ذهبت لتلقي التحية على صديقة فحسب»، أقول وأنا أفكر إن كنت أجرؤ على طلب توصيلي. كيف سأشرح لهم رغبتي في الذهاب إلى هناك؟ «أأنتما... أنتما متجهتان إلى الشارع 177؟»

«نعم، لماذا؟»

«مجرد فضول».

أضع ما تبقى من الإمبانادا في فمي، جزئيًا لأنني جوعان، وأيضًا لأنني لا أريد أن أتفوه بشيء آخر. تمد ليز يدها إلى مقبض الباب ثم تتوقف فجأة.

«تبدو كأنك... متوتر قليلًا أو شيء ما كهذا».

«أنا؟ لا»، أقول وألوح كأن ملاحظتها هذه لا معنى لها. بينما أتساءل في سري إن كان بمقدوري التعلق بمؤخرة الشاحنة حتى هناك. «مرهق قليلًا فقط من كل الـ... التمثيل الذي قمت به اليوم».

تومئ برأسها متقبلة إجابتي بطريقة الأطفال.

«حسنًا، أراك لاحقًا».

أسمع صوت محرك الشاحنة وأشعر بغصة في حلقي. حينها ألاحظ أن الباب الخلفي مفتوح. نسيت أم ليز إغلاقه. أتحرك نحو الشاحنة لأغلقه لهما وأنظر داخلها. على الجانب الأيمن نافذة خدمة الزبائن، مغلقة، لكنني أرى مقبضها. على الأرفف تحتها رزم أكياس ورقية وكراتين صغيرة. على الجانب الأيسر من الشاحنة مطبخ صغير مكون من شواية طويلة وموقد. وحوض حتى. إنه مطبخ على عجلات حقًا. أرى منه مقدمة الشاحنة

حيث مقعدي ليز وأمها. لا تلحظاني وأنا أقف عند الباب الخلفي كما لم تلاحظا أنه مفتوح.

لست بأشجع طفل في العالم، لكنني ربما، وربما فحسب، يمكنني التظاهر بهذا. أضع قدمًا على مؤخرة الشاحنة، لأرى كيف سأشعر فحسب.

حينها أسمع صافرات الإنذار.

الفصل الثامن والعشرون

يقفز قلبي في حلقي، فأتحرك دون تفكير. أصعد إلى خلفية الشاحنة بهدوء ما أمكنني وأجلس على أرضيتها متكورًا وأغلق الباب خلفي. لا أصفقه، بل أدفعه بقوة تكفي لأسمع التكة الناعمة لإغلاقه. يصعب سماع أي شيء مع ذلك، لأن صوت صافرات سيارات الشرطة عالٍ جدًّا، لا بد أنها خلف الشاحنة مباشرة.

«ماذا يحدث؟» أسمع أم ليز تسأل. هل تتحدث معي؟ أحبس أنفاسي وأنتظر.

«لا أعرف. هل فعلتِ شيئًا دون أن تخبريني؟» تسألها ليز بمرح. تضحك أمها.

«ها ها ها»، تقول بسخرية، وأشعر بتغييرها سرعة الشاحنة وتقدمها إلى الأمام.

أضغط ظهري بالجدار الصلب المقاوم للصدأ وأزحف حتى يمكنني الاختباء في الفراغ تحت الشواية.

«ثلاث سيارات شرطة. ثمة شيء ما يثير حماسهم».

يذكرني هذا بفعل شيء. أفتح حقيبة ماكس وأُخرِج الجهاز اللا سلكي والهاتف. أضبط الهاتف على الوضع الصامت وأدير القرص الجانبي في الجهاز اللا سلكي لأطفئه تمامًا، ولأتأكد ألا يصدر عني أي صوت ويكشفني.

«ماما، أتظني أن ذلك الفتى كان بخير؟»

أتجمد.

«آمل هذا. هل قال لكِ شيئًا؟»

«لا. لكنه بدا كأنّه يريد قول شيء ما».

ينبعث صوت الراديو. تملأ الكلمات الإسبانية العربية. أبواق وطبول وغناء رجل. أقفز لأعلى بقوة شديدة كل عدة دقائق إلى حد أتساءل إن كانت الشاحنة قد دهست سيارة صغيرة. كم سيستغرق الطريق إلى الشارع 174؟

توقفتْ الشاحنة، في إشارة حمراء غالبًا. ينتابني الرعب من أن تلتفت ليز أو أمها خلفهما في أي لحظة وتريان حذائي أو مرفقي فتستدعيان الشرطة لي لأنني تسللت إلى شاحنتهما.

لا توجد نوافذ، لذلك لا أرى أين نحن من الشارع 177. خطتي، التي ليست بخطة بالمعنى الكامل، هي أن أقفز من الباب الخلفي ما إن تتوقف السيارة في المرأب. ثم أركض وأختبئ، لأنهما بالطبع ستغضبان لأنني اختبأت في شاحنتهما.

تتحرك الشاحنة مجددًا. بسرعة أكبر هذه المرة.

«آخ، كتّاب الحساب»، تقول ليز. سقط كتابها في الفراغ بين مقعديهما. تمد يدها لتلتقطه. أحبس أنفاسي وأحاول ضم أصابع قدمي وركبتيّ إليّ بعيدًا عن مجال نظرها.

«أوه!» تقول ليز بحدة.

«ما الأمر؟» تسألها أمها.

تتعرق راحتاي. لا يمكنني الانكماش أكثر من هذا.

«ممم، لا شيء. لا شيء. ألتقط كتابي فحسب».

«هل أنهيت فرضك المدرسي؟»

«نعم»، تجيبها ليز ببطء.

أمد رأسي إلى الأمام بما يكفي فحسب لأرى ليز تنظر من خلف مقعدها. تلتقي أعيننا فأعيد رأسي إلى الخلف فورًا.

ماذا الآن؟

تتسارع أنفاسي، وأنتظر لأرى ماذا ستفعل ليز بشأن تسللي إلى شاحنتهما.

«ليز، أأنتِ بخير؟ تبدين كأنك رأيت شبحًا لتوك».

«لا»، تجيبها. «ليس شبحًا».

«آمل هذا»، تتمتم أمها. «سنتوقف عند بيت جدتك لتوصيل بعض بقايا الطعام من اليوم. لا أريد أن ألقي به هدرًا».

«بالطبع، لماذا لا»، تقول ليز بصوت عالٍ ومنغم- ومتوتر قليلًا. لو كانت ماكس مكانها، لم تكن لتتوتر. لكن ربما ليز ليست معتادة على إخفاء متسلل عن أمها. ربما لا يمكنها التعامل مع هذا بطبيعية.

تتوقف الشاحنة وتوقف أم ليز المحرك.

«حسنًا، ها نحن ذا. سأركض لتوصيل طبق الطعام. لا تفتحي الباب لأحد، أسمعتِ؟»

أسمع صوت فك حزام الأمان وفتح الباب.

طبق الطعام.

خلال ثانية واحدة، سينفتح الباب الخلفي على وسعه ولن كون لدي خيار سوى القفز عبر أم ليز والفرار من هنا. ستشعر أمي بالغضب والرعب لكل ما فعلته اليوم، لكن كيف لي أن أتجنب إيداعي في دار رعاية أو في السجن؟

«مامي، سأحضر لك أنا هذا الطبق!». تقول ليز وهي تفك

https://t.me/fantazynov

حـزام أمانهـا فـي لمـح البصـر، وتندفـع نحـوي.

تتحـرك بسـرعة شـديدة قـد تجعـل ذلـك السنجاب خجـلًا مـن نفسـه. لا تقـول شيئًا لـي، بل تقفـز مـن مقعدهـا إلـى خلفيـة العربـة. ترمقنـي بنظـرة غريبـة وهـي تمسـك بكيـس بلاسـتيكي فيـه طبـق مغلـف بـورق ألومنيـوم، وتصـل إلـى البـاب الخلفـي فـي اللحظـة التـي تفتحـه فيهـا أمهـا.

«هـا هـوذا» تقول بصـوت منغم.

أمهـا صامتـة. أسـمع خشخشـة البلاسـتيك وأعـرف أنهـا أخـذت الكيـس مـن يـد ابنتهـا.

«ليـز، سـتأوين إلـى النـوم مبكـرًا اليـوم. أنـت لسـت طبيعيـة، وأنـا قلقـة عليـك».

«أنـا أحـاول مسـاعدتك فحسـب»، توضـح لهـا ليـز بصـوت مـرح. تُمسـك بمقبـض البـاب، مسـتعدة لإغلاقـه فـورًا، دون أن تسـمح لأمهـا بفتحـه أكثـر مـن ذلـك. ينغلـق البـاب بتكـة عاليـة وتسـتدير ليـز لتواجهنـي.

«مـاذا تفعل هنـا؟» تهمس.

«شـكرًا لأنـك لـم تخبـري أمـك عنـي»، أقـول. «لا أعـرف لمـاذا فعلـتِ ذلـك؟»

شـيء مـا فـي نظرتهـا إلـيّ، رأسـها المائـل جانبًـا وعيناهـا المنتظرتـان إجابـة، يذكرنـي بماكـس.

«كنت أعـرف أنـك فـي مشـكلة. رأيـت تلـك النظـرة علـى وجـه أخـي ملاييـن المـرات. لـو كان أخـي هنـا، لأخبـرك أنه ليس بمقـدورك الاختبـاء مـن أمـي لوقـت طويل. مـاذا تفعل هنـا؟ أأنـت هـارب مـن بيتـك؟»

نعم، أريد أن أخبرها، لأنه لم يعد بيتي.

«أنا أحاول الوصول إلى بيت خالتي. إنها تسكن في الشارع 174».

«أين والداك؟» تسألني.

«ليسا هنا». لا يمكنني الخوض في تفاصيل معها. مع أنها لم تخبر أمها عن تسللي إلى الشاحنة، لكنني لا أستطيع الوثوق بها. ماذا لو أخبرت أمها بكل شيء ما إن تعود؟

«ربما كانت فكرة سيئة»، تقول ببطء. «ربما عليك أن تغادر».

«انظري، ليس لدي سوى أمي وقد أعادوها إلى بلدها. ليس لدي مكان آخر لأذهب إليه سوى بيت خالتي».

«أوه»، تقول. رد فعلها رزين تمامًا. «أنت وحيد؟»

«نعم»، أومئ برأسي.

«ألست خائفًا؟»

«لا يهم. عليّ أن أواصل طريقي».

كان جافين هوبويل سيشعر بالفخر لسماعي أقول هذا.

«أين بلد أمك؟»

ألاحظ تعاطفها معي قليلًا. لن تركلني بقدمها خارج الشاحنة أو تخبر أمها.

«أفغانستان».

«أنت إذن أفغانس- تاني؟» تسأل وهي تكافح مع مقاطع الكلمة.

«أفغاني. لا. أمي هي الأفغانية».

«وأنت أيضًا إذن».

«لا، أنا أمريكي». لا بد أن أكون. كيف إذن سأبرر ذهاب أمي وبقائي أنا؟

https://t.me/fantazynov

«أنا، والداي من جمهورية الدومينيكان. أنا دومينيكية أمريكية. يمكنك أن تكون الاثنين، أتعرف؟»

لم يساعد أمي كثيرًا أنها أفغانية. لا أعرف كيف سيساعدني هذا.

«عليّ الآن الوصول إلى بيت خالتي».

«قلت الشارع 147 صحيح؟ هذا ليس بعيدًا عن بيتنا»، تقول بتفكّر.

«أين نحن الآن؟» أريد أن أنهض وأنظر من النافذة الأمامية، لكنني أخشى أن تكون أم ليز في طريقها إلى الشاحنة وترى وجهي من النافذة.

«هذا هو الشارع السابع والتسعون. ما زلنا بعيدين عن البيت».

نصمت. تنظر ليز من النافذة.

«إنها قادمة!» تقول بهمس. تنظر إليّ مجددًا ثم إلى الباب الخلفي.

«يجب أن أذهب»، أقول، حتى وقلبي ينفطر للتفكير في الطريق الطويل أمامي. أنهض وأعلق الحقيبة على كتفي. تزم ليز شفتيها، ثم تعقد ذراعيها على صدرها.

«وسأقع أنا في مشكلة لمساعدتك في الاختباء؟» تقول بهمس غاضب. «لا شكرًا! ابق مكانك فحسب!»

«لكن ماذا عن-» أعترض.

«لا أعرف. اضمت، إنها قادمة!» تقول وتعود إلى مقعدها وتربط حزام الأمان. أعود للتكور تحت الشواية، أضغط ظهري بجانب الشاحنة. أسمع ليز تتمتم بعصبية. «يا رجل، إن الأفغان عنيدون مثل الدومينيكان تمامًا».

الفصل التاسع والعشرون

«جدتك لديها أنفلونزا أو شيء ما كهذا. كانت ترتدي روبًا أحمر في أبيض وجوارب بيضاء طويلة تصل إلى ركبتيها. تبدو مثل بابا نويل في أثناء عطلته. كنت ستحبين هذا المنظر، ميجا».

تضحك ليز، ضحكة صغيرة وعصبية.

«روب أحمر في أبيض؟ مضحك جدًّا».

تسكت أمها للحظة.

«أأنتِ متأكدة من أنك بخير؟ إن كنتِ قلقة من اختبار الحساب، ستبلين جيدًا، لقد ذاكرتِ جيدًا، وما زال أمامك يومان قبله».

«ظني أنك محقة، مامي. يجب أن أتوقع أن كل شيء سيكون بخير»، تقول ليز، فأتنهد بارتياح.

تتحرك الشاحنة مجددًا في اتجاه الشارع 177. هذه أقرب نقطة وصلت إليها في طريقي إلى بيت خالتي سيما، لكنني أتساءل إن كنت سأواجه إحباطًا جديدًا. ربما انتقلت إلى شقة أخرى؟ ربما لم يعد هذا عنوانها. أصرف هذا الخاطر وأفتح حقيبة ماكس وأخرج دفترها. أأجرؤ على قراءة مزيد من خواطرها؟ حين كنت في القلعة، انفتح الدفتر دون قصد. هذه المرة، أنا أفتحه عمدًا. أريد أن أسمع صوت ماكس حقًّا.

كان في منتصف الدفتر أن بدأتْ كتابة قائمة الأشياء المهمة التي عليها تذكرها عن نفسها بعد الجراحة. أقلب الصفحات ببطء ما أمكنني كي لا يصدر صوت للورق. يبدو خط ماكس

مألوفًا لي الآن. يمكنني سماع صوتها وأنا أقرأ كلماتها. أفتح الدفتر من أوله. توجد صفحتان خاليتان ثم يظهر خط ماكس.

يوم ما، سأحظى بجواز سفر وأسافر إلى جميع أنحاء العالم. سأنتقل من بلد إلى آخر، وأتعلم كلمات جديدة كثيرة في الطريق. أحضر أبي علبة جيلاتو بالأمس (أي آيس كريم بالإيطالية). كانت أفضل شوكولاتة تذوقتها في حياتي، وقد تذوقت شوكولاتة كثيرة بالفعل. لذلك خطرت لي فكرة السفر إلى جميع أنحاء العالم. سأتوقف لتذوق الآيس كريم في كل مكان سأذهب إليه. سأكتب كتابًا عن مختلف أنواع الآيس كريم، ثم سأشارك آرائي مع من يتساءلون عن مذاق الآيس كريم في جنوب إفريقيا.

أتمنى أن يمكنني السفر حقًا. الآن، تقلق أمي لو ذهبتُ إلى باحتنا الخلفية وحدي. الصرع معي أينما ذهبت. كلما ملأت أمي استمارة معسكر أو أجابت دعوة حضور حفل عيد ميلاد، يكتشف أحد ما أن ماكس لديها صرع. لا أريد هذا. أريد أن أكون ماكس فحسب. أو ربما ماكس التي تصاب بنوبات أحيانًا فقط. لكن الأفضل ماكس فحسب.

أتمنى أن يمكنني التحدث معها. أن أخبرها أنها ليست مريضة صرع فحسب. إنها أكثر من هذا بكثير. لا أعرف إن كنت سأعيد إليها دفترها يومًا ما أم لا، لكنني أمد يدي في الحقيبة وأخرج قلم رصاص بعلامات أسنان ضئيلة في خشبه. أتخيل ماكس وهي تقضم المحّاية في طرفه بعصبية.

يزداد الطريق وعورة قليلًا، وأبذل جهدي لأظل في المساحة الصغيرة تحت الشواية. ليز وأمها يتحدثان بهدوء، وصوت المذياع عالٍ فلا أسمع ما تقولانه.

أفتح صفحة خالية وأمسك بالقلم، يتقافز سنه على الورقة مع اهتزاز الشاحنة. أبدأ الكتابة. أفكاري مشوشة ومتعرجة مثل خطي.

ماكس- أنا آسف لأنني نظرت في دفترك. أرجوك لا تغضبي. أنت أحجية يصعب عليّ حلها. ما يجعل صداقتك شيئًا ممتعًا. لم أكن لأقطع كل هذه المسافة لولا مساعدتك. ربما كنت سأظل في المستشفى. إن كان بإمكانك الهروب من الباب الموصد لقسم الأطفال في المستشفى، فأنت بالتأكيد يمكنك السفر حول العالم. أتمنى فقط أن تعودي بعد ذلك لأنني سأبحث عنك. أنت صديقة رائعة حقًّا.

أُغلق الدفتر وأعيده إلى الحقيبة، ببطء، كي لا يصدر عني صوت، أغلق سحاب الحقيبة وأضعها على قدمي. أتساءل أين نحن، فأسمع صوت ليز يعلو على الموسيقى.

«انظري ماما، نحن في الشارع 169 بالفعل؟ أنتِ تقودين بسرعة اليوم!»

«ليز، بكل هذا الزحام أمامك... أتظنين أنني أسرع؟ بإمكانك السير أسرع من قيادتي».

تلتفت إليّ ليز. تتقابل أعيننا لجزء من الثانية وأومئ برأسي، أشكرها على الأخبار بصمت. كدنا نصل بالفعل وعليّ وضع خطة للخروج. أمامي مسافة ثمانية شوارع فقط قبل أن تتوقف الشاحنة.

أفكر فيما قالته ليز وأتساءل إن كان من الممكن أن أكون الاثنين بالفعل. أيمكنني أن أكون أمريكيًّا أفغانيًّا؟ لم أولد في

أفغانستان لكنني أختبئ الآن في شاحنة بسبب ما حدث هناك. أتناول طعامًا أفغانيًا، نستمع لموسيقى أفغانية. أتلقى هدية في العيد وليس في أعياد الميلاد أو الهانوكا[8].

لكنني أمريكي أيضًا. أشاهد مباريات الإن بي أيه [الرابطة الوطنية لكرة السلة] ومواكب عيد الشكر. طعامي المفضل المعكرونة بالجبن وبسكويت الشوكولاتة. في الألعاب الأوليمبية أُشجع فرق الولايات المتحدة. أعرف كلمات قليلة من الدارية، لكنني أتحدث الإنجليزية فحسب حقًا. ألا يجعلني كل هذا أمريكيا؟

ألاحظ وأنا أفكر في كل هذا أن الشاحنة تبطئ. تتقدم إلى الأمام قليلًا ثم إلى الخلف عدة مرات ثم تتوقف نهائيًا.

«سيكون الطقس باردًا غدًا»، تقول أم ليز. «سيحل الشتاء قريبًا، وظني أنه سيكون شتاءً قاسيًا. أشعر بهذا في عظامي».

أتكور على نفسي جيدًا وأحبس أنفاسي كي لا يصدر عني صوت. أسمع بابي الشاحنة ينفتحان وبعد لحظة ينغلقان.

«أنت في حاجة إلى معطف جديد يا ليز».

«قال أبي إنه سيأخذني للتسوق في العطلة الأسبوعية القادمة».

يبدو صوت ليز بعيدًا بمسافة، خرجتا من العربة لكنهما ما زالتا قريبتين. آخذ نفسًا صغيرًا. أنتظر دقائق قليلة حتى يتلاشى صوتاهما. حين لا أسمع سوى صوت السيارات المارة، أخرج من تحت الشواية ببطء. أحرك أطرافي واحدًا تلو الآخر وأزحف على أربع إلى مقدمة الشاحنة. من هناك، أرفع رأسي لأعلى كمنظار

---

(8) من الأعياد الدينية اليهودية (المترجمة).

أفق أعلى سطح الماء، لأرى إن كانت ليز أو أمها في الجوار. أرى قليلًا من المارة يسيرون بمعاطفهم مغلقة الأزرار حتى ذقونهم. انخفضت درجات الحرارة بشكل ملحوظ عمّا كانت عليه في أثناء الظهيرة، واختفت الشمس خلف المباني.

أتفقد حقيبة ماكس لأتأكد أن كل جيوبها مغلقة بإحكام. أتحقق من أربطة حذائي. أقوم بكل هذا لتخوفي قليلًا من فكرة الخروج من الشاحنة. أكتشف حينها أنني حتى مع حلّي لأحجية الوصول إلى بيت خالتي سيما، فما زال أمامي الأحجية التالية، وهي كيف ستعيدني خالتي سيما إلى أمي في أفغانستان.

هذا ما قررته اليوم- إن بيتي حيث تكون أمي. حتى لو كان معنى هذا أن أعيش في أفغانستان، سأذهب إلى هناك. وإن كان الوضع خطرا هناك، فلن أترك أمي تواجهه وحدها. لا أظن أن أبي كان سيريد هذا لها، من معرفتي بشخصيته. سأكون هناك أمريكيًّا يعيش في أفغانستان. أنا هنا أفغاني أمريكي. فهل لو عشت في أفغانستان سأكون أمريكيًّا أفغانيًّا؟ ما يراه الآخرون لا يهم حقًّا. في نهاية اليوم، سأظل جيسون دي، الفتى الذي يحمل اسم الشهر الأخير من العام.

أتحرك إلى خلفية الشاحنة. يمكنني فتح هذا الباب والخروج إلى الشارع. ماذا لو رآني أحد وأنا أخرج؟ أتمرن على ما سأقوله ويدي على مقبض الباب. *كنت أنظف بعض الأشياء لخالتي. أعددنا كثيرًا من الإمباندا اليوم!* ثم سأسير مبتعدًا بهدوء ما أمكنني. لن أبتسم ابتسامة واسعة. لن أُصفّر. لن أركض. هذه خطتي.

https://t.me/fantazynov

آخذ نفسًا عميقًا وأحرك المقبض. أسمع تكة وأفتح الباب، يغمر ضوء النهار خلفية الشاحنة. لم تختفِ الشمس تمامًا بعد. صُفَّت الشاحنة إلى جانب الرصيف، على مسافة أقدام قليلة من سيارة خلفها. أخرج وأرى رجلين يسيران بعيدًا، ظهراهما لي فلا يلاحظان أنني خرجت لتوي من شاحنة اللاكازيتا.

أُغلِق الباب خلفي، دقات قلبي عالية وثابتة كقرع الطبل. يداي باردتان، مع أنهما تتعرقان. أسير حول الشاحنة إلى الرصيف لأحدد في أي شارع أقف وإلى أين أتجه للوصول إلى الشارع 174. أقف بجوار الشاحنة، أبحث بعيني عن إحدى لافتات الشوارع الخضراء عند زاوية. أكاد أقفز من الفرح حين أجدني في الشارع 175. أنا على مقربة شارع واحد من خالتي سيما. يمكنني الاحتفال تقريبًا، لكنني أسمع صوتًا يقاطع أفكاري السعيدة.

«هل خرجت من هذه الشاحنة لتوك؟»

يقرع الطبل في صدري بقوة أكبر. أستدير لأرى أم ليز، يداها في خصرها، وتعبير وجهها ليس راضيًا إطلاقًا. لن يُجدي معها ما تمرنت عليه وأنا في الشاحنة.

«كنت... أنا فقط... لم أقصد أن....»

تقترب مني خطوة حين تظهر ليز عند المنعطف وهي تصيح.

«انتظري، يا مامي، سأحضر هاتفك-». تتوقف فجأة حين تراني أنا وأمها نقف وجهًا لوجه، لا يفصلنا سوى مربعات قليلة من أسمنت الرصيف.

«لم تقصد التسلل إلى شاحنتي؟ أين والداك؟ لماذا تكذب؟»

إنها محققة. أنا أكذب، وهذا يجعلني كذابًا. كذابًا ومتسللًا. أفكر في كل ما فعلته منذ أن غادرت بيتي. ينفجر وجهي بالأحمر القاني للعار الذي ظللت أكتمه حتى الآن. تبدو ليز مذهولة، كأنها لا تعرف ماذا تفعل، فلا تفعل شيئًا.

«أنا آسف»، أصيح بصوت على وشك الانهيار. «أنا آسف حقًا، لن أزعجك مجددًا».

أستدير لأسير مبتعدًا، أتمنى أن تدعني أبتعد فحسب. أريد أن أركض، لكنني أعرف أن هذا سيجعلني أبدو وأشعر أنني كمجرم حقيقي.

«عُد إلى هنا! لا يمكنك السير مبتعدًا فحسب! سأتصل بالشرطة».

«مامي لا تفعلي!» تصرخ ليز.

ألتفت لأنظر من أعلى كتفي وأرى أم ليز تمد يدها إلى باب الشاحنة. وفي لحظة، تمسك بهاتفها- لا بد أنها عادت لتحضره- وتزعق مجددًا. ليس أمامي خيار آخر. أبدأ الركض. لا تطاردني، لكنني يجب أن أبتعد.

«سأتصل بالشرطة فورًا!» تصيح. تقف ليز إلى جانبها، تعض شفتيها وتبدو متألمة. تتسع عيناها رعبًا. تشير لي، ترتفع إصبعها في الهواء برسالة طارئة ما.

«أيها الضابط!» تصيح أمها.

ألتفت برأسي في اللحظة المناسبة لأرى، على مسافة شارع واحد، الزي الرسمي الأزرق، والوميض الذهبي لشارة، ووجهًا مألوفًا بشكل غريب.

«جيسون دي!» يصيح الضابط خان.

حينها أركض.

الفصل الثلاثون

أسمع صياحًا من خلفي، لكنني لا أستدير. لا سبيل للخروج من هذا الموقف بالتحدث. ولا مثلما قفزت على ظهر جمعة. هذه المرة انهار العالم كله بالفعل، وأنا أركض لأنجو بحياتي.

ترتطم الحقيبة بظهري وأنا أركض. تُبطئني، ولا يمكنني السماح لشيء بأن يُبطئني ولو لثانية واحدة، لذلك أخلع حزام الحقيبة وأتركها تسقط على الأرض. يؤلمني أن أتركها لكنني أسرع من دونها.

أنعطف في كل منعطف يقابلني، على أمل أن يفقدني الضابط خان. في أحد المنعطفات أراه يصيح بشيء ما نحوي، لا أسمع ما يقوله بسبب جدار المصمت بيننا، وطنين أذنيّ.

أمر بامرأة عجوز تربط رأسها بطرحة. امرأة تحمل رضيعين على ذراعيها. رجل يميل على واجهة محل وهو يشرب من زجاجة عصير. إن كانوا ينظرون إليّ بفضول، فلم ألحظهم لأنني أفكر في خطوتي التالية.

أنعطف يسارًا مجددًا، يؤلمني صدري من الركض بكل قوتي. أمر بعمارة من الطوب الداكن، بارتفاع خمسة طوابق وسلم حريق أسود ونوافذ بقضبان. أمر بمحل اسمه فارمسيا وآخر اسمه جورميه ديلي. أنعطف يمينًا. أرى عمارة من الطوب الأحمر، تنبعث موسيقى من إحدى نوافذ الطابق الأرضي. أرى كنيسة ببرج رفيع ونوافذ بزجاج ملون.

أنعطف يمينًا مجددًا.

إلى متى يمكنني المواصلة؟ أستدير فلا أرى الضابط خان أو أم ليز. لا يوجد سوى عمارات بارتفاعات مختلفة، بعضها طويل وبعضها قصير. لا يوجد مكان للاختباء فيه في هذه الشوارع، لا أزقة صغيرة. أرى شاحنة نقل ببابها الخلفي مفتوح. تقف أمام عمارة من الطوب الداكن برقم 345 مكتوب بأرقام بيضاء مزخرفة على الباب الزجاجي للمدخل. في الداخل عدة قطع أثاث كبيرة ملفوفة بالقماش. تبدو إحداها كطاولة مطبخ. وأخرى أريكة تقريبًا.

أنظر حولي. الشارع خالٍ. تمسح عيناي سلم الحريق. بعض طوابقه عارٍ لكن طوابق أخرى تبدو كحدائق صغيرة بأصص نباتات خضراء وأزهار.

يسرع ذهني بحساب الاحتمالات. هل يمكنني فعل هذا؟ يجب أن أحاول. وُضعت الطاولة أسفل سلم الحريق مباشرة. أقفز عليها فورًا. أسمع أصواتًا تتردد في المدخل. أقفز لأعلى، تلمس أصابعي أول درجات سلم الحريق، لكنني لا أستطيع القبض عليها بقوة كافية. أسقط على الطاولة بضجة مكتومة.

«هيا»، أتمتم وأنا أنظر إلى درجة سلم التي تبدو قريبة بشكل مؤلم. أقفز مرة أخرى وأفشل أيضًا، تنزلق أصابعي مجددًا.

«محاولة أخرى»، أقول وأنا أجزّ على أسناني. هذه المرة، يمكنني التعلق بيدي اليمنى. أتدلى لعدة ثوانٍ، ثم أمسك السلم بيدي اليسرى أيضًا. بنخرة، أرفع قدميّ لأعلى وأضمهما إلى صدري. يلمس حذائي الدرجة السفلية وأتعلق هناك مثل يرقة متكورة على غصن.

تقترب الأصوات القادمة من المدخل، وأسمع صوت صافرات إنذار سيارة الشرطة من بعيد. أدفع قدمي وأبدأ الصعود، درجة تلو الأخرى، يد بعد الأخرى، حتى أصل إلى الطابق الأول. أنظر إلى الأسفل في اللحظة المناسبة لأرى رجلين يخرجان من المبنى. يرتدي كل منهما تيشيرتًا أصفر عليه الشعار المرسوم على شاحنة النقل.

«لننقل الأريكة أولًا»، يقول أحدهما.

ظهري لجدار العمارة، في مساحة ضيقة بين نافذتين، كي لا يراني أحد لو نظر إلى الخارج. يختفي الرجلان وهما يحملان الأريكة داخل العمارة. أواصل صعود السلم إلى الطابق التالي. في هذا الطابق أصيص طويل وضيق لنباتات الفلفل الحار. أختبئ بين نافذتين في الطابق الثالث وأنظر إلى أسفل. الطريق طويل من هنا إلى الرصيف.

يأتي الضابط خان راكضًا عند المنعطف، ينظر يمينًا ويسارًا وهو يلهث. عاد الحمالان إلى الرصيف، ينظران إليه بفضول.

«مرحبًا!» يصيح نحوهما. «يا رفاق!»

«سننقل هذه القطعة الأخيرة فحسب ثم سنتحرك بالشاحنة. جيد أيها الضابط؟»

«هل مر بكما فتى يركض بسرعة؟» يضع يدًا عند خصره. «إنه بهذا الطول تقريبًا، يرتدي بنطال جينز وتيشيرت بولو أخضر».

«لا، لكننا ظللنا ندخل ونخرج من المبنى. آسفان، لا يمكننا مساعدتك».

يصدر رنين عالٍ، فيخرج الضابط خان هاتفه من قراب معلق بحزامه ويضعه عند أذنه.

«نعم؟» يقول منقطع النفس. «أنا في الشارع 174. لا بد أنه في مكان ما قريب من هنا».

«الشارع 174؟ بطريقة ما وصلت، رغم انعطافاتي الكثيرة يمينًا ويسارًا، إلى شارع خالتي سيما. أحاول أن أبقى هادئًا.

«كم تبعد؟» يسأل الضابط خان. يسير أمام مدخل العمارة. سينظر إلى الأعلى في أي لحظة الآن ويراني أحدق فيه. أصعد ببطء، وبحرص كي لا يقعقع سلم الحريق أو يهتز بحركتي.

أصعد السلم إلى الطابق التالي، متسللًا ببطء مثلما فعلت ماكس وهي تلتقط بطاقة مرور الممرض لنهرب من باب القسم الموصد. أصل إلى الطابق الرابع، أنظر إلى الأسفل مجددًا فأراه ما زال يسير أمام العمارة ويتحدث في الهاتف. يصعب سماع ما يقوله من هنا. توجد سجادة صغيرة ملفوفة في ركن من بسطة السلم وبجانبها أصيص صغير لزهور الجيرانيوم.

تخطر لي فكرة فأجذب السجادة، أبذل جهدي لأحملها تحت ذراعي وأنا أواصل صعودي إلى الطابق الخامس من المبنى.

حين أضع السجادة بالطريقة التي أريدها، يمكنني التنفس بسهولة قليلًا. حينها أسمع الحمالين، عادا إلى الرصيف.

«أخبرتك أننا سننتهي من العمل قبل الخامسة. العشاء عليك يا صاحبي».

«لا بأس. رأيت عربة نقانق في الشارع».

«يا رجل، هل وقفت على هذه الطاولة؟ انظر إلى آثار الأقدام هذه».

«لماذا تظن أن كل شيء خطئي؟»

يعلو صوتاهما.

«ليس كل شيء خطأك. بل ما تفعله فحسب! ولماذا أنت دفاعي هكذا يا رفيق؟ أهذا بشأن النقانق...»

«ما الذي تتجادلان بشأنه الآن يا رفاق؟» صوت الضابط خان. أعرفه جيدًا الآن. أُثبِّت نفسي كتمثال وأنتظر لأرى هل سيفهمان أن آثار الأقدام هذه تؤدي إلى الفتى المختبئ بالأعلى أم لا.

الفصل الحادي والثلاثون

«لا شيء. لا شيء»، يقول أحدهما. يبدو غاضبًا.

أراقب الضابط خان يسير نحو المنعطف. يبدو كأنه في انتظار أحد ما.

«حقًا»، يقول أحد الحمالين. «لماذا توجد آثار أقدام على هذه الطاولة؟»

لا أعرف إن كانا قد عنيا بالنظر إلى أعلى أم لا، لأنني ما إن أصل إلى الطابق الأخير أفرد السجادة، لأجعلها تبدو كأرض صلبة على سلم الحريق. لن يستطيع من ينظر إلى أعلى من أسفل أن يراني. مع ذلك ما زلت مرئيًا لمن ينظر من عند المنعطف.

«لا أعرف، ربما خطوت على الغطاء قبل أن تضعه على الطاولة».

«أو أنت. ربما خطوت أنت على الغطاء قبل أن تضعه أنت على الطاولة».

«نعم، أيًا كان. دعنا ننهي العمل فحسب».

صعدتُ إلى نهاية السلم، أخيرًا واتتني الفرصة لأتنفس الصعداء. أنظر إلى أعلى وأرى السحب المتفرقة في السماء تواصل حركتها إلى الأبد بدرجات الوردي والبرتقالي.

أتعرف يا شاه جان لماذا ينظر الناس إلى السماء حين يصلّون؟ أتعرف لماذا نرفع الرايات لأعلى فوق رؤوسنا؟ لأننا نريد لمس هذه السماء، هذه السماء التي تتحول من الأزرق إلى البنفسجي

إلى الوردي ثم البرتقالي. تجد جميع الألوان في السماء. الشمس، القمر، النجوم، والسحب- السماء تسعها جميعًا. لهذا نحب هذا البلد، يا ملكي. لأننا فيها كأننا في السماء.

ها أنا ذا، أقرب ما يمكنني إلى السماء، لكنني أشعر أنها لا تسعني.

«إلى أين أذهب من هنا يا أمي؟» أهمس. «أريد أن أعود إلى البيت فحسب. لماذا لا يمكننا العودة إلى البيت؟»

تقترب حمامة من سلم الحريق. لا تبدو خائفة مني بأدنى قدر، تهدل وهي تبحث عن الموقع المثالي على السور المعدني لتحط عليه. بعد ذلك بدقيقة تنضم إليها حمامة أخرى. صوتاهما رقيقان، كأجراس يحركها الهواء. إنهما ليسا من طيوري، لكنهما يجعلانني أشعر كأنني قريب من البيت.

أعرف أن بناية خالتي سيما في هذا الشارع، لكنني لا أعرف أين تحديدًا. قد تكون في كتلة المباني هذه حتى. أختلس النظر وأبحث عن مبنى يشبه الذي رأيته في الصورة في هاتف أمي. ما زال الحمّالان يدخلان ويخرجان من العمارة. أراهما يحملان أريكة من الجلد البني. يزعق أحدهما في الآخر وهما يتحركان للأمام والخلف عدة مرات، يحاولان الوصول إلى الزاوية الصحيحة لإدخال الأريكة.

«مِل يسارك قليلًا أكثر. يسارك. يسارك قلت!»

«يساري أم يسارك؟»

«يساري!»

«أنت نمطي جدًا. الأمر دائمًا عنك أنت».

يختفيان في الداخل بالأريكة، ينكتم صوتاهما بين الجدران. أنا والحمامتان وحدنا مجددًا.

يهدلان معًا نحوي الآن. أنظر إليهما بحرص، دربت نفسي على التمييز بين طيور الحمام. لإحداهما ريش رمادي بخطين أسودين بطول ظهرها. الأخرى بالدرجة نفسها من الرمادي، بريش أغمق ومرقش في منتصف ظهرها، وطوق بنفسجي لامع حول عنقها. عينا كل منهما برتقالية نارية بنقطة داكنة في المنتصف، ولها قدمان حمراوان تبدوان كجلد عظاءة.

تنظران إلى أعلى فأتتبع نظرتهما. يوجد ست أو سبع حمامات أخرى على السطح، على مسافة أقدام قليلة من حيث أجلس.

«أهذا بيتكم؟» أهمس. إنها القصص التي أخبرتني بها أمي عن طيور الحمام في أفغانستان، التي يمكنها الطيران لمسافة أميال في السماء لكنها تعود إلى بيتها دائمًا، ما جذبني إلى سطح بنايتنا. كنت أتساءل لماذا لا تظل في السماء إن كانت حرة في الطيران. ما الذي يدفعها للعودة إلى البيت؟ عرفت أنها تعود لأنها تثق بأن هذا البيت سيعاملها جيدًا، سيُطعمها، وسيجمع شملها مع الأهل والأصدقاء.

وأنا أريد، أكثر من أي شيء في العالم، أن أبسط جناحيّ وأعود إلى بيتي في إلكتون. حيث أنتمي.

أرى حينها أربعة أشخاص يقتربون من العمارة. أتكور على نفسي أكثر. هل تخدعني عيناي؟ أمد رأسي قليلًا. إنها حقيقة. أرى ليز وأمها تسيران في الشارع مع الضابط خان وامرأة ترتدي بنطال جينز واسعًا وسترة برتقالية داكنة. ينعكس الضوء على قرطها الذهبي الذي يتأرجح مع سيرها.

خالتي سيما! يقفز قلبي. كيف حدث هذا؟ أسمعهم يتحدثون لكنني لا أميز ما يقولونه حتى وقفوا أسفل العمارة مباشرة.

«انظرا، ظني أنكِ وابنتك يمكنكما العودة إلى بيتكما الآن. لا داعي لسيركما معنا». هذا صوت الضابط خان. التقط أنفاسه لكنه لا يزال محبطًا.

«حسنًا، حسنًا. لكنني أريد أن أتأكد من عثوركما عليه فحسب». تصر أم ليز.

«ماما، لا أظن أن...»، تقول ليز لكنني لا أسمع بقية كلامها. تقاطعها أمها في لحظة ما. «ليز حبيبتي، الأمر الآن في يد الشرطة. علينا أن ندعهم يقومون بعملهم».

يتحدثون أكثر، ثم أرى ليز وأمها تسيران نحو نهاية الشارع وتتعطفان. تركتا خالتي سيما والضابط خان أسفلي. ليتني يمكنني التلويح لخالتي سيما من هنا، لكن الضابط خان ظل خلفي منذ أن غادرت المستشفى. لا يمكنني الإلقاء بنفسي بين ذراعيه الآن.

«لا أعرف ماذا أفعل لمساعدتك»، تقول خالتي سيما. يجعلني صوتها أرغب في الصياح. ظللت أتمنى بشدة أن أجدها، وها هي الآن على مسافة أقدام قليلة مني.

«سنجده سريعًا. إنه في الحي، ولا يمكنه الهرب إلى الأبد».

«أنا لا أصدق أنه قطع كل تلك المسافة إلى هنا. لم أتوقع هذا قط».

أشعر بالفخر لسماعها تقول ذلك. أنا أيضًا لم أتوقع أن أصل إلى هنا، لكنني كان عليّ المحاولة. وقد وصلت بالفعل. مع أنه لا يبدو كافيًا مع ذلك.

«لن نزعجك بشيء آخر حين نجده. نقدر لك تعاونك معنا حتى الآن. ولديك بطاقتي. أرجو أن تتصلي بي لو عرفتِ شيئًا عنه».

«بالطبع يا حضرة الضابط!»

تهوي معدتي. خالتي سيما مستعدة لتسليمي للشرطة. وعدت لتوها بالاتصال بالضابط خان إن عرفت شيئًا عني. أشعر بالخذلان وبالغباء قليلًا لأنني لم أتوقع هذا. ربما كنت مخطئًا في تفكيري أنها ستقف في صفي وسترحب برعايتي. يبدو أنني كنت مخطئًا في كل شيء.

«سأعود إلى شقتي في حال جاء إلى هناك». تقول خالتي سيما. يغمغم الضابط خان برد ما لا أسمعه. أراقبها تلف وشاحها الملون حول رقبتها فيتدلى طرفاه على ظهرها. تسير بيديها في جيبيها لكن رأسها يلتفت يمينًا ويسارًا. ربما تبحث عني، تريد أن تسلم ابن اختها القاصر إلى الشرطة.

يعاود الضابط خان التحدث في هاتفه.

«نعم، نعم. فهمت. سأكون هناك خلال خمس دقائق». أراه يبتعد هو الآخر.

ينخر الحمالان ويخبر أحدهما الآخر أن يتحرك في اتجاه معين أو آخر. يتساءل أحدهما إن كان ضابط الشرطة سيأمرهما بتحريك الشاحنة التي تشغل مكان سيارتين أمام العمارة.

بخفقتين من جناحيهما الرماديين، تحلق الحمامتان لأعلى لتنضما إلى أصدقائهما. ها هي ذا، أقرب مني إلى السماء. الحقيقة إنها ستظل كذلك إلى الأبد، أقرب مني إلى السماء.

لا أظن أنني شعرت بوحدة هكذا من قبل. أغطي رأسي بيديّ. لا أتذكر أنني فكرت في الاستسلام من قبل حتى هذه اللحظة. حتى التفكير في المسافة التي قطعتها، في مدينة تخافها أمي، لا يساعدني الآن. ربما، ربما فحسب، عليّ أن أهبط وأتوجه نحو الضابط خان. لا يبدو من الأشرار رغم كل شيء. ظني أنه يؤدي واجبه فقط. كان عليّ أن أؤدي واجبي أنا الآخر حين أخذوا أمي. كان على أن أكون ابنها، أن ألتصق بها مهما حدث.

أتخذُ قراري. لقد تعبت من الشعور بالعار. تعبت من الركض، خاصة بعد أن قالت من أهرب إليها أنها ستسلمني. يوجد قدر ما صغير من الراحة في هذا القرار، حتى وإن كان على النقيض مما أريده.

تهدل طيور الحمام مجددًا، تمد رأسها للأمام. أعاود النظر إلى الشارع حين أسمع صوت سيارة أخرى. إنها سيارة شرطة. لا بد أنه الضابط خان لكنني لا أرى من بداخلها. بعد قليل أسمع بابها ينفتح. أستعد لهبوط السلم، أنتظر لأرى إن كان هو الضابط خان. لكن الشرطي الذي يترجل من السيارة ليس الضابط خان. لم أره من قبل. لكنه يرتدي الزي الرسمي الأزرق نفسه. يمسح المباني بعينيه من أعلى لأسفل، ثم ينقر على زجاج النافذة الخلفية للسيارة. يشير إلى شيء ما بعيد ثم يسير مبتعدًا، تاركًا السيارة.

أعرف أن هذا سخف، لكنني لا أريد أن أسلم نفسي إلا للضابط خان. لقد بدأتُ به وأريد أن أنتهي به أيضًا. ربما لأنني لن أضطر إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة. ربما سيساعدني على

مراسلة أمي. كان في عينيه عطف أتمنى أن يظل موجودًا حتى النهاية.

أرى حركة وراء زجاج النافذة الخلفية لسيارة الشرطة. يوجد شخص ما بالداخل. أمعن في النظر لأرى من يكون. يقترب الشخص من الزجاج، كأنه أحس باهتمامي. أرى يدًا واحدة ثم الأخرى تضغطان الزجاج. ثم أرى الوجه.

أكاد أصرخ

أمي في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة.

أمي! أنهض على قدمي. بأي سرعة سأهبط هذا السلم؟

تنطلق الحمامات، أجنحة رمادية في سماء ملونة.

لن أتركها هذه المرة.

أهبط السلم بأقصى سرعة ممكنة. إلى الطابق الرابع، ثم الثالث ثم الثاني. أنظر إلى سيارة الشرطة. تحدق أمي أمامها مباشرة، ربما تنتظر عودة ضابط الشرطة إليها.

على أن أصل أنا إليها أولًا.

إنها قفزة طويلة من هنا إلى الأرض، لكن الحمالين تركا قطع أثاث بين الشاحنة والمدخل. توجد مجموعة مقاعد، دولاب، ومرتبة مغلفة بالبلاستيك. أنظر أسفلي. أنا على ارتفاع عشرة أقدام على الأقل عن أرض الرصيف، لا وقت للخوف. أتعلق جيدًا بحديد السلم، أمد ذراعيّ، وأقفز كطير حمام يحط في بيته.

أسقط على المرتبة، يخشخش البلاستيك أسفلي. أنهض بسرعة وأعبر الشارع. تُمسك يدي بمقبض باب السيارة قبل أن تفهم أمي ما يحدث. أراها تقفز في جلستها للخلف كي تراني.

«شاه!» تصرخ.

«مادر!» أصيح. أجذب الباب من الخارج لكنه لا ينفتح. تحاول هي فتحه من الداخل، بيديها الاثنتين، لكنها لا يمكنها فتحه أيضًا. لست مدهوشًا لكنني محبط. كنت آمل في استراحة، هذه المرة فحسب.

يتمزق قلبي لرؤية أمي حبيسة سيارة شرطة.

«شاه جان، أنت بخير! أين كنت؟ قلقتُ عليك بشدة!»

«مادر، يجب أن نبتعد من هنا!» سأجيب أسئلتها لاحقًا. عليّ الآن إيجاد طريقة لإخراجها من سيارة الشرطة. وأن أتحرك بسرعة، قبل عودة الحمالين لحمل قطع الأثاث الأخرى وقبل عودة الضابط إلى سيارته.

«سيعود ضابط الشرطة»، تصيح، يكتم زجاج النافذة صوتها.

«أعرف!» أحاول ألا أصيح كي لا ألفت الأنظار. أنظر في الشارع لأرى إن كان أحد يقترب منا. لا أحد. «سأكسر الزجاج، مادر. يمكننا الاختباء. يجب أن أخرجك من السيارة فحسب!»

أهوي على الزجاج بقبضتيّ، أكره نفسي لعجزي عن تحطيمه.

«لا! شاه جان، لا!» تصيح بعصبية.

ما زالت تظنني غير قادر على التعامل مع هذا. أعرف أنها مرعوبة لكنني كنت مرعوبًا أيضًا. إنه الشيء الوحيد الذي دفعني للتحرك من محطة الوقود في إلكتون، إلى محطة القطار في نيويورك، ثم إلى المستشفى، ثم إلى مدينة مانهاتن الطويلة. ظللت مرعوبًا في كل خطوة في الطريق، لكنني كنت خائفًا أكثر من فقدان أمي إلى الأبد، لذلك واصلت التحرك.

«شاه! الشرطة-»

أبحث عن شيء ما لاستخدامه في تحطيم الزجاج. أرى الحمالين قد تركا دوللي [عربة يد صغيرة] على الرصيف، أركض عبر الشارع لجلبها. مكونة من لوحي خشب على عجلات معدنية، تستخدم لحمل الكتب الثقيلة. وهي أثقل ما أراه، لذلك يجب أن تفي بالغرض. أحملها وأعاود الركض إلى السيارة، أرفعها أعلى رأسي بعزم.

«شاه! لا! لا تفعل هذا!»

كيف إذن سنعود معًا؟ أريد أن أسأل أمي. أنا تائه من دونها. أبكي فتبكي هي الأخرى.

«ابتعدي عن النافذة يا مادر!» لكنها لا تتحرك. تصيح بشيء ما لا يمكنني سماعه من بكائي. لذلك أتردد. لذلك ما زلت أمسك بالدوللي أعلى رأسي، على أهبة الاستعداد لتحطيم زجاج سيارة الشرطة بها، حين أسمع صوتًا في الشارع.

«إياك أن تجرؤ أيها الفتى!»

إنه ضابط الشرطة الذي يحبس أمي في السيارة. يركض نحوي. أنظر إلى أمي تضغط براحتيها على الزجاج، ودموعها تتسال على خديها. عيناها حمراوان وتبدو منهكة.

يأتي الضابط خان ركضًا من المنعطف. مرفقاه كجناحين، يركض أسرع من كل عدائي الماراثون الذين رأيتهم اليوم.

«جيسون دي!» يصيح.

أنظر إلى أمي وأدع الدوللي تسقط على الأرض. أنتظر وصول الضابطين إليّ، دون أن أرفع بصري عن أمي. ربما لن يمكننا الهرب. لا بأس. الأهم أنني لن أتركها. سأحارب بكل قوتي لأظل معها.

وقد صرت أعرف الآن كيف أحارب بقوة.

الفصل الثاني والثلاثون

يُمسكني الضابط خان من كتفي. لا داعي لهذا مع ذلك. لن أهرب. أقف ساكنًا، يداه تقبضان عليّ، فيما يفتح الضابط الآخر باب السيارة.

«آسف جدًا. علينا إقفال الأبواب من الداخل دائمًا وأنا ....»

تندفع أمي خارج السيارة قبل أن ينهي تبريره. تعانقني، أنا بين ذراعيها، أشعر كأن ملايين الأرطال قد سقطت عن كتفيّ.

«مادر»، أريد أن أقول أشياء كثيرة جدًا، لكن لا شيء يخرج من فمي الآن.

يتحدث الضابط خان في هاتفه.

«نحن معه»، يقول. يضع يده الأخرى في خصره ويثبت عينيه عليه كأنني سأنطلق في الركض مجددًا. «لا جروح واضحة. يبدو بخير. نعم، أوقف منبه أمبر».

تضغط أصابع أمي في كتفي، لكن هذا يسعدني. أشعر بدقات قلبها، وذراعاي حول خصرها. نستند إلى سيارة الشرطة. عاد الحمالان من الداخل وينظران نحونا بفضول.

«أنتِ لستِ في أفغانستان»، أقول لأمي.

«لا جانِم. أنا هنا».

«لكنني رأيتهم يأخذونك».

«ألهذا كنت تهرب؟» تسألني أمي بصوت يرتعش. أومئ برأسي. لقد أعدت ذاك الصباح في ذهني مرارًا وتكرارًا. لا أظن أنني

سأنساه أبدًا.

«كنت في محطة الوقود ورأيتهم. رأيتك في تلك السيارة، ترحلين».

«يا فتاي الطيب، أنا آسفة. لا أريدك أن تحس بهذا الخوف أبدًا!»

«سأذهب معك، مادر. سأذهب معك إلى أفغانستان. لا يهمني الخطر هناك. لا أريد أن أبقى هنا وحدي».

«نحن لن نذهب إلى أي مكان جانِّم. لدينا الكثير لعمله، لكننا سنكون بخير، على ما أعتقد».

«ماذا تقصدين؟»

تنظر إلى ضابطي الشرطة. تأخذ نفسًا عميقًا وتبدأ التوضيح لي.

«لقد تقدمت بطلب إذن بالبقاء. حين أخبرتهم كيف جئت إلى هنا وبكل شيء عن والدك ولماذا لا يمكنني العودة، أخبروني أن عليّ طلب اللجوء السياسي. توجد أوراق كثيرة لملئها وسيكون عليّ حكي قصتي، لكنني لديّ الإيمان والأمل. ظني أننا سنكون بخير، شاه جانِّم».

حين تدعوني بمليكها، أشعر أننا سنكون بخير. وبراحة كبرى.

«أريد أن نعود إلى البيت مادر جان».

تقبل جبيني وتمرر أصابعها في شعري.

«أنت بيتي»، تقول بصوت حلو كالعسل.

يضع الضابط خان يده على كتفي مجددًا.

«ظني أن علينا إعادتك إلى المستشفى لإجراء فحص شامل.

تبدو لي بخير، لكننا يجب أن نتأكد».

«أنا بخير. لست بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى».

«جيسون دي، لديك كدمة سيئة في رأسك بالفعل. لم يكن عليك اليوم سوى أن ترتاح وتأخذ الأمور ببساطة. لكنك لم تفعل شيئًا من هذا. ما زلت مدهوشًا حقًا. أعني، لقد كنتَ في المستشفى. وما أسمعه بعد ذلك، أنك وصديقتك اختفيتما، ثم تهرب على ظهر حصان الشرطة، ثم تتجول في الشارع الرابع والسبعين غربًا. هل فاتني شيء آخر؟»

لا، لم آخذ الأمور ببساطة اليوم بالفعل. وأنا فخور بهذا.

«حديقة حيوان السنترال بارك». أجيبه.

«أذهبتما إلى حديقة الحيوان؟ واو. لم تذكر ماكس شيئًا عن هذا».

أقف منتبهًا له.

«هل تحدثتَ مع ماكس؟»

يومئ برأسه، بابتسامة صغيرة.

«إنها بخير. لكنها كعكة صلبة مع ذلك، مثلك».

«نعم»، أقول وأتذكر النظرة الحديدية في عينيها حين تقرر شيئًا ما. «إنها أكثر من كعكة».

يومئ برأسه مجددًا ببطء ويرفع يديه لأعلى كأنه يعتذر. «أنا أسحب تعليقي»، يقول بمرح. يرن هاتفه فيستأذن منا ويبتعد ليجيب. يتقدم منا الضابط الآخر.

«المستشفى فكرة جيدة. الأفضل أن نتأكد، كما قال صديقي».

أحيط أمي بذراعي مجددًا وأقول بإصرار. «لن أذهب إلى أي

مكان دونها».

«هذا بالضبط ما نريده منك»، يجيبني الضابط، فأشعر أن بإمكاني التنفس أخيرًا.

نسمع قعقعة باب الشاحنة، وأرى الحمالين على الرصيف. تيشرتاهما الأصفران مبقعان بالعرق عند إبطيهما وأسفل ظهريهما.

«أين وضعت الدوللي يا تشارلي؟» يسأل أطولهما، وينطق تشارلي ليجعلها على وزن كلمة دوللي.

«اسمي ليس تشارلي» يغمغم الآخر.

«كان من الممكن أن أستخدم الأسوأ. كنت سأدعوك بوللي».

«أتعرف ماذا تكون؟ أحيانًا تكون حقًّا....»

«أنظر، ها هي! ماذا تفعلون بهذه يا رفاق؟»

الدوللي عند قدميّ بالطبع. مقلوبة وعجلاتها تدور في الهواء، كخنفساء انقلبت على ظهرها.

«أهذا هو الفتى الذي كنت تبحث عنه؟» يصيح الحمال الطويل بفرح. «لقد وجدته!»

«أين كان؟» يصيح من لا يُدعى تشارلي.

«كل شيء بخير هنا، شكرًا لكما يا رفاق». يوقف الضابط خان أسئلتهما. يعدل الدوللي على الأرض ويدفعها نحوهما. يلتقطها من لا يُدعى تشارلي فيما ينظر صاحبه إلى المرتبة وآثار أقدامي الواضحة على غلافها البلاستيكي.

«يا بوللي»، يقول وهو يهرش رأسه. «ألم تنهَكَ أمك عن القفز كالقردة على الفراش؟»

الفصل الثالث والثلاثون

أجلس في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة بين أمي وخالتي سيما. تحدق كل منهما فيّ بنظرات غريبة. أتساءل إن كان قد نما لي رأسًا آخر مثلًا أو شيئًا ما كهذا.

«حقًّا شاه»، تقول خالتي سيما بنبرة تأنيب رقيقة. «أتظن أنني أريد سجنك حقًّا؟ أوه. كل هذه السنين وهذا ما يظنه ابنك يا رونا؟»

«أنا آسف يا خالتي سيما. حين سمعتك تتحدثين مع...» أخفض صوتي لأن الضابط خان هو من يقود السيارة، وما زلت أشعر بالذنب لأنني كذبت عليه وهربت في حين كان يحاول مساعدتي فحسب.

«أوه، أنا سعيدة لأنك بخير. ولأنك كنت قادمًا إليّ. يسعدني هذا جدًّا. أنت تعرف أنني سأفعل لك أي شيء». تجذبني إليها بقوة. رائحتها، دائمًا، خليط من البخور ونوع الشاي الداكن الذي تشربه. أرى رتوش ألوان مختلفة على أظافرها وجلد يديها. يتدلى وشاحها المزركش حول عنقها فضفاضا، وعيناها ناعمتان وبنيتان. يسعدني وجودها معنا حقًّا.

«ظللت لسنوات ألح على أمك لتطلب اللجوء السياسي. من يمكنه رفض طلبها بعد كل ما فعله أبوك وما حدث له؟ وبعد كل ما فعله لهؤلاء الجنود؟»

«كنت خائفة يا سيما».

تبدو أمي كأنها في حاجة إلى أن تسمع شيئًا ما. أريد أن أنزع منها شعورها هذا الآن. «أنا أعرف ماذا يعني الخوف يا ماما. لكنني أشعر أننا سنكون بخير».

لم أقل الكثير، لكن شيئًا ما فيها بدأ يسترخي. تمد خالتي سيما يدها وتضعها على يد أمي.

عودة إلى المستشفى الذي تركته. ليس أقرب مستشفى، لكنه الذي قمت فيه بكل التحاليل، ولا داعي لتكرارها مجددًا في مستشفى آخر. يسجلون دخولي في غرفة الطوارئ نفسها. يفحصني طبيب وممرض من رأسي حتى أخمص قدمي. يقرأ الطبيب، رجل عجوز بما يكفي ليكون جد أحدهم، بياناتي السابقة ويتحسس الكدمة في رأسي. يوجه قلمًا ضوئيًّا في عيني ويأمرني أن أقف على قدم واحدة. يسألني كثيرًا من الأسئلة عما فعلته بعد خروجي من المستشفى.

يهز رأسه، ليس بإحباط، بل بإعجاب ما.

«ظللتُ في عملي هذا وقتًا طويلًا، وقتًا طويلًا حقًّا. ولم أر أحدًا ينفذ هروبًا كبيرًا كهذا».

أعتدل في جلستي، كأنه ربت على ظهري. لم أتوقع قوله هذا، خاصة أنني هربت من هنا.

«لكن اسمح لي بسؤال واحد. من باب الفضول فحسب»، يقول ويداه في جيبي معطفه الأبيض.

تجلس أمي وخالتي سيما على مقعدين داخل الغرفة. تميلا

إلى الأمام باهتمام شديد لمتابعة هذه المحادثة جيدًا. ظلتا تخشيان، هما أيضًا، أن أكون قد أخفيت جزءًا خطيرًا ما من القصة. ظني أنهما سيصدقانني فورًا لو أخبرتهما أنني صارعت نمرًا وسط ميدان التايمز.

«تفضّل»، أقول، «ما هو؟»

«كيف خرجت من باب القسم؟ لدينا بالأعلى هناك في قسم الأطفال نظام أمني محكم بالنسبة إلى طفل».

«أوه، هذا». أبتسم لنفسي، أتذكر كيف سرقت ماكس بطاقة مرور الممرض إريك، وكيف نزعنا أسورتي المستشفى من رسغينا بالصابون. يمكنني إخباره بهذا لكنه سيكون كشفًا كبيرًا. لم أعد مانهاتن دوي هنا، لكنني بإمكاني أن أظل غامضًا قليلًا. «لا يمكنني إخبارك بهذا الجزء، لكن إن حدث ووجدت نفسك في مأزق ما لا تتردد في الاتصال بي».

يرفع حاجباه ويطلق ضحكًا عاليًا تتحرك معه بطنه. تضع أمي يدًا على جانب وجهها، نصف محرجة ونصف مستمتعة بردي. تصفق خالتي سيما بيديها الاثنتين بسعادة لأنها لا تمانع من خرق بعض القواعد أحيانًا.

أراقب الطبيب يخرج من الغرفة وأرى الضابط خان يقف في الرواق إلى جانب منضد طويل. يملأ بعض الاستمارات. أنهض من فوق طاولة الفحص. أرتدي رداء مستشفى آخر على الذي أرتديه لتغطية ظهري من الخلف. أريد أن أبدو لائقًا وأنا أفعل ما سأفعله.

تنهض خالتي سيما وأمي فورًا. «أريد أن أتحدث مع الضابط

خان لدقيقة»، أوضح لهما حين أرى التساؤل على وجهيهما. تضع خالتي سيما يدها على مرفق أمي. تعاود الاثنتان الجلوس، وأقف عند الباب. أمد رأسي وأتنحنح للفت نظر الضابط خان. حين ينظر نحوي، أخرج من الغرفة إلى الرواق، وأغلق الباب خلفي.

«أريد أن أخبرك فقط أنني آسف حقًا لأنني لم أخبرك بالحقيقة»، أقول ببطء. «أعرف أنك كنت تحاول مساعدتي».

يترك الأوراق على المنضد. «أنا لا أحب ما فعلته يا جيسون دي، لكنني أعرف لماذا فعلته. وأتمنى ألا تعتبر من يرتدون الزي الرسمي الأزرق من الأشرار. لأننا لسنا كذلك. أتمنى أن يكون هذا واضحًا لك الآن».

«واضح»، أقول. أشعر بوجهي يحمر خجلًا فجأة. «لكنني لم اعتبرك شريرًا، بل اعتبرت نفسي كذلك. أقصد، إنها أمي من خرجت عن القانون».

يزم شفتيه وينظر إليّ مطولًا. يقترب وينظر في عيني مباشرة بطريقة لا يفعلها أغلب الكبار.

«أنت لست شريرًا. وأمك ليست شريرة. أحيانًا يخرق الناس القواعد لأنهم يعتقدون أن هذا كل ما يمكنهم فعله. أحيانًا يكون هو الصواب. هذه أسئلة صعبة، والأسئلة الصعبة ليس لها إجابات سهلة. لكن لا تلم أمك. لقد فعلت ما فعلته لأنها كانت خائفة. أنت تعرفها أفضل من أي شخص آخر. استمع لما يمليه عليك قلبك، وليس لأي قطعة ورق».

أحدق في البلاط البارد لأرضية المستشفى. هذا حقيقي. كنت أشعر بالخجل لأن أمي تخفي عني الكثير ولأنها خرقت

القواعد. حين يتحدث من في التلفاز عن الحدود والوثائق، لا أظن أنهم يتحدثون عن أمي. لكنني أعرف أن الضابط خان محق. لم تختر أمي الوقوف في الجانب الخاطئ من أي قاعدة قط. إنها إنسانة طيبة بخيارات سيئة.

«شكرًا لك»، أقول. يبدو أنه يفهم قصدي من تلك الكلمة الصغيرة الواحدة. فتشجعني نظرته بما يكفي لأتقدّم بطلبي الكبير.

«أردت أن أطلب منك المساعدة في شيء ما». هذا أحد أسباب عدم ممانعتي كثيرًا حين أخبرني أن علينا العودة إلى المستشفى لعمل فحص شامل.

«تفضل يا صاحبي».

«أريد أن أرى ماكس».

«أوه»، يقول. «بالطبع».

ظللت أفكر فيها منذ أن تركتها على الرصيف. ظللت أتمنى ألا تواجه مشكلات كبيرة وألا تكون مريضة كثيرًا. كان الهروب من المستشفى أصعب عليها مما كان عليّ. لكنني أفهم لماذا فعلته. إنها إنسانة طيبة أرادت حرية الاختيار.

«دعني اتصل بوالديها لأرى ماذا سيقولان. ربما يمكنك إعادة حقيبتها لها».

«الحقيبة التي تركتها على الرصيف؟»

يلكزني بمرح.

«إنه عملي أن أجمع الأدلة من موقع الجريمة، وأحتفظ بها

في سيارتي».

أتذكر الهاتف ودفتر اليوميات، الرسالة التي كتبتها لصديقتي الجديدة، الرسائل التي كتبتها هي لنفسها. مطوية معرض فنسنت فان جوخ وفنه المدهش الذي أنتجه ذهنه. أريد أن أعيد الحقيبة إلى ماكس.

نبدأ التنفيذ. يتحدث الضابط خان مع طبيبي. يتصل الطبيب بممرضة بالأعلى. ثم أجدني أحمل الحقيبة على كتفي كما فعلت طوال اليوم تقريبًا، وأنا في المصعد مجددًا، متجه إلى طابق قسم الأطفال للمرة الثانية خلال ثلاثة أيام.

ماكس في غرفتها. تجلس على فراشها، تنظر إلى قدميها تتدليان من جانبه. تبدو مرهقة قليلًا لكنها بخير باستثناء ذلك. تنظر إلى الباب حين تسمع طرقًا. يسعدني أن أرى وجهها يشع سرورًا لرؤيتي.

«جيسون دي!» تصيح وهي تقفز من فوق الفراش وتعانقني بقوة. يقف والداها عند الجدار، يمسك أحدهما بيد الآخر ويبدوان كأنهما على وشك البكاء. لا شك أننا، أنا وماكس، قد حولنا جميع الكبار إلى حُطام عاطفي اليوم.

«لقد فعلتها!»

تحتل وجهي ابتسامة واسعة.

«سمعتُ أنك وجدت خالتك! كنت أعرف أنك ستفعلها».

«ظني أنني فعلتها».

أريد أن أقول المزيد- أريد أن أخبرها أنني لم أكن لأنجح لولا مساعدتها، وأنني ظللت أتمنى لو كانت معي لبقية اليوم، وعن

كيف تسللت إلى شاحنة طعام وبعيدًا عن الضابط خان بمسافة شارع واحد فقط. لكنني أغلق فمي، أفكر أنها ليست فكرة جيدة أن أتفاخر بما فعلناه الآن أمام أمي وخالتي سيما ووالدي ماكس.

بدلًا من هذا، أناولها حقيبتها التي رافقتني بعد أن افترقنا.

تنشغل أسرتانا بالتعارف والاعتذار بعضهم لبعض على سلوكينا. يبدو الأمر لي سخيفًا قليلًا، لكن أحيانًا لا يمكن للكبار الوقوف دون قول شيء.

«لقد فقدت حقيبتك، لكن الضابط وجدها. وأردت أن أعيدها إليك. هاتفك فيها».

«حاولت الاتصال بك عليه لكنك لم تجب قط».

«أكان ذلك أنتِ؟» أتذكر تحديقي في الرقم المتصل، وتساؤلي إن كان عليّ الرد.

«حين عدت إلى المستشفى، أخبروني أن أمك تبحث عنك. حاولت أن أخبرك، لكنك لم تجبني».

أريد أن ألكم نفسي.

«نعم»، تقول ماكس وتأخذ الحقيبة مني. تنظر إلى مجموعة الكبار في ركن الغرفة. يتحدث بعضهم مع بعض ويرمقوننا بنظرات جانبية.

«إن جراحتي غدًا»، تقول ماكس بهدوء وهي تعبث بسحاب حقيبتها، تطرف أهدابها بعصبية.

أبحث عن الكلمات المناسبة. لماذا يصعب بشدة معرفة ما يجب قوله؟

«ستكونين بخير يا ماكس. أنا واثق أنه لا داعي للقلق، وسوف آتي لزيارتك حين ينتهي الأمر وتعودين إلى طبيعتك لأخبرك أنني

أخبرتك بهذا من قبل».

تنظر إليّ بتركيز. انتبهت لما قلته. وأنا صادق فيه. لا أظن أن أي شيء قد يغيرها، ولا حتى عملية جراحية في مخها. أعتقد أنها ستظل كما هي دائمًا، وسأظل دائمًا سعيدًا بصداقتها.

«وأنا واثقة أنك صرت مشهورًا الآن»، تقول وهي تميل برأسها وفمها بمناورة ذكية.

«أنت الفتى الذي قلب مانهاتن رأسًا على عقب وهرب من الشرطة. لا تدع الشهرة تغيرك، اتفقنا؟ ما زلت بعيدا جدًّا عن هوليوود».

ما زالت تبتسم ونحن نغادر غرفتها. تتبعني بعينيها في الرواق، تبدو صغيرة لكنها قوية في رداء المستشفى وأسورة جديدة حول رسغها.

«بالمناسبة»، أقول بهدوء من أعلى كتفي، «تفقدي الصور على هاتفك. أنا أقرب إلى هوليوود مما تظنين».

الفصل الرابع والثلاثون

اليوم الجمعة في شهر ديسمبر، أمي منهمكة تمامًا في تقطيع الطماطم والخيار والبقدونس. والأرز، ويخنة اللحم، والباذنجان، تغلي كلها معًا في الفرن.

تجلس خالتي سيما إلى طاولتنا الصغيرة وتهز رأسها لقلق أمي الشديد.

«لم تقومي بكل هذا من قبل في أثناء زياراتي»، تقول متظاهرة بالحزن.

«هذا ليس حقيقيًّا يا سيما»، تغمغم أمي، وتضحك خالتي سيما لأن أمي محقة، إذ تظل تطبخ ليومين كاملين كلما زارتنا خالتي سيما.

حين يرن جرس الباب أدرك أنني قلق مثل أمي. نظفت غرفة نومنا لعشرين مرة على الأقل. وعدّلت الوسائد على الأريكة كثيرًا جدًّا إلى حد أن بدت مرعوبة من التحرك.

«سأفتح أنا!» أصيح.

«شاه جان، لا تركض»، تصيح ماما، مع أنها هي تقفز بالفعل لتضع لوح التقطيع والمصفاة جانبًا، السماء المعدنية المليئة بالنجوم. «تذكّر مِس راز!»

مِس راز. حين عدت، جلست أمي معها وحكت لها كل شيء. جاءت الشرطة إلى بيتنا يوم أن هربت، وطرحوا عليها كثيرًا من الأسئلة. تبين أنها كانت قلقة بشأني حقًّا. خرجت للبحث عني

في الجوار واستعادت حقيبتي من ذلك الكلب الصغير الغاضب. أخبرت أمي، حين أحضرت الحقيبة إلينا، أنها ليست صاحبة البيت فحسب، بل إنها جارتنا أيضًا وصديقتنا. لم تقل هذا بابتسامة أو أحضان لزجة. لكنها قالته، وكانت تعنيه.

ظلت صور أبي في حالة جيدة رغم مخالب الكلب الصغيرة. أعدتها الآن على طاولة جانبية في غرفة المعيشة. حدقت فيها طويلًا قبل أن أعيدها إلى إطاراتها. ظني أنني أشبهه بالفعل. الأنف المائل نفسه. الحاجبان الداكنان. ربما سأصير صحفيًّا أو كاتب قصص يومًا ما. أفكر في الأشياء الجيدة التي أخبرتني بها أمي عن أفغانستان، وظني أنني أرى قليلًا منها فيّ.

ربما سأبدأ بكتابة قصة الفتى الأفغاني الأمريكي الذي سافر عبر العالم للعثور على أسرته، ممتطيًا فرسه ومعتمدًا على صداقة وكرم الناس الذين يعدون من أبناء بلده لكنهم أيضًا غرباء. تبدو كقصة أفغانية إلى حدٍّ ما. وتبدو قصة أمريكية أيضًا. ظني أنني ليس عليّ الاختيار- كما قالت ليز، يمكنك أن تكون الاثنين.

«سيما، أأنت متأكدة أن ملابسي جيدة؟»

تمسك خالتي سيما بكوب عصير مانجو في إحدى يديها. تنظر إلى بنطال أمي الأسود المكوي جيدًا وبلوزتها السماوية، تتدلى قلادتها اللازورد على عنقها. تشير خالتي سيما إلى بنطالها هي الجينز، الممزق عند الركبة، وقميصها الأحمر الخفيف.

«جيدة مثل ملابسي تقريبًا»، تقول وهي تلقي بنفسها على الأريكة. يمكنها قضاء أسابيع في ترتيب بقع الألوان على لوح قماش أو في إعادة خلق مشهد صحراوي. تهتم بنا حقًّا. وتحرص

بشدة على أن تذهب كل قصاصة ورق إلى سلة زرقاء لإعادة تدويرها. لكن لا شيء آخر يهمها كثيرًا. هذا ما أحبه فيها.

أفتح الباب على وسعه.

«مرحبًا جيسون دي»، تقول ماكس. خداها أحمران من صعود ثلاثة طوابق دون مصعد. تبدو بخير، كأنها استيقظت من ليلة نوم جيد وحلم رائع. يقف والداها خلفها، خجلان قليلًا.

«نرجو ألا نكون مبكرين. لم نطق صبرًا على تناول أول عشاء أفغاني أصلي!»

تسعدني رؤيتها حقًا. لدي الكثير جدًا لأخبرها به، والكثير جدًا لأسألها عنه. هل تتذكر كل تفصيلة صغيرة عن كونها ماكس؟ ماذا عن اليوم الذي قضيناه معًا؟ هل تتذكر الفأر الذي كان يمد رأسه في الزقاق وتعبير وجه الدكتورة شاباني حين رأيناها في الماراثون؟ هل أمكنها العودة إلى دائرة أشجارها بعد الجراحة؟ أريد أن أخبرها عن المحامي الذي ساعد في كتابة قصة أمي بملء صفحة تلو الأخرى بالحقيقة المريرة خلف ما فعلته. أريد أن أخبرها عن الخطاب الذي تلقيناه وأخبرنا أن بإمكان أمي الإقامة في أمريكا وحمل الجنسية الأمريكية، مثلي. أتساءل إن كان بإمكاني اصطحاب ماكس إلى السطح لأريها طيور الحمام والمنظر الرائع لإلكتون، بلدتي. أتساءل إن كان سيتاح لنا الوقت لكل هذا. قد لا يحدث. ربما علينا أن نبدأ ببطء.

«مرحبًا ماكس»، أقول ضاحكًا، متذكرًا كرم الضيافة الأفغاني. أتنحى جانبًا عن الباب وأشير بذراعي إلى شقتنا. «مرحبًا بكم في بيتنا».

ملحوظة من المؤلفة

أنا لست جيسون دي لكنني أشبهه بالطبع. جاء والداي إلى الولايات المتحدة قبل سنوات قليلة من ولادتي. جاء خلفهما، هربًا من أفغانستان التي مزقتها الحرب، أقارب وأصدقاء كثيرون، أو نزحوا إلى بلدان أخرى كلاجئين. لا أعرف كم كان عمري حين عرفتُ كلمات مثل إفادات، وثائق، تأشيرات، واللجوء السياسي، والعفو، المفردات اللغوية الأساسية عند أسر المهاجرين، خاصة الهاربين من بلدان دمرتها الحرب.

تفاءل والداي بمستقبل أفضل في أمريكا، أرض التكافؤ والحرية والتحرر التي سمعا عنها على الجانب الآخر من العالم. لديهما صور وهما شابين يقفان أمام تمثال الحرية الشاهق، المنارة «للجموع المتعبة التي تتوق إلى الحرية».

في السنوات الأخيرة، صارت مسألة الهجرة قضية مثيرة للاستقطاب بشدة. من الجدير بمنحه امتياز العيش في الولايات المتحدة؟ ما مسؤولية البلد في مساعدة الأسر الهاربة من الخطر في أنحاء العالم؟ لا توجد إجابات بسيطة لهذه الأسئلة الصعبة، لكننا يمكننا مناقشتها باحترام وتعاطف، مع الأخذ في الحسبان دائمًا أننا نتحدث عن بشر. نحن جميعًا أغصان شجرة واحدة، كما قال الشاعر الصوفي حافظ في قصيدته الرائعة التي أعلقها في غرفة نومي.

العلاقة بين أفغانستان والولايات المتحدة طويلة الأمد ومتعددة الطوابق. في السنوات الأخيرة، عمل كثير من الأفغان مترجمين

للجيش الأمريكي في أفغانستان. وضعهم عملهم هذا في مواجهة أخطار جسيمة، واجه عدد كبير منهم اتهامات بالعمالة والتجسس، وتلقى الكثير تهديدات بالقتل. وقُتِل الكثير جدًّا منهم بالفعل.

دعم أمريكيون كثيرون هؤلاء المترجمين بوعدهم بفرص للقدوم إلى الولايات المتحدة. ونما لدى الكثير جدًّا من المهاجرين الحسُّ الوطني الأمريكي قبل وقت طويل من وصولهم إلى البلد. أرجو أن تسهم قصة جيسون دي في زيادة وعي القراء بتعقيدات قضية الهجرة وأهميتها.

ثم لدينا ماكس، التي تناضل نضالًا مختلفًا تمامًا، لكنه يجعلها تفكر في هويتها هي الأخرى. إنها فتاة تأتيها نوبات، لكنها أكثر من هذا بكثير جدًّا. والداها يقلقان عليها بشدة، بطبيعة الحال، لكنها ترفض أن يمنعها مرضها من استكشاف مدينة نيويورك الساحرة.

بصفتي طبيبة أطفال، نلت شرف مشاهدة أطفال يهزمون الأمراض؛ السكري، السرطان، الصرع- لأنها ليست هويات. يعرف الأطفال هذا ويعيشون حياتهم إلى أقصى حد ممكن ببسالة. إنهم أبطال خارقون، سواء بعباءات على أكتافهم أو من دون.

إلى جميع الأبطال الخارقين الذين يُمسكون بهذه القصة بين أيديهم، سيختبركم هذا العالم اختبارات صغيرة أو كبيرة. ربما يكون قد اختبركم بالفعل. اعلموا أن المرء بقلبه وأفعاله. وفي الوقت المناسب، انطلقوا وأذهلوا العالم بقواكم الخارقة.

شكر وتوطئة

زوران، زايلا، كيروس وسايرا- شكرًا لكم للباقات اليومية من الفوضى والتشجيع والحب والضحك والأسئلة التي ثبتت قدميّ على الطريق. لقد ساهمتم جميعًا، ومعكم بابا ويايا، في جعل كتابة هذه القصة أمرًا مستحيلًا وضروريًا بالنسبة إليَّ. أمين، شكرًا لك لصدق اهتمامك الدائم بمصلحتي الفضلى، ولكونك مرآتي العاقلة، ولحلمك الأكبر من الحياة. شكرًا كذلك لوكيلة أعمالي المخضرمة، سارة هيللير، لدفعها بهذه القصة في الاتجاه الصحيح. وجزيل الشكر لمحررتي الأدبية، روزماري بروزنان، لإرشاداتك الجوهرية، وتشجيعك لي على تناول القضايا الصعبة، ولإيمانك بأدب النشء.

ينبع قدر كبير من هذه القصة من خبرتي العملية مع أطفال مثل ماكس. لنجوم الروك الشباب في حياتي- نايلا، كايلي، آريا، ميلا، سوراب، سارة، حنة - أنتم جميعًا مصدر إلهامي للكتابة عن الأطفال المدهشين، وربما بعض مادتي أيضًا. شكرًا للأطباء الكبار الكثيرين الذين علموني، لتعاطفهم ومهارتهم، ولجميع العاملين في مجال الصحة الذين عملت معهم على مدار السنين. وبالطبع، شكرًا ملء العالم للأطفال الذين اعتنيت بهم ولأسرهم لتعليمي عن الشجاعة والرحمة والمرض.